بلاد التيجان السبعة

دروب الرماد



رضا الحكيم الشعيري

بلاد التيجان السبعة

الجزء الثاني

دروب الرماد

حين تسكت السيوف،
تبقى الطرق تحمل ما أخفته الحرب.

رضا الحكيم الشعيري


بعد مرور أربعة أشهر

مرّت أربعة أشهر منذ حمل القروي رجلًا يحتضر من ممر المناجم، وكانت الرياح قد تبدّلت فوق الجزيرة.

صارت تهبّ باردة عند الفجر، وتترك على الحجارة السوداء طبقة رقيقة من الندى. تساقطت أوراق الأشجار القريبة من البحيرة، فظهرت بينها مسالك لم يكن نائل يراها يوم وصل، بينما بقيت أعماق الغابة خضراء كثيفة، كأن الفصول تبلغ أطرافها ثم تتراجع.

في ذلك الصباح، كان يجري قبل أن تشرق الشمس.

هبط منحدرًا ضيقًا بين جذور بارزة، وقفز فوق شق امتلأ بماء المطر، ثم انحنى تحت غصن منخفض دون أن يبطئ. حمل عصاه في يده اليمنى، وربط حقيبته إلى ظهره بحزام قصير حتى لا ترتطم بجنبيه. عند أسفل المنحدر، انزلقت قدمه فوق حجر مبتل؛ غرس طرف العصا في التراب، واستدار حولها، ثم تابع الجري وقد ترك خلفه أثر كف واحدة.

قبل أشهر، كان سيسقط هناك.

وقبل أسابيع، كان سيلتفت ليرى إن كان أوران قد لاحظ نجاته من السقوط.

هذه المرة لم يلتفت.

سمع حركة الشيخ فوق المرتفع إلى يساره، لكنه لم يتبع الصوت. ضغط بأصابع قدمه داخل الحذاء، وأبطأ تنفسه. وصل إليه اهتزاز خفيف عبر الجذر الممتد تحت التراب، ثم انقطع وعاد أقرب مما توقع.

رفع عصاه.

هبطت عصا أوران من بين الأوراق، فاصطدم الخشبان فوق رأسه. انحنى نائل تحت الضربة التالية، ودفع كتفه إلى الأمام محاولًا إبعاد الشيخ عن موضعه. انسحب أوران نصف خطوة، وتركه يندفع أكثر مما ينبغي، ثم ضربه خلف الركبة.

كادت ساقه تخونه.

ثبت العصا إلى الأرض، وأعاد توازنه، لكن طرف عصا الشيخ لامس صدره قبل أن يستقيم.

قال أوران:

— متّ.

نظر نائل إلى الموضع الذي لمسته العصا، ثم رفع عينيه إليه.

— للمرة الثالثة هذا الصباح. بدأت أعتاد الأمر.

لم يبتسم أوران، إلا أن طرف فمه تحرك قليلًا قبل أن يستدير نحو الغابة.

تبعَه نائل وهو يفرك ركبته. كانت على ساعديه آثار خدوش قديمة، وفي راحتيه جلد خشن لم يكن موجودًا حين حمل سلة الخبز إلى دكان أوران للمرة الأخيرة. طال شعره حتى صار يربطه خلف رأسه، ونقص شيء من امتلاء وجهه، لكن عينيه احتفظتا بالفضول نفسه؛ كان يتوقف أحيانًا أثناء التدريب ليتفحص حشرة غريبة أو حجرًا مختلف اللون، فيضطر أوران إلى تذكيره بأن خصمه لن ينتظره حتى ينتهي من اكتشاف الجزيرة.

بلغا أرضًا مرتفعة لم يدخلاها من قبل.

امتدت أمامهما صخور متقاربة، تفصل بينها شقوق نبتت فيها شجيرات قصيرة. وفي الجهة المقابلة، وراء حائط من الجذور والحجارة، ظهر طرف عمود مائل غطاه الطحلب.

أشار أوران إليه.

— تصل إلى ذلك العمود قبل أن ألمسك مرة أخرى.

تفحص نائل الطريق. كان يستطيع الالتفاف من اليمين، لكن الأرض مكشوفة، وسيبلغه الشيخ قبل أن يقطع نصفها. أما اليسار فممر ضيق بين الصخور، ينتهي عند فجوة لا يعرف عمقها.

نظر إلى أوران.

كان الشيخ قد رفع عصاه.

تحرك نائل إلى اليسار.

لم ينتظر الضربة الأولى. قفز فوق صخرة مسطحة، ثم هبط خلفها واستدار، فمرت العصا قرب كتفه. رد بضربة قصيرة أجبرت أوران على تغيير وقفته، واستغل اللحظة ليتقدم بين الحجارة.

جاءه الشيخ من الجانب الذي ظنه مغلقًا.

تراجع نائل، واصطدم ظهره بالجذور. أمامه أوران، وخلفه الحائط الذي يفصله عن العمود. حاول النظر إلى الممر الأيمن، لكن عصا الشيخ قطعت عليه الحركة.

لم يبق له متسع.

وضع كفه على الصخر خلفه.

شعر بالبرودة أولًا، ثم بشيء آخر تحتها.

لم يكن اهتزاز قدم، ولا ارتجاف جذر يحمل وزنًا. جاءه الإحساس ممتدًا، هادئًا، كأن الأرض خلف الجدار تستمر في جهة لا تسمح عيناه برؤيتها. مرّ خط غامض في ذهنه: درج قصير، انعطافة إلى اليمين، ثم فسحة تحت العمود.

تردد لحظة.

هبطت عصا أوران.

انحنى نائل، وجرّ طرف عصاه فوق التراب عند قاعدة الجدار. رسم خطًا منحنيًا، ثم رفعه على امتداد الصخرة، متبعًا المسار الذي شعر به دون أن يفهمه.

توقفت عصا الشيخ قبل أن تلامس كتفه.

صدر صوت من داخل الحجارة.

كان خافتًا في البداية، يشبه احتكاك باب ثقيل لم يُفتح منذ زمن. تساقط التراب من بين الجذور، وانشق الطحلب على وجه الصخرة. امتد الشق بمحاذاة الخط الذي رسمه نائل، ثم ظهرت حافة حجر منتظم خلف طبقة التربة.

ابتعد نائل خطوة.

تحركت الصخرة إلى الداخل مقدار ذراع.

لم تتحطم، ولم تسقط. انزاحت على مجرى قديم تحتها، وجرّت معها جذورًا يابسة انقطعت واحدة بعد الأخرى. انكشف وراءها ممر قصير، وفي أرضه ثلاث درجات تتجه نحو الضوء.

عبره نائل.

صعد الدرج، وخرج إلى الجهة الأخرى، ثم وضع كفه على العمود المائل.

استدار مبتسمًا.

— وصلت.

كان أوران ما يزال عند مدخل الممر.

لم ينظر إلى العمود، ولا إلى يد نائل فوقه. ركع قرب الخط المحفور في التراب، ومد إصبعين نحوه، لكنه توقف قبل أن يلمسه. ثم رفع بصره إلى الحجارة التي تناثرت حول الفتحة.

عرف نائل تلك النظرة. رآها حين امتد خط خريطته إلى وسط البحيرة، ورآها قبل ذلك على وجه الشيخ وهو يتفحص البوصلة التي لا يحب أن يراها أحد.

اختفت ابتسامته قليلًا.

— لم أقصد فتحه.

نهض أوران ببطء، وعبر الممر. مرر كفه فوق حافته الداخلية، فخرجت من تحت أصابعه طبقة من الغبار الرمادي.

— ماذا قصدت؟

نظر نائل إلى عصاه.

— كان الطريق هنا. شعرت به… فأردت الوصول إليه.

انتظر سؤالًا آخر، أو أمرًا بإعادة ما فعله. لكن أوران جلس فوق حجر قرب العمود، ووضع العصا إلى جانبه.

كان ضوء الصباح قد بلغ المرتفع. من بين الأشجار ظهرت البحيرة، ساكنة إلا من دوائر صغيرة حول حشرات الماء. وراءها استقرت السفينة السوداء عند موضعها، والحبل المربوط إلى جذع الشجرة مشدود فوق الشاطئ.

جلس نائل قبالة الشيخ. شعر الآن بارتجاف في أصابعه، فأغلقها وأخفاها بين ركبتيه. انتظر أن يتحدث أوران عن الممر، لكن الشيخ ظل يراقبه حتى هدأ تنفسه.

ثم سأله:

— ماذا تريد أن تصير يا نائل؟

رفع رأسه، مستغربًا السؤال.

لم يضحك هذه المرة. نظر نحو البحيرة، ثم إلى المسافة البعيدة التي احتجب فيها البحر خلف الأشجار. طوال أشهر، كان يسمع أن وقفته خاطئة، وأن خطواته مكشوفة، وأن يده أسرع من فهمه. لم يسأله أحد أين يريد أن يصل بكل ذلك.

قال بعد قليل:

— أريد أن أبني مملكتي الخاصة.

ثبتت يد أوران فوق عصاه.

تابع نائل، وقد صار ينظر إليه مباشرة:

— وأوحّد الممالك الأخرى... وأعيد رسم خريطة العالم.

لم يصل إلى أوران صوت الأوراق التي حركتها الريح.

كان نائل جالسًا أمامه، بثيابه الملطخة بالتراب وجرح صغير عند حاجبه، لكن وراء كتفه بدأ وجه الصباح يبهت. نهض في ذاكرة الشيخ ظل رجل لم تتضح ملامحه، واقفًا بالطريقة نفسها التي وقف بها نائل قرب العمود قبل لحظات.

يد تستقر فوق خريطة.

رأس يرتفع نحو من يصغي.

وصوت قديم، بعيد، نطق الكلمات نفسها:

أريد أن أبني مملكتي الخاصة.

وأوحّد الممالك الأخرى...

وأعيد رسم خريطة العالم.

اشتدت أصابع أوران حول الخشب حتى ابيضّت مفاصلها.

لم يكن الظل يقترب، ولم يكن له وجه يستطيع الضوء بلوغه. بقي خلف نائل لحظة واحدة، ثم تحرك الفتى ليلتقط عصاه، فعاد الصباح إلى موضعه، وعاد صوت الريح بين الأشجار.

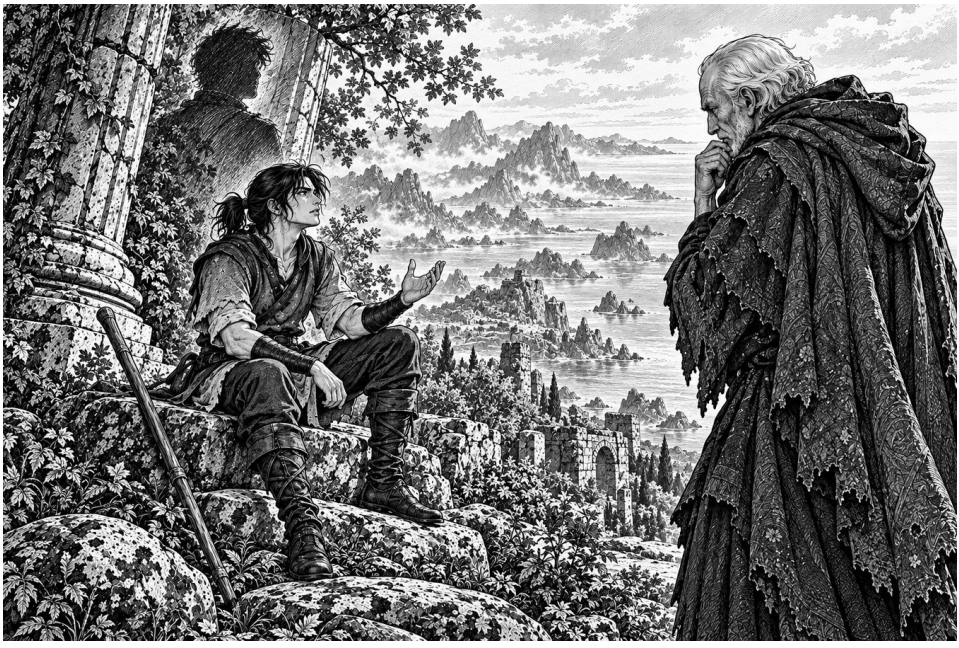

كان نائل ما يزال يتحدث.

— لا أعرف كيف سأفعل ذلك. لكنني لا أريد أن أقضي عمري أطلب الإذن لأعبر من أرض إلى أخرى. أريد مكانًا يأتيه الناس لأنهم يريدون العيش فيه.

نظر إلى الممر الذي انفتح خلفه.

— وأظن أن العالم أوسع مما تركوه لنا على الورق.

خفض أوران عينيه.

مسح بإبهامه موضعًا قديمًا فوق مقبض العصا، ثم نهض. التقط حقيبته الصغيرة، ونفض عنها الغبار، وأدار وجهه نحو الطريق المنحدر إلى البحيرة.

قال:

— اجمع أشياءك.

نهض نائل بدوره.

— هل انتهينا اليوم؟

توقف الشيخ عند أول الدرجات.

— انتهى تدريبك على الجزيرة.

بقي نائل واقفًا مكانه، وعصاه في يده.

أما أوران فتابع النزول، ولم يلتفت حتى لا يرى الفتى ما بقي في وجهه.

◆

في قرية صغيرة خلف تلال قاسران، كان سايرن يحاول تثبيت عارضة سقف قبل أن يصل المطر.

وقف فوق سلم قصير، وقد رفع الخشب إلى كتفه اليسرى، بينما أمسك القروي بطرفه الآخر من داخل البيت. تحت قدميه، تراكمت قطع القش والطين اليابس التي نُزعت من السقف القديم. كان الماء قد تسرب منه طوال الليلة الماضية، واضطرت ابنة الرجل إلى نقل الأواني بين الغرفة والمخزن حتى لم يبق إناء فارغ في البيت.

دفع سايرن العارضة إلى موضعها.

شدّ الألم جنبه فجأة.

توقف، وأبقى وجهه نحو الجدار حتى لا يراه القروي. انتظر أن يخف الوخز تحت الندبة، ثم غيّر وقفته واستأنف الرفع.

لاحظ الرجل ذلك، لكنه لم يقل شيئًا. قرب السلم مقدار خطوة، ورفع طرف العارضة أكثر، فاستقرت فوق الحجر.

احتاج تثبيتها إلى بقية الصباح.

قبل أشهر، كان سايرن يصدر أمرًا فيتحرك آلاف الرجال. الآن كان يعيد دق مسمار أعوج لأن الحديد في القرية قليل، ولأن القروي يلتقط كل قطعة تسقط في التراب ويحتفظ بها في صندوق صغير قرب الباب.

تعلم أين يضع الأدوات بعد استعمالها، وأي ألواح الحظيرة تصلح للترميم، ومتى ينبغي إغلاق مجرى الماء حتى لا يغمر الحقل السفلي. في البداية فعل ذلك كي لا يبقى عالة على البيت الذي أنقذه. ثم صار يخرج إلى العمل قبل أن يُطلب منه.

عادت القوة إلى ساقيه ببطء. استطاع السير حتى البئر، ثم إلى الحقول، ثم صعود التلة المطلة على الطريق دون أن يضطر إلى الجلوس في منتصفها. أما كتفه وجنبه فكانا يذكرانه، عند حركة مفاجئة أو ليلة باردة، بأن ما انغلق من الجروح لم يُمحَ.

لم يلمس سيفًا.

كان يختبر يده أحيانًا بفأس الحطب خلف البيت، بعيدًا عن العيون. يرفعها وينزلها، ويراقب مقدار ما يحتمله جسده قبل أن يبدأ الارتجاف. وفي بعض الصباحات بقيت الفأس مغروسة في الجذع، وجلس هو قربها زمنًا طويلًا، غاضبًا من تعب لا يستطيع أن يأمره بالزوال.

تغير وجهه خلال الأشهر الماضية. غطت لحيته جزءًا من الندبة القريبة من فكه، وطال شعره، وأخذت الشمس من شحوبه. ارتدى ثيابًا خشنة تركها له القروي، وسار محنيًا قليلًا حين يمر غرباء بالقرية. عرفه الجيران قريبًا بعيدًا جاء بعدما خسر بيته في القتال، ولم يسألوه كثيرًا؛ كان في كل بيت ما يكفي من الخسارة ليصدق الناس خسارة رجل آخر.

بقي اسمه الحقيقي داخل البيت.

لم تنطقه ابنة القروي حتى حين كانوا وحدهم. كانت تترك له الطعام، وتفحص الجرح إذا عاد الألم، ثم تواصل أعمالها. وحين حاول شكرها ذات مساء، أعطته سلة فارغة وأشارت إلى الحطب، كأنها وجدت له طريقة أنفع للكلام.

بعد إصلاح السقف، خرج سايرن إلى البئر.

ساعد امرأتين في رفع الدلاء، ثم حمل كيس دقيق إلى بيت رجل فقد ساقه في الحرب. عند الباب، رأى صبيًا يصلح رباط حذاء عسكري أكبر من قدمه، بينما كانت أمه تقسم الخبز إلى قطع صغيرة وتعيد نصفها إلى القماش.

لم يكن يحتاج إلى سؤالها عن السبب.

رأى العربات التي تمر بأكياس الحبوب نحو الطريق المحروس، ورأى الرجال يعودون من السوق يحملون أقل مما حملوه إليه. كانت أسماء الحصون التي تتردد بين القرويين مألوفة لديه، لكنهم يذكرونها ليشرحوا لماذا تأخر الدقيق، أو أين اختفى أخ، أو أي طريق لم يعد آمنًا للذهاب إلى الطاحونة.

حين كان ينظر إلى الخريطة في قاعة الحرب، كانت المسافة بين حصنين خطًا يحتاج إلى حراسة.

هنا كان يعرف المرأة التي تمشي ذلك الخط لتبيع البيض.

قرب آخر البيوت، سمع وقع خيل.

لم يرفع رأسه فورًا. وضع كيس الدقيق داخل الباب، ثم خرج ببطء ومسح كفيه في ثوبه. مرت دورية من رهفان على الطريق المرتفع؛ ستة فرسان، يحمل أحدهم راية صغيرة، ويتدلى من سرج آخر قفص فيه دجاج.

توقف طفل عن اللعب حتى عبروا.

بقي سايرن قرب الباب، يراقب ظل الخيول على التراب. كان يستطيع بلوغ أقرب فارس قبل أن يسحب الرجل سيفه. عرف المسافة، وموضع القدم التي سيبدأ بها، والطريقة التي ينتزع بها الرمح من يد الحارس الأخير.

ثم رأى المرأة داخل البيت تشد ابنها إلى جوارها.

ابتعد عن الطريق.

في المساء عاد إلى القروي حاملًا حزمة حطب. وجد الرجل خلف البيت، يزيل الأعشاب الصغيرة التي نبتت حول قبر ابنه. وضع سايرن الحطب قرب الجدار، وجثا إلى جانبه، وأخذ يجمع ما اقتلعه الرجل دون أن يتحدثا.

كانت تلك أصعب الساعات عليه.

لم يطلب القروي أن يعرف كيف مات ابنه، ولا لماذا خرج الرجال إلى الممر، ولا كيف عاد قائدهم إلى الحياة بينما بقي الآخرون تحت الأرض. لكن سايرن كان يسمع الأسئلة كلما جلس قربه.

عندما دخلا البيت، ترك الرجل له قطعة خبز قرب الموقد، ثم نام مبكرًا.

بقي سايرن مستيقظًا.

أخرج الخريطة من بين لوحين في المخزن، وفردها فوق المائدة. حصل عليها من تاجر جوال مقابل إصلاح عجلة عربته؛ ورقة قديمة، بهتت أطرافها، وحملت تصحيحات بأحبار مختلفة. لم تصلح لقيادة جيش، لكنها أظهرت الممالك والبحار والطرق الكبرى.

ثبت زواياها بأربعة أحجار.

كانت دمهار أول موضع بحثت عنه عيناه.

تخيل ميرافا داخل قاعة المجلس، محاطة برجال ينتظرون منها جوابًا عن كل طريق مقطوع وكل حصن صامت. فكر في العودة إليها مرات كثيرة. كان يستطيع أن يبلغ العاصمة متخفيًا إن وجد الدليل المناسب، وأن يقف أمام أخته ويترك للخبر أن ينتشر.

لكنه لم يعرف ماذا سيحمل إليها غير نجاته.

كان الجيش يحتاج إلى رجال وسلاح ومؤن، وكانت الحصون التي سقطت تحتاج إلى قوة تستعيدها وتحميها بعد الاستعادة. عودته ستعيد اسمه إلى الرايات، لكنها ستعيد عيون أعدائه إليه أيضًا، قبل أن يملك ما يغير به ميزان الحرب.

ظل إصبعه قرب دمهار.

لم يحب أن يترك أخته تواجه ذلك وحدها. ولم يجد في تأجيل العودة ما يريحه، لكنه أخذ يفهم ما يستطيع فعله ما دام الآخرون قد دفنوه في أخبارهم.

رفع يده وانتقل ببصره إلى بقية الخريطة.

لم يكن يبحث عن ملك يحزن لما أصاب قاسران. احتاج إلى حاكم يرى في بقائها ضرورة تخص مملكته هو؛ من يفهم أن رهفان، إن استولت على المناجم والحصون والطرق كلها، لن تبقى القوة نفسها التي عرفتها الممالك قبل الغزو.

فكر في الأبواب التي يمكن أن تُفتح له، وفي الثمن الذي قد يُطلب منه قبل أن يعبرها. تذكر رجالًا قابلهم في مجالس قديمة، ورسائل قرأها إلى جانب أخته، ووعودًا بدت قوية حين قيلت ثم لم تصمد أمام أول حاجة.

قرب المصباح أكثر.

مال الضوء فوق وسط الورقة، وبقي سايرن ينظر.

◆

على الجزيرة، كان نائل قد وصل إلى السفينة قبل أوران.

حمل حقيبته وعصاه، وربط إلى الحزام كيسًا صغيرًا احتفظ فيه بأشياء جمعها خلال إقامته: حجر أسود شقه خط أبيض، وقطعة خشب منحوتة، وريشة لطائر لم يعرف اسمه. ترك نصفها على الشاطئ بعدما اكتشف أن الحقيبة لا تتسع، ثم عاد فأخذ الحجر.

كان أوران يفك الحبل عن جذع الشجرة.

نظر نائل إلى البحيرة، ثم إلى الممر الضيق الذي ستعبره السفينة نحو البحر. أحس للمرة الأولى أن الجزيرة صارت مكانًا سيتركه خلفه، لا مكانًا لا يستطيع الخروج منه.

وضع حقيبته قرب الصاري، والتفت إلى الشيخ.

— إلى أين سنذهب؟

رفع أوران رأسه.

وفي البيت الصغير خلف تلال قاسران، تحرك إصبع سايرن أخيرًا فوق الخريطة، واستقر عند اسم تيرافا.

فتح الرجلان فميهما في اللحظة نفسها.

قال أوران لنائل، وهمس سايرن إلى الخريطة:

— مملكة إيفارا.



أكانت مصادفة، أم أول خطوة في قدرهما المشترك؟

لم يعد أحد يترك المقعد الواقع إلى يمين ميرافا خاليًا.

في الأسابيع الأولى، ظل الرجال يقفون حول مائدة المجلس دون أن يقتربوا منه. ثم وضع أحد الكتبة فوقه رزمة تقارير، وتبعتها خرائط وأكياس صغيرة حملت أختام الحصون. وحين دخلت الملكة ذلك الصباح، وجدت خوذة جندي تستقر في الموضع الذي اعتاد أخوها أن يمد فيه ذراعه.

توقفت عند الباب لحظة، ثم تابعت سيرها.

كان آخر رجال البحث قد عاد قبل تسعة أيام. حمل أسماء قرى فتشوها، وممرات انهارت، وقبورًا فُتحت للتعرف إلى أصحابها. لم يحمل جثمان سايرن. لكن الشهادات التي جمعها اتفقت على الموضع الذي سقط فيه، وعلى حاله حين اختفى بين الصخور.

استمعت إليه ميرافا حتى انتهى.

ثم أمرت بدفع أجور الرجال وإعادتهم إلى وحداتهم.

منذ ذلك اليوم، لم تسأل متى ستخرج فرقة البحث التالية.

جلست إلى رأس المائدة، وسحبت أول تقرير.

بلغ عدد المجندين الجدد ما يكفي لتشكيل وحدتين، لكن نصفهم لم يمسك رمحًا من قبل. وصل الحديد من ورشتين في الجنوب، وتأخرت العربات التي تحمل الفحم. أما الخيل، فكان بعضها يُسحب من عربات المزارعين ليُدرّب على حمل الفرسان.

قال أحد القادة إن عليهم استعادة الحصن الأقرب إلى دمهار قبل أن يقوى حراسه.

رد آخر بأن إرسال الرجال إليه سيترك الطريق الشرقي مكشوفًا.

فتح الثالث خريطة قديمة، ووضع إصبعه على ممر جبلي.

— نستطيع الالتفاف من هنا.

مدّ رجل في آخر المائدة يده، وأدار الخريطة نحوه.

— انهار الجسر. وصل الخبر أمس.

سكت القائد، ثم أخذ يبحث عن طريق آخر.

راقبتهم ميرافا. كان بينهم رجال خاضوا المعارك، ورجال صمدوا حين انسحب غيرهم، لكن كل واحد رأى قطعة من المملكة وأراد أن يبدأ بها. وحين اختلفوا، التفتوا إليها.

سألت:

— كم يومًا تكفي مؤن القوة التي تريدون إرسالها؟

تبادل رجلان النظر.

أجاب مسؤول الإمداد:

— تسعة، إن خرجت وحدها. أقل إن أخذت الخيل.

— وكم يومًا يحتاج الوصول؟

— أربعة.

وضعت التقرير فوق المائدة.

لم ترفع صوتها.

— لن أرسل رجالًا ليبلغوا حصنًا ثم يبحثوا عند أبوابه عمّا يأكلون.

أمرت بإصلاح الجسر، وجمع المؤن، وإبقاء الوحدتين الجديدتين قرب العاصمة حتى يكتمل تدريبهما. دوّن الكاتب أوامرها، ثم سأل لمن تُرفع تقارير القادة الثلاثة.

نظرت إلى المقعد الذي غطته الأوراق.

— إليّ، حتى أقرر غير ذلك.

خرجوا تباعًا، وبقي مسؤول الإمداد ليشرح نقص الدواب. استمعت إليه، ثم وقّعت أمرًا آخر. وحين خلا المجلس أخيرًا، حملت الخوذة عن مقعد أخيها ووضعتها على المائدة.

كان الجلد داخلها مبتلًا من العرق.

أعادت المقعد إلى مكانه.



◆

عرف القروي أن سايرن سيرحل حين وجده يصلح حزام الحقيبة.

لم يسأله إلى أين. جلس قبالته، ومد إليه إبرة أطول من التي كان يستعملها، ثم أمسك طرف الجلد حتى تمرّ الخياطة مستقيمة.

بقي الاثنان قرب الباب حتى انتهى الضوء.

في الصباح، وضعت ابنة الرجل خبزًا يابسًا وقطع جبن داخل قماش نظيف. أضافت مرهمًا في وعاء صغير، وربطته بحيث لا ينكسر بين بقية الأشياء. وحين جرّب سايرن حمل الحقيبة على كتفه، لاحظت انقباض وجهه، فأخذتها منه وعدلت موضع الحزام.

قالت:

— لا تشدّه على الجرح.

أومأ.

كان قد أعد كلمات كثيرة خلال الليل. أراد أن يشرح لماذا يجب أن يذهب، وأن يقول إنه لم ينس ما فعلوه، وإنه سيجد طريقة لرد شيء منه. لكنه حين رأى الرجل يضع حذاءه قرب الباب، وقد أصلح نعله بخيط جديد، لم يجد في الكلام ما يكفي.

انحنى ليلبسه.

مرّ بالبئر قبل أن يغادر. رفع دلوًا لامرأة عرفته من مشيته، وحمل معها الماء إلى أول الطريق. سألت إن كان ذاهبًا إلى السوق، فقال إنه سيبتعد أيامًا.

طلبت منه أن يسأل عن ثمن الملح إن مرّ ببلدة كبيرة.

وعدها بذلك.

خلف البيت، كان التراب حول القبر رطبًا. اقتلع سايرن عشبة صغيرة نبتت قرب الحجر، وسوّى بأصابعه موضعها. بقي جاثيًا أكثر مما قصد. لم يكن يعرف اسم الشاب إلا منذ أسابيع، مع أنه أصدر يومًا أمرًا حمله إلى الممر الذي لم يعد منه.

عندما نهض، وجد القروي ينتظره عند طرف الحقل.

سارا معًا حتى الشجرة التي ينقسم عندها الطريق. أخرج الرجل من جيبه قطعة قماش، وفكها عن بضع نقود.

دفع سايرن يده برفق.

— تركتم لي ما يكفي.

نظر القروي إلى الحقيبة، ثم أعاد النقود إلى جيبه.

مدّ يده فقبض سايرن عليها، لكن الرجل جذبه إليه وعانقه بحذر، متجنبًا جنبه المصاب.

قال قرب أذنه:

— لا تجعلنا نبحث عنك مرة أخرى.



ظل سايرن ممسكًا بذراعه لحظة بعد أن ابتعدا.

ثم سار.

عند أول المرتفع، التفت فرأى الرجل ما يزال تحت الشجرة. رفع يده إليه، وانتظر حتى رفع القروي يده بدوره، ثم تجاوز التلة.

◆

في هاروك، انتظر فاريك حتى انتهى رسول زافرين من قراءة الرسالة، ثم طلب منه أن يتركها.

وضع الرسول الرقعة أمامه، لكنه لم يتراجع عن المائدة.

— يريد مولاي موعدًا واضحًا لمرور رجاله إلى المناجم.

لم يلمس فاريك الرسالة.

— الطرق لم تستقر بعد.

— مؤن زافرين وصلت حين كانت الطرق أقل استقرارًا.

وقفت نيرفا قرب النافذة، وقد وضعت يدًا فوق الأخرى خلف ظهرها. تابعت وجه الملك، لا وجه الرسول.

قال فاريك:

— سيصل جواب مختوم قبل رحيلك.

انحنى الرجل. جمع كاتبه أوراقه، وانسحب الاثنان مع الحارس. بقي صوت خطواتهم في الرواق حتى أُغلق الباب الخارجي.

عندها التفتت نيرفا.

— إيردان طلب زيادة رجاله مرة أخرى.

سحب فاريك رسالة زافرين نحوه وفض ختمها الداخلي.

— أعرف.

— وطلب أن يجمع جباية القرى التابعة للحصن باسمه.

رفع الملك عينيه.

— قال إنه يريد دفع أجور الحامية.

— يستطيع دفعها من المال الذي نرسله. يريد أن يصبح مصدر رزقهم.

ترك فاريك الرقعة فوق المائدة.

— يعرف الأرض. يعرف الرجال الذين يمكن استمالتهم.

— ولهذا منحته حصنًا. إن منحته القرى والمال وحق تعيين القادة، فلن تحتاج قاسران إلى استعادته منك. سيأخذه هو.

مشى الملك إلى النافذة. من الفناء ارتفع صوت تدريب الخيل، متقطعًا بوقع الحديد فوق الحجر.

قال:

— تكرهينه.

لم تنكر.

— لكن ما أقوله لا يحتاج إلى كراهية. طلب أرض قاسران كلها قبل أن يجف دم رجالها. والآن يقيس كل أمر يصدر منك بما يقرّبه منها.

ظل فاريك ينظر إلى الفناء.

— يبقى تحصيل الجباية بيد رجالي. ولا يضم جنديًا جديدًا دون أمر مختوم.

تقدمت نيرفا خطوة.

— وأبقِ قائد الحامية تابعًا لك مباشرة.

التفت إليها، ثم أومأ.

كانت قد بلغت الباب حين سألها عن جولتها التالية.

— المعابر الجنوبية. ازدحمت الطرق بالهاربين والتجار، والتقارير لا تتفق على من يعبرها.

— خذي من تحتاجين.

خرجت، وبقيت رسالة زافرين مفتوحة فوق المائدة.



◆

وصل الأمر إلى إيردان مع عربة شعير.

قرأه واقفًا في فناء الحصن، بينما كان الرجال يدحرجون الأكياس إلى المخزن. بلغ السطر الأخير، ثم عاد إلى الأول، كأنه يتوقع أن تتغير الكلمات إذا قرأها مرة أخرى.

لم يتغير شيء.

تقدم قائد الحامية ليتسلم نسخته.

أبقاه إيردان منتظرًا.

كان الحصن أصغر من بعض المخازن التي دخلها في دمهار. في برجه الغربي شق تتسلل منه الريح، وفي الإسطبل سقف يحتاج إلى إصلاح. وحين صعد أسواره أول مرة، رأى القرى التي ظن أنها ستصبح أول ما يملكه، ثم اكتشف أن موظفي فاريك سبقوه إليها.

قال للقائد:

— أريد عشرة رجال عند الفجر. سأمر بالقرى الشمالية.

فتح الرجل الرقعة التي وصلته، وقرأها قبل أن يجيب:

— أرافقك بأربعة.

رفع إيردان رأسه ببطء.

— قلت عشرة.

— والأمر يحدد عدد من يخرج من الحامية. إن وصل إذن آخر، أنفذه.

لم يكن في صوت الرجل تحدٍّ. كان ذلك أشد إهانة.

نظر بعض العمال نحوهما، ثم انشغلوا بالأكياس حين التفت إيردان إليهم. طوى الرسالة بعناية، ووضعها داخل ثوبه.

— أربعة إذن.

صعد إلى غرفته، وأغلق الباب.

على المائدة امتدت خريطة قاسران. كان قد وضع علامات صغيرة عند أراضٍ عرف أصحابها، وعند حصون تخيل رجاله فوق أسوارها.

أخذ قطعة فحم، وحدد بها القرى الشمالية من جديد.

هذه المرة كتب إلى جانب كل قرية اسم الرجل الذي ما يزال يسمع له فيها.

◆

لم يكن المرفأ الذي نزلا فيه يشبه الموانئ التي تخيلها نائل.

رصيف قصير، ومستودعان، وصف من القوارب الصغيرة تهتز بين أعمدة سوداء من الماء. خلفها صعدت بيوت متقاربة على سفح منخفض، وانتهى الطريق عند بوابة لا تبدو قادرة على منع أكثر من عربة.

كانت تلك إحدى أبعد نواحي إيفارا.

ظل نائل على الرصيف حتى فرغ أوران من ربط السفينة. راقب رجلًا ينظف السمك فوق لوح، وامرأة تساوم على حبل، وصبيين يتشاجران قرب برميل فارغ. احتاج إلى لحظات ليفهم أن كل هذه الأصوات تحدث معًا، دون أن تكون جزءًا من اختبار أعده الشيخ.

قال أوران وهو يناوله الحقيبة:

— نشتري المؤن أولًا.

تبعه نائل حتى السوق.

عند الممر الواقع خلف المستودع، سمع ارتطام جسد بالخشب.

كان ثلاثة رجال يحيطون بشاب في نحو عمره. أمسك أحدهم بياقة ثوبه، بينما قلب آخر محتويات حقيبته فوق الأرض. تدحرجت قطعة خبز تحت عربة، وسقط معها قماش ملفوف وخيط وإبرة.

قال الشاب إن المال ليس معه.

ضربه الرجل الذي يمسكه في بطنه.

توقف نائل.

كان أوران قد تقدم بضع خطوات حين شعر بغيابه.

في الممر، انحنى الرجل الثاني ليلتقط الحقيبة الفارغة، فاستقرت عصا فوق يده.

رفع رأسه.

قال نائل:

— سمعتَه.

نظر الرجل إلى العصا، ثم إلى صاحبيْه.

ترك الأول الشاب ودفعه إلى الجدار. أخرج سكينًا قصيرة وتقدم.

رأى نائل كتفه يتحرك قبل النصل.

ابتعد نصف خطوة، وضرب معصمه. سقطت السكين، لكن الرجل الثالث جاءه من الجانب، فأمسك العصا وجذبه. اصطدم نائل بصندوق وراءه، وانفلت الهواء من صدره.

كان أوران عند مدخل الممر.

لم يتحرك.

ثبت نائل قدمه على حافة الصندوق، ودفع نفسه إلى الأمام. ترك العصا فجأة، فاختل توازن الرجل الذي يشدها، ثم ضربه بكتفه وأوقعه فوق صاحبه. انحنى ليلتقط الخشب، فمرت السكين قرب وجهه وشقت طرف كمه.

هذه المرة لم ينتظر.

ضرب ساق المهاجم، ثم يده، وأبعد النصل بقدمه حين سقط.



سمع صفيرًا من نهاية السوق.

رفع رأسه فرأى رجلًا رابعًا يركض مبتعدًا بين الناس.

أمسك الشاب حقيبته، وجمع القماش من التراب. كان يتنفس بصعوبة، لكنه مد يده إلى الخبز تحت العربة قبل أن ينهض.

قال لنائل:

— لا تبقَ هنا.

نظر نائل إلى الرجال على الأرض.

— ومن هؤلاء؟

— سيأتي غيرهم.

أراد أن يسأله أكثر، لكن أوران أمسك ذراعه.

تحركوا إلى آخر الممر. عند الطريق الخلفي، توقف الشاب، ومسح الدم عن شفته بظهر يده.

— شكرًا.

ثم انسلّ بين بيتين، واختفى.

بقي نائل ينظر إلى الموضع الذي غاب فيه حتى جذبه أوران نحو التلة.

لم يشترِ الشيخ المؤن من السوق. دفع ثمن خبز وماء عند آخر بيت، ثم سلك به طريقًا ضيقًا يبتعد عن الطريق الرئيسي.

بعد مسافة، قال نائل:

— كنت ستتركهم يضربونه؟

واصل أوران السير.

— كنت أراقب الرجل عند نهاية الممر.

تذكر نائل الصفير.

نظر خلفه.

من أعلى التلة ظهرت أربعة خيول تخرج من المرفأ، وتتوقف عند مفترق الطرق.

شدّ أوران الحقيبة إلى كتفه.

— تحرّك.

◆

لم يكن سايرن قد رأى البحر منذ غادر القرية، لكنه فكر فيه كل يومين تقريبًا.

كان يستطيع اختصار أسابيع من الطريق لو بلغ سفينة مناسبة. غير أن الوصول إليها يمر برصيف تسجل عنده الأسماء، وحراس يراقبون الصاعدين والنازلين، وبوابات لا يستطيع الرجل أن يستدير عندها دون أن يلفت النظر.

لهذا بقي في البر.

عبر أول حاجز مع عربة حطب. جلس في مؤخرتها، وترك الغبار يغطي وجهه وثوبه. سأل الحارس صاحب العربة عن حمولته، وضرب إحدى الحزم برمحه، ثم نظر إلى سايرن.

رفع سايرن يده إلى جبينه ومسح العرق بكمه.

قال صاحب العربة إنه استأجره للتحميل.

مرّا.

بعد نصف يوم، دفع الرجل أجره رغيفًا وبصلتين. أخذهما سايرن ومضى، وقد تعلم أن الظهر الذي يحمل شيئًا يجذب أسئلة أقل من رجل يسير وحده بلا عمل ظاهر.

في البلدة التالية حمل أكياسًا من دكان إلى مخزن. نام تحت سقف مع أربعة عمال، وأخفى حذاءه تحت رأسه بعدما رأى أحدهم يربط نقوده إلى ساقه قبل النوم.

كان الجرح يؤلمه آخر الليل.

ينتظر حتى يهدأ تنفس الرجال، ثم يجلس في الظلام ويفك القماش عن جنبه. يضع المرهم بأطراف أصابعه، ويعيد الرباط، ويحسب ما بقي في الوعاء.

لم يستعمل قوته.

في بعض المواضع شعر بالحديد تحت الأرض، قريبًا بما يكفي ليستجيب له. كان الإحساس يوقظ في جسده رغبة قديمة في الاستقامة ومد اليد. لكنه تركها تمر، كما يترك الرجل اسمًا يعرفه حين يسمعه في مجلس لا ينبغي أن يعرفه فيه أحد.

رأى داخل رهفان قرى تشبه قريته الصغيرة خلف التلال. نساء ينتظرن أبناء، وحقولًا نقص رجالها، وعربات تجمع الحبوب لحاميات بعيدة. وفي حانة نام عند بابها، سمع امرأة تسأل جنديًا عائدًا عن أخيها.

لم يعرف الجندي الاسم.

أعادت وصفه، فهز رأسه مرة أخرى.

ظل سايرن ينظر إلى حذائه حتى توقفت عن السؤال.

◆

وصلت أخبار قاسران إلى الممالك في رسائل مختلفة.

حملت بعضها أرقامًا للقتلى، وحملت أخرى أسماء الحصون، بينما اكتفت رسالة وصلت إلى سولان بجملة عن اختفاء سايرن وانهيار القوة التي كانت تحمي طرق المناجم.

قرأ إيلان الرسالة مرتين.

في اليوم التالي، أُعيد فتح مخزن سلاح بقي مغلقًا سنوات. خرجت منه رماح احتاجت إلى مقابض جديدة، ودروع أكل الصدأ أطرافها. استُدعي رجال الاحتياط، ووصل إلى القرى أمر بإحصاء الخيل الصالحة للخدمة.

لم تعلن ألدوريا حربًا.

لكن الحدّادين عملوا بعد غروب الشمس.

وفي إيلورا، جمعت إيرانا تقارير المعابر إلى جانب الرسالة القادمة من قاسران. لم يكن ما يقلقها عدد الجنود الذين انتصروا، بل سهولة انتقال الأخبار المتناقضة مع كل قافلة: حصن سقط، وقائد اختفى، وطريق صار في يد رجال لا يحملون راية.

أمرت بتعزيز الحاميات عند الممرات، ثم استدعت كاتبها.

خرج رسولان في صباح واحد، كل منهما يحمل عرضًا لفتح مباحثات حول أمن الطرق وتبادل الأخبار. لم يحمل أي منهما وعدًا بالقتال إلى جانب أحد.

أما في سيلمارا، فاستمعت تاليا إلى تجار البحر قبل قادة أسطولها.

ارتفعت كلفة الحراسة، وبدأ أصحاب السفن يرفضون بعض الموانئ. وكانت الحبوب التي تتأخر أسبوعًا تصل أغلى مما غادرت، حتى إلى المدن التي لم ترَ جنديًا من رهفان.

أمرت بخروج دوريات إضافية، وأبقت بعض السفن التي كان مقررًا إرسالها في رحلات بعيدة داخل المياه القريبة. ثم طلبت معرفة الممالك التي تشتري أخشاب السفن بكميات غير معتادة.

وفي تيرافا، مدّ أردان خريطة أمام دارِن.

توقف إصبعه عند أراضي قاسران التي انتقلت إلى سيطرة رهفان، ثم عند طرق المناجم.

— كم يحتاج نقل قوة من هنا إلى حدودنا؟

انحنى دارِن فوق الخريطة.

لم يجب قبل أن يحسب الطرق التي صارت مفتوحة، والمخازن التي يمكن أن تموّن الرجال خلالها.

حين انتهى، أمر أردان بإعادة فحص تحصينات الحدود، واستدعاء قادة الحاميات بالتتابع، بحيث لا تغيب القيادة عن موضعين في الوقت نفسه.

كان سقوط قاسران بعيدًا عن بعض القصور، لكن الرجال الذين يديرونها أخذوا يقيسون المسافة إليه من جديد.

◆

بلغ سايرن المعبر بعد ظهر يوم غائم.

امتد صف العربات قبل البوابة حتى انحنى وراء التلة. جلس بعض المسافرين فوق حمولتهم، ونزل آخرون يمدون سيقانهم. قرب الحاجز الأول، أفرغ جنديان أكياس تاجر فوق قطعة قماش، بينما كان كاتب يقلب أوراقه ويعيد عليه السؤال نفسه.

بقي سايرن في آخر الصف.

حمل حزمة ألواح خفيفة اشتراها بثمن قليل، وربطها إلى ظهره. كان ينوي بيعها بعد العبور، أو تركها إن اضطر. اخفض رأسه، وراح يراقب المسافة بين عربة وأخرى.

ثم سمع صوتها.

لم تكن تصرخ.

أمرت جنديًا أن يفتح الجانب السفلي من إحدى العربات، ثم اقتربت من السائق وسألته عن الطريق الذي سلكه.

رفع سايرن عينيه مقدارًا قليلًا.

كانت نيرفا تقف إلى يمين البوابة.

عرف وقفتها قبل أن يرى وجهها كاملًا. حملت سلاحها قريبًا من يدها، وبقي جسدها ساكنًا بينما تتحرك عيناها بين الرجل والعربة والحراس. قال السائق شيئًا جعلها تلتفت إلى الكاتب.

تحرك سايرن خلف حمولة قش.

شدّ الحزام على كتفه، فاشتعل الألم في جنبه. لم يرخِه.

تقدم الصف خطوة.

بقي مكانه.

من الفتحة بين عربتين، رأى نيرفا تعبر إلى الجانب الآخر من الطريق. توقف جندي كان يفتش حقيبة، واستقام حين مرت به. لم تنظر إلى سايرن؛ كانت منشغلة بعجلة تركت في الوحل أثرًا أعمق من العجلات الأخرى.

ركعت قربها، وأشارت إلى أسفل العربة.

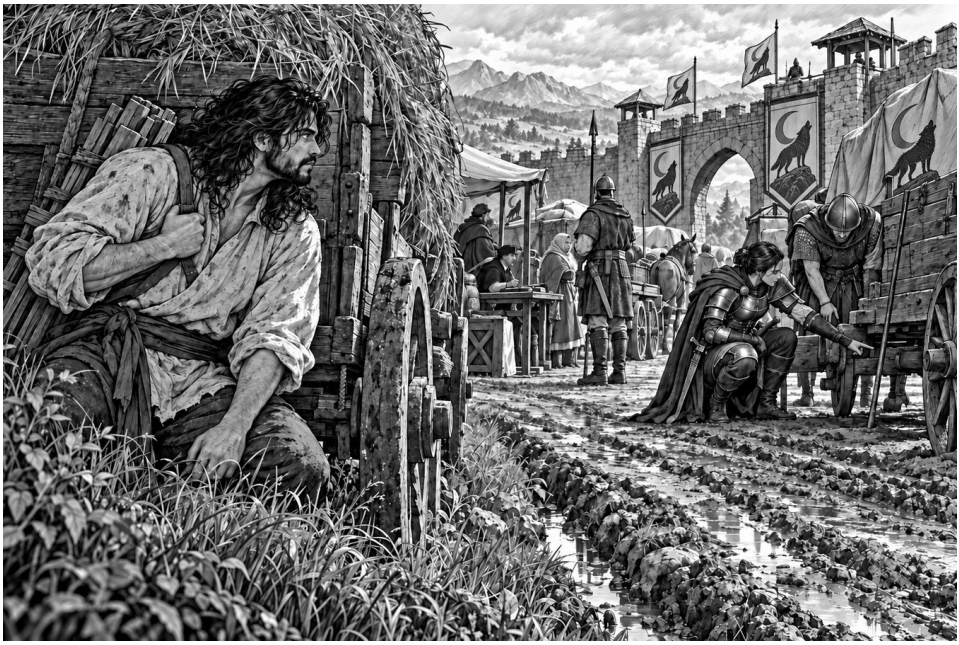

تراجع سايرن ببطء.

مرّ به رجل يحمل قفصًا، فتوقف كأنه يفسح له الطريق. ثم استدار نحو الساقية الممتدة بمحاذاة الصف، ونزل إليها بحذر. لم يسرع حتى غابت البوابة خلف القصب.

ترك الألواح تحت شجرة بعيدة.

جلس قربها، ورفع ثوبه عن الرباط. ظهرت عليه بقعة صغيرة داكنة عند طرف الندبة. ضغط عليها بالقماش، وانتظر أن يهدأ نبضه.

كان المعبر أقصر طريق إلى إيفارا.

أخرج الخريطة، وبحث عن الخطوط التي تتجه نحو المرتفعات. لم تكن الممرات الصغيرة مرسومة، لكن عاملًا في البلدة السابقة أخبره عن طريق للرعاة يلتف حول موضع الحامية.

طوى الورقة.

عندما نهض، كان المطر قد بدأ.

خلفه، بقيت العربات تتقدم نحو البوابة، واحدة بعد أخرى. وأمامه ارتفع الجبل، وقد اختفت قمته داخل الغيم.

◆

لم يسلك أوران الطريق الذي صعدت إليه الخيول.

انتظر حتى ابتعدا عن حافة التلة، ثم نزل بين شجيرات قصيرة انتهت عند مجرى ماء جاف. تبعه نائل، وهو يحاول ألا يلتفت كل بضع خطوات. كان قد اعتاد في الجزيرة أن يعرف أين يقف خصمه، أو أن يسمع حركته قبل أن يراه. هنا امتدت خلفه طرق كثيرة، ووجوه لم يحفظها، ورجل أطلق صفيرًا ثم اختفى.

وقف أوران تحت شجرة مائلة، وأشار إلى كمّه.

نظر نائل إلى الشق الذي تركته السكين. ظهرت تحته خدشة طويلة، لم يشعر بحرقتها إلا حين لمسها.

أخرج الشيخ قطعة قماش.

— مدّ ذراعك.

فعل، وبقي يراقب الطريق من بين الأغصان.

قال:

— كانوا ثلاثة.

شدّ أوران الرباط.

— رأيت ثلاثة.

نظر إليه نائل، ثم سكت.

في الأسفل، بلغ أحد الفرسان الموضع الذي اشتريا عنده الخبز. خرج صاحب البيت، ومسح يديه في ثوبه، ثم أشار نحو الطريق الرئيسي. سأله الفارس شيئًا آخر. طال وقوفهما، لكن الرجل لم يغيّر اتجاه يده.

انتظر أوران حتى تحركت الخيول.

قال نائل:

— لماذا يكذب من أجلنا؟

أعاد الشيخ القماش إلى حقيبته.

— ربما كرههم قبل أن يعرفنا.

تابعا السير داخل المجرى حتى غابت أصوات المرفأ. عند موضع ضاق بين صخرتين، توقف نائل ليفك حزام حقيبته عن غصن. كان الرجل الذي ضربه في الممر أثقل مما توقع، وكانت السكين قد اقتربت من وجهه أكثر مما أحب أن يتذكر.

سأل:

— كان يمكن أن تساعدني.

استدار أوران.

لم يكن في وجهه غضب.

— لو سقطت، لفعلت.

— انتظرت حتى أكاد أسقط.

— وكنت تراقبني لتعرف متى أتدخل.

خفض نائل عينيه إلى الرباط.

مدّ أوران يده وأزاح الغصن عن الحقيبة، ثم تركه يمر أولًا.

عند المساء بلغا طاحونة متوقفة. سمح لهما صاحبها بالنوم قرب أكياس الشعير بعدما ساعداه في رفع حجر صغير عن مجرى العجلة. أكل نائل خبزه وهو جالس عند الباب، وأبقى النصف الأخير في كفه زمنًا.

كان يتذكر الشاب الذي عاد إلى التقاط خبزه من التراب قبل أن يهرب.

قال:

— أظنه لم يصل إلى بيته بعد.

جلس أوران إلى جانبه.

— ربما يعرف هذه الطرق أفضل منا.

— وربما عادوا إليه.

لم يجب الشيخ.

نظر نائل إلى نصف الرغيف، ثم لفّه وأعاده إلى الحقيبة.

قبل أن ينام، وجد أوران جالسًا عند المصباح، يخيط الشق في كمّه بإبرة دقيقة. كان الشيخ يقرّب الثوب من عينيه، ثم يبعده، ويعبس كلما أفلت الخيط.

جلس نائل قبالته ومد يده.

رفع أوران الثوب بعيدًا.

— تستطيع فتح جدار. هذا لا يعني أنك تعرف إصلاح قميص.

للمرة الأولى منذ المرفأ، ضحك نائل.

◆

لم يجد سايرن طريق الرعاة في اليوم الأول.

وجد آثارًا تشبهه، صعد بعضها نحو الصخور ثم انتهى عند حواف لا يستطيع عبورها. تراجع مرتين، وترك في الثالثة قطعة من ثوبه معلقة بشجيرة كي يعرف أنه مرّ من هناك.

زاد المطر بعد الظهر.

حين بلغ سقفًا صخريًا عند جانب المنحدر، كان الماء قد وصل إلى جلده، وباتت الحقيبة أثقل مما حمل عند خروجه من القرية. جلس تحت الصخر، وضم ذراعيه إلى صدره. في الأسفل اختفت الطريق التي تركها، ولم يبق منها إلا خط باهت بين الأشجار.

سمع أجراسًا قبل أن يرى أحدًا.

ظهرت ثلاث بغال على المسلك المقابل، تقود أولها امرأة قصيرة تلف رأسها بقماش داكن. تبعها رجل مسن وصبي يحمل عصًا أطول من ذراعه.

توقفت المرأة عند أثر الوحل الذي تركته قدماه.

نظرت إلى الصخرة، فرأته.

لم تسأله عن اسمه. أشارت إلى السماء، ثم إلى المسلك الممتد خلفها.

— الماء يجتمع فوقك.

رفع رأسه.

كان شق رفيع يتسرب منه المطر عند أعلى السقف. نهض قبل أن يكمل فحصه، وحين خرج سقطت كتلة من الطين في الموضع الذي جلس فيه.

سار وراءهم.

عرف من حديثهم أنهم من قرية في رهفان، يحملون صوفًا وجلودًا إلى الجهة الأخرى من الجبل. سألوا عن عمله، فقال إنه عمل في البناء. نظر الرجل المسن إلى كفيه، ثم ناوله حبل البغلة الأخيرة.

لم يتحدثوا كثيرًا بعد ذلك.

عند منعطف ضيق، انزلقت إحدى قوائم البغلة الأمامية، ومال الحمل فوق ظهرها. شدّت المرأة اللجام، لكن الحيوان أخذ يدفعها نحو الحافة.

تحرك سايرن قبل أن يفكر.

أمسك بالحبل الجانبي وربطه حول جذع قصير، ثم ضغط بكتفه تحت طرف الحمل. صعد الألم من جنبه إلى صدره، فحبس الهواء وأشار إلى الصبي أن يفك الكيس الأعلى.

كان الرجل المسن يريد جذبهما إلى الخلف.

هز سايرن رأسه بعنف.

لو شدّا، لانقلب الحمل كله.

سقط الكيس على المسلك. خفّ الوزن، واستعادت البغلة موضع قدمها. انسحبت المرأة، ثم جذبوا الحيوان إلى الفسحة التالية.

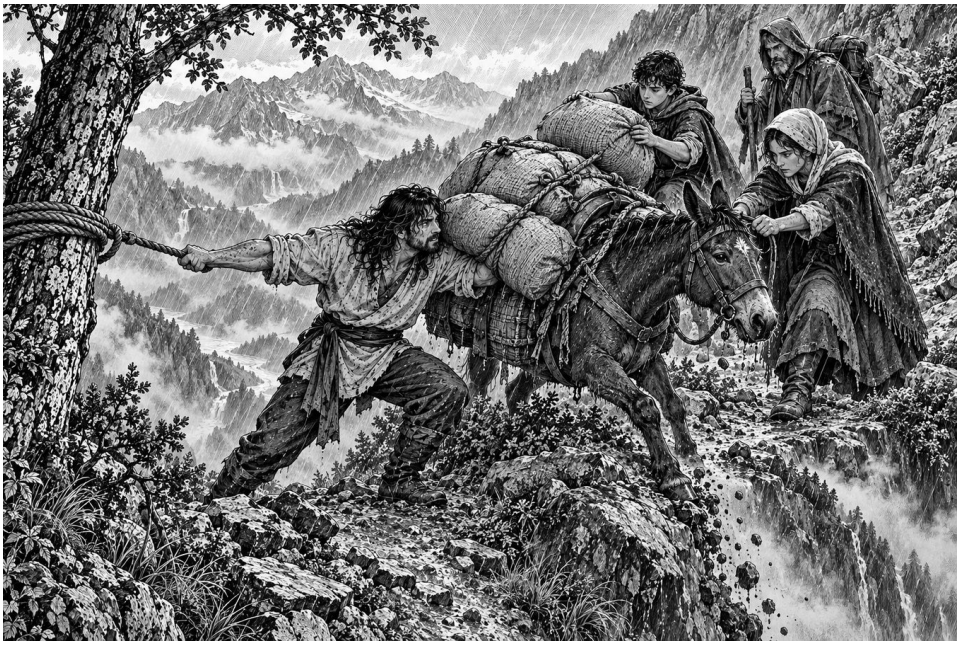

ترك سايرن الحبل أخيرًا.

ظلت أصابعه منقبضة كأنها تمسكه.

لاحظت المرأة أنه لم يستقم. اقتربت، ورأت يده على جنبه، لكنها لم تمد يدها إليه أمام الآخرين. انتظرت حتى وصلوا إلى كوخ حجري يستخدمه الرعاة، ثم وضعت قربه ماءً ساخنًا وقماشًا جافًا.

في الليل، سمع الصبي يسألها إن كانوا سيعودون من المعبر نفسه.

أجابته بأن الحراس صاروا يأخذون وقتًا أطول مما يحتمل الصوف المبلل.

قال الرجل المسن إن ذلك بدأ منذ جاءت القائدة.

أبقى سايرن عينيه على النار.

لم يسألوا لماذا صعد رجل مصاب إلى الجبل بدل أن يعبر من البوابة.

وحين ناموا، بقي مستيقظًا يسمع قطرات الماء تسقط من حافة السقف. كانت المرأة التي أمسكت بيده عند المنحدر من رهفان، وكذلك الصبي الذي نشر ثوبه قرب النار دون أن يطلب منه شيئًا.

مدّ كفه إلى الحرارة.

في الصباح، حمل عنهم الكيس الذي سقط، ورفض أن يضعوه فوق البغلة.

◆

كان إيلدار ينتظر ميرافا في الغرفة الصغيرة خلف قاعة المجلس.

لم يحمل خريطة.

وضعت الملكة التقارير التي في يدها، ونظرت إليه. عرفته طويلًا بما يكفي لتفهم أن ما جاء به لن يكون خبرًا عن جسر أو مؤن.

قال:

— القادة لم يتفقوا.

نزعت خاتم الختم، ووضعته فوق المائدة.

— أعرف. حضرت المجلس.

— ولن يتفقوا غدًا.

رفعت عينيها إليه.

ظل واقفًا قرب الباب حتى أشارت إلى المقعد، لكنه لم يجلس.

— نحتاج إلى رجل يأتمرون به قبل أن يعرفوا إن كانوا يحبونه.

بقيت يدها فوق الخاتم.

قالت:

— لا.

لم ينطق اسمًا بعد.

اقترب إيلدار خطوة.

— لم يبق لدينا كثير من الوقت.

— ولن يبقى لنا شيء إن أعدناه إلى الجيش.

وصلت من الفناء ضربة مطرقة، وتبعتها أخرى. كان العمال يصلحون مفصل البوابة الداخلية منذ الصباح. أصغت ميرافا إلى الصوت، كأنها تمنح الرجل فرصة ليتحدث عن أمر آخر.

لكنه قال:

— قَرهان يستطيع جمعهم.

أغلقت أصابعها حول الخاتم.

لم يُذكر اسم أخيها في تلك الغرفة منذ سنوات.

كان قرهان يرى أن الحكم انتهى إلى الشخص الخطأ يوم جلست ميرافا على العرش. لم يخفِ ذلك تمامًا؛ قاله أولًا بين الضباط، ثم في مجلس ضيق، ثم أمامها. عدّ الإعفاء من بعض الجباية ضعفًا، وتأجيل العقوبات ترددًا، واستقبال شكاوى القرى إضاعة لوقت ينبغي أن يُصرف على الجيش.

كلما ذكّرته بأن الناس هم من يزرعون ما يأكله جنوده، أجاب بأنهم يزرعونه لأن الجنود يحمون حقولهم.

قالت:

— سيأتي ليحكم، يا إيلدار. لن يأتي ليقود حملة ثم يعود إلى مكانه.

— قد يأتي من أجل قاسران.

نظرت إليه طويلًا.

خفض الرجل بصره، ثم أعاده إليها.

— وقد يأتي من أجل الأمرين.

نهضت ومشت إلى النافذة.

تذكرت أخاها واقفًا في الغرفة نفسها، وقد عاد من حملة لم يأذن له أحد بإكمالها. وضع أمامها مفاتيح حصن استسلم، وانتظر شكرًا. وعندما سألته عن الرجال الذين أعدمهم بعد فتح الأبواب، قال إن الحصون تتعلم من بعضها، وإن ما فعله سيختصر دمًا في الحرب التالية.

كان سايرن حاضرًا.

لم يرفع صوته يومها، لكن الحارسين عند الباب تقدما حين وقف الأخوان وجهًا لوجه.

قالت ميرافا:

— انتصر، ثم تصرف كأن النصر ألغى أمري. ماذا سيفعل الآن، بعدما صرنا نحتاج إليه؟

لم يجب إيلدار مباشرة.

جلس أخيرًا، ووضع كفيه على ركبتيه.

— كنت عند ذلك الحصن قبل فتحه.

التفتت.

— أعرف ما فعل داخله.

— أقصد البوابة.

سكت قليلًا.

— وصلت آلات الحصار بعد يومين من الموعد. لم ينتظرها. مشى تحت السهام حتى بلغ الباب، ووضع يديه على صفائح الحديد. رأيت رؤوس المسامير تدخل في الخشب. انثنت العوارض من الداخل، ثم انفتح الباب في وسطه.

لم تتغير ملامحها.

تابع:

— لم يكن يستطيع رفع ذراعه اليمنى بعد ذلك. أخفاها تحت ردائه ثلاثة أيام.

— وكان يستطيع أن ينتظر يومين.

— نعم.

لم يحاول الدفاع عنه.

كان ذلك ما جعل الحديث أصعب.

قوة قرهان لم تكن حكاية يبالغ فيها الجنود. الحديد الذي يقاوم الرجال كان يلين بين يديه حين يحكم قبضته عليه، ثم ينثني أو يتمزق عند الموضع الذي يختاره. احتاج إلى الاقتراب، وإلى بذل جهد كان يترك ارتجافًا في جسده، لكنه قبل ذلك الثمن كل مرة، وأحيانًا دفع رجاله إلى دفع ثمن أكبر كي يصل هو إلى ما يريد.

قالت ميرافا:

— سايرن كان يوقفه.

انخفض صوتها عند الاسم.

انتظر إيلدار، ولم يملأ الصمت.

عادت إلى المائدة، ووضعت الخاتم إلى جانب التقارير.

— اطلب تقريرًا عن رجاله، ومؤنه، ومن يدخل عليه. أريد أن أعرف ماذا بقي حوله قبل أن يعرف أننا نتحدث عنه.

نهض المستشار.

عند الباب، سأل:

— والرسالة إليه؟

نظرت إلى الورق أمامها.

— لم آمر برسالة.

◆

وصل تقرير هاروك إلى جروان قبل أن يعود رسوله.

قرأه في غرفة لا تطل على الشارع، بينما وقف ماردين عند طرف المائدة. لم تكن الرسالة طويلة. تحدّثت عن تردد فاريك في فتح طرق المناجم، وعن رجال بدأوا يتصرفون في الأراضي المحتلة كأنهم سيبقون فيها إلى الأبد.

طوى الملك الورقة.

— يأكل من المؤن، ثم يخاف أن تمر عرباتنا.

قال ماردين:

— سيقبل حين تتأخر الدفعة التالية.

ترك جروان التقرير، وسحب رقعة أخرى.

حملت وصفًا لأعمال ترميم في تيرافا.

أزيلت طبقة من الجص عن جدار قديم تابع للأرشيف، وظهرت تحتها خطوط اعتُبرت في البداية زخرفة. أوقف مهراز العمال عند جزء منها، ثم أمر بنسخها قبل متابعة العمل.

لم تتضمن الرقعة تفسيرًا للخطوط.

كان في أسفلها رسم صغير، نسخه المرسل على عجل.

نظر جروان إليه حتى اقترب المصباح من الاحتراق.

قال:

— هل خرجت نسخة من المبنى؟

— لا نعرف.

— اعرفوا.

اقترب ماردين ليرى الرسم.

غطّاه الملك بأصابعه.

ثم أملى طلبًا رسميًا إلى إيفارا، يقترح إرسال مختصين من زافرين لمعاينة سجلات قديمة قال إن لها صلة بتاريخ المملكتين وحقوق طرق التجارة بينهما.

اختار كلمات مهذبة.

راجعها مرتين.

وبعد أن خرج الكاتب، قال لماردين:

— أريد جواب أردان قبل أن يقرر مهراز ما الذي وجده.

◆

رأى نائل تيرافا أولًا في الماء.

كان الطريق ينحدر بمحاذاة قناة واسعة، وحين توقف ليغسل كفيه، ظهرت الأبراج مقلوبة بين الدوائر التي صنعتها أصابعه. رفع رأسه فوجدها خلف التلة الأخيرة، متقاربة في الضوء، تتخللها أسطح فاتحة وقباب منخفضة وامتداد طويل من الأسوار.

نسي أن يمسح الماء عن وجهه.

ابتعد أوران بضع خطوات قبل أن يلاحظ توقفه.

عاد ووقف إلى جانبه.

من بعيد، بدت المدينة ساكنة. لكنهما كلما اقتربا وصلهما شيء منها: عجلات فوق الحجارة، طرق معدن، نداء بائع، ثم أصوات كثيرة لم يعد يستطيع فصلها.

عند البوابة، وقف غزال أبيض محفور فوق القوس، وبين قرنيه ارتفع فراغ السماء. وعلى جانبيه قمران؛ أحدهما كامل، والآخر يشقه أثر داكن امتد في الحجر.



مرّ نائل تحته وهو ينظر إلى أعلى، فاصطدم كتفه بحزمة يحملها رجل خارج من المدينة.

اعتذر، ثم اضطر إلى اللحاق بأوران.

اتسع الشارع خلف البوابة. عبرته عربات محملة بالقماش، وحمالون يرفعون أقفاصًا، وجنود يشقون الزحام دون استعجال. من نوافذ الطوابق العليا تدلت أقمشة مبللة، وبين البيوت ظهرت قنوات ضيقة يجري فيها الماء نحو الحي المنخفض.

أخذت عيناه تتعلقان بكل شيء.

نافورة لا ينسكب ماؤها من فم حيوان، بل من حواف دوائر حجرية تتداخل فوق بعضها. دكان صغير يعرض عدسات وموازين دقيقة. جدار غطته أوراق مختومة، وقف رجال يقرؤونها بصوت مرتفع لآخرين لا يقرؤون.

توقف عند رسام خرائط.

كانت الورقة المعروضة في الواجهة أوسع من ذراعيه، وقد ثُبتت أطرافها بأثقال نحاسية. رأى الممالك والطرق، ثم بحث عن الموضع الذي يفترض أن تكون فيه الجزيرة.

لم يجده.

وقبل أن يقترب أكثر، لامست عصا أوران الأرض إلى جانبه.

— الحقيبة.

التفت.

كان قد تركها تسقط عن كتفه، وكادت تصيب رأس طفل يمر خلفه.

رفعها، ثم نظر إلى الشيخ.

— كيف يعرف الناس طريقهم هنا؟

أشار أوران إلى رجل يعبر أمامهما وهو يوازن صينية فوق رأسه.

— ذلك الرجل يعرف.

— أقصد إلى كل هذه الأماكن.

— لا يحتاج إلى كلها.

في طرف ساحة مرتفعة، ظهر مدخل الأرشيف الملكي، تتقدمه درجات عريضة وقف عندها حارسان. مرّ رجل يحمل ألواحًا ملفوفة بالقماش، فأفسح له أحدهما الطريق بعد أن رأى ختمًا صغيرًا في يده.

راقب نائل الألواح حتى اختفت.

أما القصر فلم يقتربا منه. رآه فوق مستوى الأسواق، وراء سور آخر وحدائق لا يظهر منها إلا أعلى الأشجار. انعكس الضوء عن نوافذه، واضطر نائل إلى تضييق عينيه ليرى الطريق الصاعد إليه.

سأل:

— هل دخلته من قبل؟

تأخر أوران لحظة قبل أن يجيب.

— دخلت أماكن كثيرة.

— هذا ليس جوابًا.

— لكنه كل ما ستأخذه وأنت تقف في وسط الطريق.

جذبه من كتفه قبل أن تصدمه عربة.

اختارا نزلًا في شارع جانبي، فوق مخبز تصل رائحته إلى السلم. كانت الغرفة ضيقة، بسريرين وحوض متشقق ونافذة تطل على أسطح متجاورة.

جلس نائل على السرير الأقرب إلى النافذة.

لم يخلع حذاءه.

بقي ينظر إلى الأبراج حتى جاء صاحب النزل يطلب إبعاد قدميه عن الغطاء.

◆

قضيا اليوم التالي في شراء ما يحتاجان إليه.

استبدل أوران الحزام الذي أتعب كتف نائل، واشترى له ثوبًا لا يحمل شق سكين عند الكم. أعطاه الحقيبة القديمة ليحملها، فاحتج نائل بأن الجديدة أخف، وأن هذه أفضل فرصة ليتأكد الشيخ من جودة ما اشتراه.

لم يناقشه أوران.

وضع الحقيبتين فوق كتفه.

بعد ذلك صار نائل أكثر حذرًا في اقتراحاته.

أكلا عند بائع قريب من السوق. وحين طلب أوران الحساب، أخبره الرجل بثمن جعل الشيخ ينظر إلى الوعاء الفارغ، ثم يسأل إن كان الخبز قد جاء على ظهر حصان.

ضحك البائع.

لم يخفض الثمن.

احتفظ نائل بالقصة حتى المساء، وأعادها على الشيخ مرتين.

في تلك الليلة، استيقظ على صوت خفيف.

كان أوران جالسًا عند النافذة، وقد وضع فوق ركبتيه قطعة قماش صغيرة. أخرج منها شيئًا معدنيًا، ومرر إبهامه على حافته، ثم أعاده حين تحرك نائل.

تظاهر الفتى بأنه يعدل الغطاء.

لم ينادِه الشيخ.

وفي الصباح، وجده قد ارتدى ردائه وربط الحقيبة الصغيرة إلى خصره.

وضع أمامه بضع نقود.

— طعامك، إن جعت قبل أن أعود.

جلس نائل.

— إلى أين؟

— أبحث عن بيت.

— أستطيع مساعدتك.

شدّ أوران الحزام، ثم رفع عينيه إليه.

— اليوم أذهب وحدي.

لم يكن صوته قاسيًا، لكنه أغلق السؤال.

أشار إلى النافذة.

— عد قبل أن يصل ظل ذلك البرج إلى المخبز. واسأل عن الطريق قبل أن تضيع، لا بعد ذلك.

جمع نائل النقود.

— وإن تأخرت أنت؟

توقف أوران عند الباب.

— انتظرني هنا.

نزل وحده.

بقي نائل جالسًا حتى ابتعد وقع خطواته، ثم نهض إلى النافذة. رأى الشيخ يعبر الشارع دون أن يسأل أحدًا، وينعطف في اتجاه السوق القديم.

◆

لم يجد أوران البيت حيث تذكره.

وجد مخزنًا مرتفعًا، وجدارًا جديدًا امتد فوق موضع الممر، وبئرًا أُغلقت بفوهة حديدية. وقف أمامها زمنًا قصيرًا، ثم رفع بصره إلى البيوت المحيطة.

بقيت نافذة واحدة يعرف شكلها.

كانت أصغر الآن مما احتفظت به ذاكرته، أو لعل البناء الذي ارتفع حولها جعلها كذلك.

سأل امرأة تكنس عتبتها عن الأسرة التي سكنت وراء البئر.

ذكرت اسمًا لم يعرفه.

عاد فوصف رجلًا كان يصلح أدوات القياس، ويترك عند بابه لوحًا محفورًا عليه نصف دائرة.

توقفت المكنسة.

قالت إن جدّ جدّها كان يتحدث عن دكان بهذا الوصف، لكنه أُزيل حين وُسّع الشارع. أما الأسرة، فقد انتقلت إلى الحي القريب من ورش الزجاج.

شكرها.

لم تسأله كيف يعرف دكانًا زال قبل ولادتها. عادت إلى كنس العتبة، ومضى هو ببطء أكبر مما جاء.

بلغ الورش قرب منتصف النهار.

سمع الطرق قبل أن يرى الأبواب. انتشرت في الهواء رائحة الفحم والزيت الساخن، وظهرت خلف واجهات صغيرة مصابيح وموازين وقطع نحاسية لم يكتمل تركيبها.

عند الدكان الثالث، وجد العلامة.

نصف دائرة تحتها خط قصير.

حُفرت على الخشب حديثًا، لكنها حافظت على الخطأ نفسه عند طرفها الأيسر.

مدّ يده ولمسها.

في الداخل، رفع رجل في منتصف العمر رأسه عن عدسة يثبت إطارها. انتظر حتى دخل أوران، ثم سأل عما يحتاج إليه.

نظر الشيخ إلى الأدوات فوق الرف.

بعضها لم يعرفه. وبعضها أعاده إلى غرفة أخرى، ويدين غطاهما سواد العمل، وضحكة رجل كان يصر على أن الأشياء الدقيقة تُصلح بالصبر قبل الأدوات.

قال:

— أبحث عن شيء تركه رجل عند جدّك.

وضع صاحب الدكان العدسة.

— أيّ جدّ؟

لم يجب أوران فورًا.

كان في السؤال ما يكفي ليعيده إلى الحاضر.

أخرج قطعة القماش من داخل ردائه ووضعها على الطاولة، لكنه لم يفتحها.

قال الرجل:

— إن كانت لك وديعة، فأين وصلها؟

فكّ أوران القماش.

استقر فوقه نصف قرص معدني، اسودّت حوافه، وبقي في وسطه جزء من نقش دقيق ينتهي عند كسر غير منتظم.

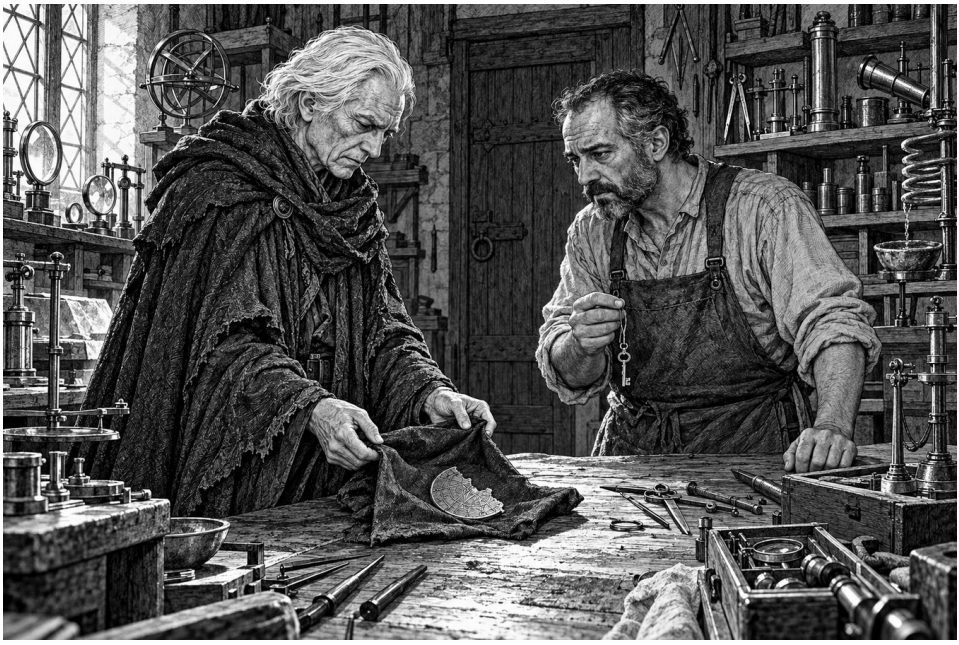

لم يتحرك الرجل.

خلفه، استمرت قطرة ماء في السقوط من أنبوب التبريد إلى وعاء صغير.

نظر إلى وجه أوران، ثم إلى القطعة مرة أخرى.

قال بصوت أخفض:

— من أين أخذت هذه؟

— لم آخذها من أحد.

شدّ الرجل فكه.

كان على وشك أن يسأل سؤالًا آخر، لكنه نظر إلى الباب المفتوح أولًا. خرج من خلف الطاولة، وأغلقه، ثم قلب اللوح الصغير المعلق عليه.

عندما عاد، لم يجلس.

— أبي قال إن صاحبها قد لا يأتي في حياتي.

رفع أوران عينيه.

— وأبوك؟

مسح الرجل إبهامه في راحة يده.

— مات منذ أحد عشر عامًا.

انحنى الشيخ فوق الطاولة قليلًا.

لم يكن التعب الذي ظهر عليه من الطريق.

فتح صاحب الدكان خزانة صغيرة تحت الرف، وأخرج مفتاحًا معلقًا بخيط قديم. ظل ممسكًا به دون أن يتحرك نحو أي باب.

— ماذا قلت إن اسمك؟

سكت أوران لحظة.

ثم قال الاسم الذي عاش به أمام نائل.

لم يبدُ على الرجل أنه يعرفه.

لكن عينيه عادتا إلى نصف القرص، وبقي المفتاح في يده.

◆

في الجهة الأخرى من المدينة، كان نائل قد أضاع البرج الذي اتخذه أوران علامة للعودة.

رآه من ثلاثة شوارع، ثم اختفى خلف بناء طويل، فاختار ممرًا ظن أنه يعيده إلى الساحة. انتهى الممر عند ورشة مفتوحة، وعاد من حيث جاء بعدما أخبره عامل، دون أن يرفع رأسه، أن الطريق ليس من هناك.

اشترى شيئًا محشوًا بالجبن، ولم يعرف اسمه. أكل نصفه قبل أن يكتشف أن داخله فلفلًا أكثر مما يحتمل، فظل يمشي وفمه مفتوح قليلًا، يبحث عن الماء.

وجد نافورة قرب مبنى قديم تحيط بأحد جوانبه سقالات.

انحنى فوقها وشرب.

حين رفع رأسه، سقط غبار من أعلى الجدار واستقر على سطح الماء.

نظر إلى فوق.

كان شاب يجلس على لوح مرتفع، يزيل طبقة متآكلة عن حجر بإزميل صغير. تحرك بدقة، ثم توقف ليقارن الخط الذي ظهر تحت الجص برسم على ورقة مثبتة قربه.

رأى نائل أولًا الرباط حول معصمه.

ثم الشفة التي بقي عند طرفها أثر الجرح.

تراجع خطوة ليرى وجهه.

في اللحظة نفسها، التفت الشاب نحو الوعاء الذي يضع فيه أدواته، فلم يجد ما يبحث عنه. مد يده إلى عامل تحت السقالة وطلب إزميلًا آخر.

التقط نائل الأداة من فوق الصندوق قبل أن يصل العامل إليها.

رفعها.

نظر الشاب إلى اليد، ثم إلى صاحبها.

بقي الإزميل بينهما لحظة.

قال نائل:

— هذه المرة لم تقع أغراضك تحت عربة.

حدّق الشاب فيه، ثم ظهرت ابتسامة صغيرة شدّت موضع الجرح في شفته.

أخذ الأداة.

— وهذه المرة لا تحمل سكينًا.

رفع نائل عصاه عن الأرض.

— لم أحمل واحدة في المرة السابقة أيضًا.

نظر الشاب إلى العصا، وضحك.

كان نائل قد وجد شخصًا يعرفه في المدينة.

أما البرج، فظل مختفيًا خلف الأسطح.

أعاد الشاب الإزميل إلى الوعاء، ثم نزل عن السقالة وهو يمسح الغبار عن ذراعيه.

بدا أطول مما تذكره نائل. عند المرفأ، لم يره واقفًا إلا لحظات؛ كان منحنياً فوق أغراضه، يحاول جمع ما يمكن حمله قبل أن يعود الرجال.

وقف أمامه الآن، ونظر إلى الرباط الذي ظهر تحت كمّه.

— أصابوك؟

رفع نائل ذراعه قليلًا.

— القميص أكثر مني.

ابتسم الشاب، ثم مد يده.

— رائف.

صافحه نائل وذكر اسمه.

لم يترك رائف يده فورًا.

— بحثت عنكما قرب الطريق بعد أن ابتعدوا.

— كنا نبحث عن طريق آخر أيضًا.

أفلت يده، وخفض عينيه لحظة نحو العصا.

— لم أشكرك كما ينبغي.

حرّك نائل كتفه.

— كنت مشغولًا بالهرب.

— وأنت؟

نظر إلى الشق الذي اختفى تحت خياطة أوران.

— لحقت بك بعد قليل.

ضحك رائف، ثم أشار إلى حافة حجرية في ظل المبنى. جلسا عليها، وبقي وعاء الأدوات بين قدميه. فوقهما، واصل عامل ضرب الجدار بمطرقة صغيرة، فتساقط غبار خفيف على طرف السقالة.

أخرج رائف قطعة خبز من قماش مطوي، وقسمها.



اعتذر نائل وأشار إلى النافورة.

— أكلت شيئًا جعلني أشرب نصف مائها.

— من الدكان عند الزاوية؟

أومأ.

— كان ينبغي أن ترى صاحبه وهو يأكل مما يبيعه. لا يلمس الحشو.

نظر نائل إلى آخر ما بقي معه من الطعام، ثم لفّه بحذر.

تناول رائف لقمة قبل أن يسأله:

— جئت لتعمل؟

— لا أعرف بعد.

التفت إليه.

لم يبدُ أنه فهم الجواب، لكن نائل كان ينظر إلى السقالات.

— وأنت تصلح هذا كله وحدك؟

— أصلح ما يتركونه لي.

أشار إلى أعلى الواجهة، حيث اختلف لون الحجارة عند نافذة أُغلقت.

— الأحجار الجديدة أسهل. القديمة تعاقبك إن استعجلت.

حكى له عن عمل انتهى منه قرب المرفأ، وعن رجل دفع أجرته بعد أسبوعين من الموعد. كان خارجًا بالمال حين اعترضه الرجال. طلبوا نصيبهم، كأنهم حملوا معه الحجر، ثم أخذوا يسألونه عما أخفاه حين وجدوا النقود أقل مما توقعوا.

أبقى رائف كفه فوق الرباط عند معصمه.

— يعرفون من يقبض أجره، ومن لا ينتظره أحد.

قال نائل:

— ألا تشتكون إلى الحراس؟

— فعل صاحب الورشة قبلي. صار يدفع في أول الشهر بدل آخره.

لم يقلها ساخرًا. التقط فتات الخبز من ثوبه، ثم نهض حين ناداه العامل.

وقف نائل معه، وناولَه الورقة التي تركها قرب الوعاء. كان عليها رسم للجزء الذي يعمل فيه، تتكرر فيه أوراق حجرية ملتفة حول شريط ضيق.

قارن نائل بينها وبين الجدار.

— هذه تنتهي هنا.

أشار إلى انحناءة عند الطرف.

نظر رائف إلى الورقة، ثم رفع رأسه.

اقترب من الحجر ومسح عنه الغبار بإبهامه. ظهر طرف الخط تحت بقعة من الجص.

— صحيح. نسختها قبل أن أنظف هذا الموضع.

أخذ قطعة الفحم وعدّل الرسم، ثم وضع الورقة تحت ثقل صغير.

كان نائل قد التفت يبحث عن البرج.

دار نصف دورة، ثم أخرى.

راقبه رائف قليلًا.

— إلى أين تحاول النظر؟

وصف له النزل والمخبز الذي تحته.

أشار رائف إلى شارع خلف النافورة، ثم تراجع عن الشرح بعدما رأى وجهه.

— سأمشي معك إلى أول الساحة. إن أضعت الطريق بعدها، فالمشكلة أكبر مما أستطيع إصلاحه.

حمل نائل عصاه وتبعه.

عند مفترق الشوارع، ظهر البرج أخيرًا فوق الأسطح. توقف نائل ونظر إليه كأنه وجده في المكان الذي تركه عمدًا.

قال رائف:

— سأكون هنا غدًا.

— فوق الجدار؟

— إن لم يسقط علينا اليوم.

رفع يده مودعًا وعاد إلى السقالات.

تابعه نائل بعينيه، ثم مضى نحو المخبز قبل أن يختفي البرج مرة أخرى.

◆

ظل صاحب الدكان يقلب المفتاح بين أصابعه.

كان الخيط المعلق به قد اسودّ عند العقدة، وتهرأ في موضع احتك طويلًا بحافة المعدن. نظر أوران إليه، ثم أعاد نصف القرص إلى وسط القماش.

قال الرجل:

— انتظر.

مرّ خلف الستار الفاصل بين الدكان والغرفة الداخلية. سمع أوران خشبًا يُجر فوق الأرض، ثم صوت غطاء يُرفع.

عاد الرجل بصندوق صغير.

لم يستخدم المفتاح الذي في يده. فتح قفلًا آخر بمفتاح أخذه من حزامه، وأخرج لفافة غطتها طبقات من قماش جاف.

ظهر النصف الثاني من القرص.

كان أنظف قليلًا، وفي طرفه خدش لم يعرفه أوران. وضعه الرجل قرب القطعة الأولى، لكنه أبقى إصبعين فوقه.

— أبي لم يرَ النصف الآخر قط.

نظر الشيخ إلى الكسر.

— احتفظ به جيدًا.

— وجدّي أيضًا.

رفع الرجل عينيه إليه، وانتظر.

مدّ أوران يده، وقرّب القطعتين.

التقت الحافتان دون فراغ. اكتمل النقش في الوسط، والتأم خط صغير لم يكن يبدو، حين انفصل نصفاه، جزءًا من شكل واحد.

لم يصدر صوت.

أخذ صاحب الدكان نفسًا طويلًا، ثم جلس للمرة الأولى.

بقي ينظر إلى القرص حتى قال:

— جئت لتأخذها؟

رفع أوران رأسه.

أكمل الرجل، كأنه يصحح عبارة حفظها:

— أم جئت بصاحبها؟

تحركت يد الشيخ فوق القماش، ثم استقرت.

— هو في المدينة.

مسح الرجل كفيه في ثوبه.

كانت الأسئلة ظاهرة في وجهه، لكن السؤال الذي اختاره جاء بصوت هادئ:

— ويعرف؟

— ليس بعد.

نهض صاحب الدكان وحمل المصباح من الرف.

تبعه أوران إلى الغرفة الداخلية. ضاقت المسافة بين الخزائن حتى اضطر إلى إدارة كتفيه، ومرّ قرب أدوات تراكم عليها غبار أكثر مما ينبغي في دكان يعمل كل يوم.

في آخر الغرفة، ظهرت خزانة قصيرة ثبتت أرجلها إلى الأرض.

جثا الرجل أمامها، وأدخل المفتاح القديم في قفل تحت الحافة. قاومه قليلًا، فرفع الباب بيده الأخرى، ثم أداره.

— الخشب تحرك هذا الشتاء.

قالها معتذرًا، كأنه يشرح عيبًا في قطعة أحضرها زبون للإصلاح.

انفتح الباب.

كان داخل الخزانة تجويف أعمق من ظاهرها، يستمر تحت الجدار. سحب الرجل لوحًا مبطنًا بالقماش، وفوقه أمانة ملفوفة، مشدودة بأربطة لم تتشابه أعمارها. بعضها اسودّ وتصلب، وبعضها بدا أحدث، عُقد فوق مواضع ضعفت فيها اللفافة.

اقترب أوران.

مد أصابعه إلى عقدة صغيرة عند الطرف، ثم توقف قبل أن يمسها.



رأى الخيط الذي أُصلح به شق قديم في الغلاف. لم يكن مستقيمًا. تباعدت غرزتان في وسطه، ثم تقاربت البقية، كما لو أن اليد التي خاطته فقدت صبرها ثم تذكرته.

خفض رأسه.

انتظر صاحب الدكان دون أن يتحدث.

بعد قليل، قال أوران:

— هل فُتحت؟

— لم أفتحها.

نظر إلى اللفافة، ثم أضاف:

— أبي قال إن الحفظ لا يحتاج إلى أن أعرف ما أحفظه.

أومأ الشيخ ببطء.

أعاد الرجل اللوح إلى مكانه، لكن أوران أشار إليه أن ينتظر. انحنى قليلًا، يتفحص أحد الأربطة، ثم تركه كما كان.

— سأعود معه.

— متى؟

— صباحًا، إن أمكن.

أغلق صاحب الدكان الخزانة وأدار المفتاح.

حين عادا إلى الطاولة، فصل القرص وأعطى أوران نصفه. احتفظ بالنصف الآخر في راحته، وبقي يتأمل حافته المكسورة.

عند الباب، قال:

— ظننت أنني سأتركها لابنتي كما تركها أبي لي.

التفت أوران إليه.

للحظة، بدا أنه يريد السؤال عن البنت، أو عن أبيه، أو عن أسماء كثيرة لم يعد أحد في ذلك الدكان يعرفها.

لكنه اكتفى بأن قال:

— لقد حفظتموها طويلًا.

خرج إلى الضوء، واضطر إلى الوقوف حتى اعتادت عيناه الشارع.

◆

انتهى الجبل ببطء.

خفّ انحدار المسلك أولًا، ثم ظهرت أشجار متباعدة، وأعقبها سياج حجري تهدمت أجزاء منه. بعد الظهر، رأى سايرن حقولًا ضيقة تمتد تحت المرتفعات، وماءً يجري في ساقية لم يفسد المطر حوافها بعد.

توقفت المرأة لتعدل الحمل فوق البغلة.

أشارت بعصاها إلى البيوت البعيدة.

لم يسمع ما قالت للصبي. كان ينظر إلى الطريق الذي ظهر وراء الحقول، وإلى عربة مرت عليه دون أن تضطر إلى الوقوف عند كل منعطف.

بلغوا السوق قبل المساء.

كان أصغر من أن يُسمّى بلدة، وأكبر من أن يعرف أهله كل من يدخل إليه. امتدت حظائر خلف البيوت، وارتفعت رائحة الجلود من ساحة غطيت بعض أجزائها بالقش. فوق برج بعيد، تحركت راية لم يستطع سايرن تمييز تفاصيلها، لكن المرأة أخبرته أنهم بلغوا إيفارا قبل أن يسأل.

لم يشعر بالراحة التي توقعها.

أنزل الكيس الذي حمله، وبقيت كتفه مرفوعة بعد زوال الوزن. اضطر إلى تحريكها بيده الأخرى حتى استقرت.

ساعدهم في نقل الصوف إلى مخزن التاجر، ثم أمسك البغال بينما دار خلاف طويل حول رطوبة الحمل. خرج الرجل المسن بعد ذلك يعد النقود في كفه، ويعيد العد من البداية كلما قال له الصبي شيئًا.

ناولته المرأة قطعة خبز وجبنًا ملفوفًا.

همّ برفضها، فنظرت إلى يديه الفارغتين.

أخذها.

لم يتعانقوا عند الفراق. طلب منه الصبي أن ينتبه إلى مواضع الماء تحت الصخور، فضحكت المرأة، ورفع الرجل المسن كفه دون أن يترك لجام البغلة.

تابعهم سايرن حتى اختفوا بين العربات.

ثم بحث عن مكان ينام فيه.

وجد غرفة مشتركة فوق حظيرة، يدفع نزيلها عن فراشه وعن الماء الساخن كلًّا على حدة. اكتفى بالفراش، وغسل ثوبه في الحوض الخارجي. حين رفعه، رأى أثرًا خفيفًا عند موضع الجرح، فبقي يفركه أكثر مما يحتاج القماش.

في الصباح، خرج قبل أن يستيقظ الآخرون.

عند مخزن قريب، كان رجال يحاولون تحميل أكياس حبوب على عربة مالت إحدى عجلاتها. وقف سايرن يراقبهم لحظة، ثم وضع حقيبته إلى جانب الجدار وطلب منهم التوقف.

أشار إلى الأكياس فوق المؤخرة، ثم إلى محور العجلة.

لم يفهم العامل الأول. فهم الثاني، وبدأ يسب الرجل الذي رصّ الحمل.

أفرغوا بعضه. رفع سايرن طرف العربة بعارضة، ووضع العامل حجرًا تحتها. احتاج الإصلاح إلى بقية الصباح، وحصل في نهايته على أجرة صغيرة وطلب بالعودة في اليوم التالي.

عاد.

وخلال الأيام التالية، عرف أن المخزن يرسل مؤنًا إلى حصن يشرف على الطريق، وأن العربات تعود منه بمحاور متعبة أكثر مما ينبغي.

في إحدى المرات، فحص عجلة مشقوقة وسأل عن المسلك الذي تسلكه.

وصف له العامل جسرًا ضيقًا ومنحدرًا تكثر فيه الحجارة.

طلب سايرن حبلًا، وقاس المسافة بين العجلتين، ثم أشار إلى أثر الضربات في الخشب. كانت العربة تهبط محملة، ويشد السائق اللجام متأخرًا عند المنعطف الأخير.

سمعه رجل وصل مع جنديين.

توقف قربه، وانتظر حتى أنهى كلامه.

كان معطفه يحمل غبار الطريق، وفي حزامه سيف لا تبدو قبضته جديدة. سأل عن عدد العربات التي تصلح للمسير، فأجابه صاحب المخزن، ثم استدعى سايرن لشرح ما يحتاج إلى تبديل.

أصغى الرجل دون مقاطعة.

وحين انتهى، سأله:

— عملت مع قوافل؟

— أصلحت عربات كثيرة.

نظر إلى يديه، ثم إلى العجلة.

— وفي الحصون؟

تأخر سايرن قليلًا.

— عملت قربها.

لم يلح الرجل.

أخبر صاحب المخزن أن يرسل معه عاملين في الصباح. كان سقف أحد المستودعات داخل الحصن يسرب الماء، وقد بدأ القمح القريب من الجدار يتلف.

أشار صاحب المخزن إلى سايرن.

وافق الرجل، ثم غادر ليفحص الأكياس.

عندما ابتعد، أخبر العامل سايرن أنه الضابط المسؤول عن حامية الحصن.

التقط سايرن أدواته ببطء.

في تلك الليلة، حسب ما بقي معه من النقود، ثم طوى ثوبه الجاف ووضعه في الحقيبة.

◆

قرأ الكاتب رسالة جروان مرة واحدة، ثم أعادها إلى غلافها.

بقي أردان ينظر إلى الختم.

حول المائدة، انتظر الحاضرون أن يبدأ أحدهم بما يفكر فيه الجميع: لماذا اهتمت زافرين الآن بسجلات ظلت في مكانها أجيالًا؟

قال أحد رجال المجلس إن طلب المعاينة لا يستحق خلافًا، وإن الوفد يمكن أن يدخل تحت إشراف موظفي الأرشيف ويخرج بما يُسمح له بنسخه.

كان مهراز قد وضع أمامه لوحين ملفوفين، لكنه لم يفتحهما.

سأله أردان:

— هل طلبوا سجلات سبق أن اطلع عليها رجالهم؟

— بعضها.

— والبقية؟

مرر مهراز يده فوق عقدة القماش.

— وصفوها بدقة لا تأتي من فهرس عام.

مال أحد الجالسين إلى الأمام.

— ربما نقلها ناسخ قديم.

أومأ مهراز.

— ربما.

لم يزد.

من النافذة المفتوحة وصل صوت الماء في الحديقة. تحركت ورقة عند طرف المائدة، فأثبتها الكاتب بيده.

قال أردان:

— وماذا ظهر تحت الجص؟

فكّ مهراز عقدة أحد اللوحين.

وضع أمام الملك رسمًا لجزء من الجدار، وأشار إلى خط يمر خلف حافة أضيفت في ترميم لاحق.

— هذا الجزء أقدم من التاريخ المثبت للبناء. والحجارة هنا أعيد ترتيبها.

اقترب أردان ليرى.

— لأي سبب؟

— لا أستطيع أن أحدده بعد.

— هل محا أحد شيئًا؟

نظر مهراز إلى الرسم.

— أستطيع أن أقول إن أحدًا غيّره. أحتاج إلى بقية الجدار لأعرف مقدار ذلك.

طلب أحد الحاضرين تأجيل جواب زافرين حتى يكتمل الفحص.

رفض أردان.

أعاد الرسم إلى مهراز، ثم أملى رده على الكاتب: يُستقبل الوفد بما يليق بممثلي جروان، وتتاح له السجلات المرتبطة بطلبه تحت إشراف الأرشيف. أما موضع الترميم، فيظل مغلقًا أمام الزوار حتى تنتهي معاينته.

رفع الكاتب رأسه.

— هل نذكر سبب الإغلاق؟

— أعمال الفحص والترميم.

انتظر لحظة، ثم أضاف:

— وهو السبب.

جمع مهراز لوحيه بعدما انتهى المجلس.

عند الباب، استوقفه أردان.

— لا تتعجل لتجيبهم.

انحنى الرجل قليلًا.

— ولن أؤخر العمل من أجلهم.

خرج، وبقيت الرسالة فوق المائدة حتى جفّ الحبر.

◆

كان قرهان واقفًا في ساحة التدريب حين وصل الخبر.

لم يوقف الرجال.

مرّ الرسول بين صفين من الجنود، ثم انتظر عند حافة الظل، بينما أعاد أحد المتدربين رفع درعه. تأخر في الحركة، فضربه خصمه بعصا التدريب فوق الكتف.

سقط على ركبة واحدة.

أشار قرهان إلى الرجل الواقف أمامه أن يتراجع، ثم اقترب من الجندي.

لم يساعده على النهوض.

عدّل الحزام خلف درعه، وشدّه حتى استقر المرفق في موضع أعلى.

— الآن ارفعه.

فعل الرجل.

ضرب قرهان حافة الدرع بعصاه.

ارتدّ الجندي خطوة، لكنه بقي واقفًا.

أومأ قرهان، وأعاده إلى الصف.

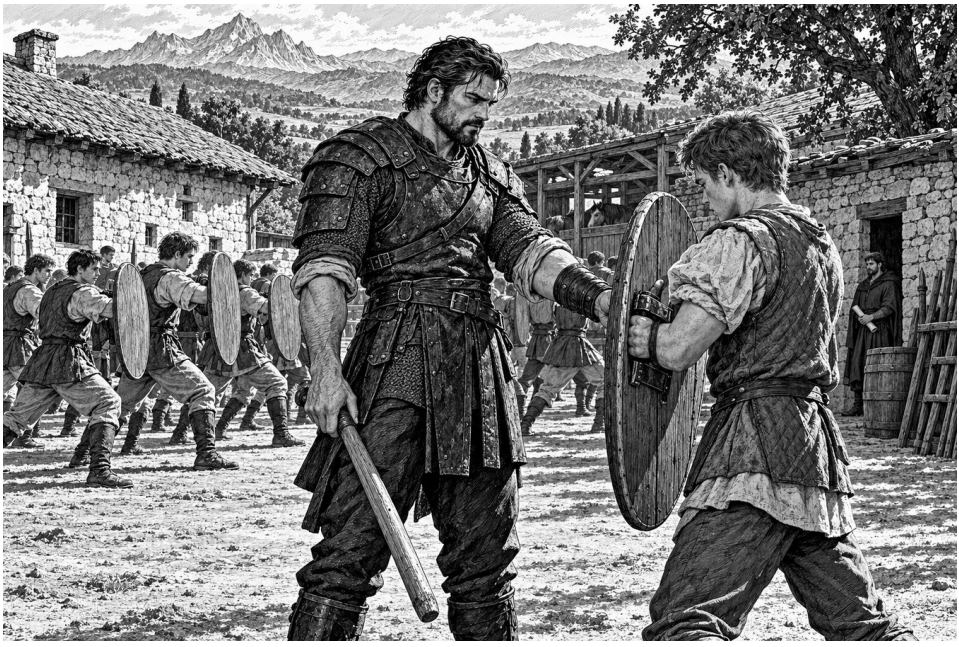

لم يكن المكان الذي أُبعد إليه قصرًا. أحاطت بالساحة مبانٍ قصيرة، ومستودع أُصلح سقفه بأخشاب مختلفة، وإسطبل اتسع خلال السنوات حتى تجاوز جداره القديم.

عرف كل ما فيه.

توقف عند أكياس الشعير قبل أن يستمع إلى الرسول، وأمر بفتح واحد منها بعدما لاحظ رطوبة عند قاعدته. أدخل يده إلى الداخل، ثم نظر إلى مسؤول المخزن.

لم يصرخ.

طلب سجل الاستلام، واسم الرجل الذي وقّع على الحمل.

بعد ذلك فقط، دخل الغرفة المطلة على الساحة.

أخبره الرسول بأن مجلس دمهار لم يحسم قيادة الجيش، وأن الأوامر تصل إلى بعض الوحدات من أكثر من جهة.

جلس قرهان وتركه يكمل.

سأل عن الرجال الذين حضروا المجلس، وعن الوحدات القريبة من العاصمة، وعن عدد الذين عادوا من الحملة الأخيرة. كلما عجز الرسول عن جواب، نقل السؤال إلى أمر آخر دون أن يظهر خيبة.

حين خرج، بقي أحد ضباطه قرب الباب.

قال:

— يمكن أن نرسل عرضًا بالمساعدة.

رفع قرهان كأس الماء، لكنه لم يشرب.

من النافذة رأى الجندي الذي صحح له وقفته يتلقى ضربة أخرى، هذه المرة فوق حافة الدرع.

— تعرف أين أنا.

قال الضابط:

— قد يمنعها المجلس.

وضع قرهان الكأس.

— لم يحتج المجلس إلى موافقتي حين أخرجني من الجيش.

سكت الرجل.

كانت فوق الرف خريطة لقاسران، لم تُعلّق على الجدار. أبقاها ملفوفة منذ آخر مرة صحح فيها مواقع الحصون. تناولها الآن وبسط طرفها، ثم ثبتها بالكأس.

وقف طويلًا عند دمهار.

قال الضابط، بصوت أخفض:

— الناس خائفون. قد ترى أن التخفيف عنهم أهم الآن.

ظهرت في وجه قرهان حركة صغيرة، لم تبلغ ابتسامة.

— ستخفف عنهم حتى لا يبقى عند الأبواب من يحرسهم.

مدّ إصبعه فوق الطريق المؤدي إلى العاصمة، ثم سحبه.

لم يمْلِ رسالة.

أمر بإصلاح العربات المؤجلة، وبمراجعة مخزون الحديد، ثم عاد إلى الساحة قبل انتهاء التدريب.

◆

اشترى نائل الطعام قبل أن يعود أوران.

وضعه قرب النافذة كي لا تبرد الأرغفة بسرعة، ثم غيّر رأيه حين حمل الهواء رائحتها إلى الخارج. نقلها إلى السرير، فترك الدهن أثرًا صغيرًا على الغطاء، وأمضى بقية الوقت يحاول إخفاءه بطرف الحقيبة.

دخل أوران وهو يفك رباط ردائه.

نظر إلى الطعام، ثم إلى الحقيبة الموضوعة في غير مكانها.

لم يسأل.

قال نائل:

— لم أعرف ماذا تحب.

جلس الشيخ ببطء.

— وماذا اشتريت؟

ذكر نائل ما عرف اسمه، وأشار إلى البقية.

تناول أوران قطعة صغيرة، فراقبه الفتى حتى ابتلعها.

— هذا لا يحرق الفم. جربته أولًا.

رفع الشيخ عينيه إليه.

حكى نائل قصة الحشو والفلفل، ثم أخبره أنه التقى الشاب عند السقالات، وأن اسمه رائف، وأنه يعمل في ترميم الحجارة القديمة.

سأله أوران إن كان معصمه قد تحسن.

أجابه بأنه عاد إلى العمل، وإنه يبدو معتادًا على الجروح.

أكل الشيخ في صمت، بينما تابع نائل وصف الشوارع التي مر بها. عند حديثه عن نافورة، استخدم يديه لشرح دوائرها، فاصطدم كوعه بالكأس. أمسكها أوران قبل أن تنقلب، ووضعها في الجهة الأخرى من المائدة.

— المدينة واسعة بما يكفي. لا تحتاج إلى بنائها هنا.

ضحك نائل، ثم رأى الغبار على طرف رداء الشيخ.

— وجدت البيت؟

مسح أوران أصابعه بقطعة قماش.

— وجدت من أبحث عنه.

انتظر الفتى بقية الجواب.

مدّ أوران يده إلى الرغيف وقسمه، ثم أعطاه نصفه.

— سنذهب إليه صباحًا.

— لماذا؟

توقف الشيخ لحظة.

— عنده شيء ينبغي أن تراه.

نظر نائل إلى الحقيبة الصغيرة المعلقة قرب الباب.

تذكر المعدن الذي رآه ليلًا، لكنه لم يسأل عنه مباشرة.

— شيء لي؟

رفع أوران بصره.

لم يكن في السؤال مزاح هذه المرة.

— سنعرف حين نصل.

بقي نائل ينظر إليه، ثم تناول الخبز.

بعد الطعام، نزل ليعيد الوعاء إلى صاحب النزل. وحين عاد، وجد أوران قد خلع حذاءه ومدّ ساقيه، وأغلق عينيه دون أن يستلقي.

وضع الفتى الغطاء قربه.

فتح الشيخ عينًا واحدة.

— لم أنم.

— أعرف.

ترك الغطاء ومضى إلى النافذة.

في الأسفل، بدأ الخباز يدخل ألواح العجين الأخيرة. خفتت الأصوات في الشارع، وبقي البرج واضحًا فوق الأسطح.

نام نائل قبل أن يتوقف العمل في المخبز.

أما أوران، فجلس بعد ذلك طويلًا، ونصف القرص بين أصابعه.

◆

قضى سايرن يومه الأول داخل الحصن فوق سقف المخزن.

كانت الألواح التي ظنوا أنها فسدت متماسكة في معظمها. جاء الماء من شق عند موضع التقاء السقف بالجدار، ثم سار فوق العارضة حتى تساقط في الجهة الأخرى.

أراهم موضعه، وطلب نقل الأكياس قبل بدء الإصلاح.

عمل معه نجّار شاب يكثر من الكلام حين يخاف الصعود. تركه سايرن يناوله الأدوات من الأسفل، وصعد وحده. عند الظهر، أعاد تثبيت أول لوح، ونزل ليرتاح قبل أن يظهر ارتجاف يده.

وجده الضابط قرب الحائط.

أعطاه قدح ماء وسأله عن العمل.

أجابه سايرن، ثم أشار إلى الأكياس المنقولة.

— هذه تحتاج إلى فرش تحتها. ستأخذ رطوبة الأرض ولو أصلحنا السقف كله.

نظر الرجل إليها.

نادى أحد الجنود وأمر بإحضار ألواح من المستودع القديم.

جلس بعد ذلك على الحجر المقابل، وترك سايرن يشرب دون أسئلة.

كان ذلك أريح له من اللطف الذي يحتاج إلى جواب.

عند المساء، أخبره الضابط أن في البيت المجاور غرفة خالية، وأن أجر المبيت في السوق سيأكل ما يكسبه إن طال الإصلاح.

تردد سايرن.

قال الرجل إن الغرفة كانت لموظف المخزن قبل انتقاله، وإنها تحتاج إلى تنظيف.

وافق.

وجد فيها سريرًا قصيرًا وطاولة وآثار رف أُزيل من الجدار. نظفها بالماء، وترك الباب مفتوحًا حتى جفت الأرض. ثم جلس، وأخرج من حقيبته الخريطة التي حملها من القرية.

فردها تحت الضوء.

كانت تيرافا أقرب الآن مما كانت فوق مائدة القروي، لكن الطريق إليها لم يبدُ أبسط.

أخرج ورقة صغيرة اشتراها في السوق، وبقي ينظر إلى بياضها.

كتب سطرًا.

قرأه، ثم طواه حتى اختفى.

لم يكتب اسمها.

عرف أن العبارة تكفي لتتعرف إليه إن وصلت إلى يديها، وعرف أيضًا أن رجلًا سواها قد يقرؤها أولًا. حاول أن يتخيل وجهها حين تسمع بنجاته، فلم يستطع أن يثبته على صورة واحدة.

مرّت سنوات على آخر حديث بينهما.

وكان في آخر ذلك الحديث ما لا يصلح أن يبدأ به رسالة.

مزق الورقة إلى أجزاء صغيرة، وجمعها في كفه.

في الصباح، وجد مضيفه يفحص قوائم المؤن عند باب البيت.

انتظر حتى ابتعد الجندي الذي معه، ثم سأله عن المراسلات إلى العاصمة.

— للتجار عربات كل بضعة أيام. ورسائل الحامية تخرج مع السعاة.

— وإن كانت الرسالة إلى القصر؟

رفع الضابط عينيه.

— إلى أيّ باب فيه؟

تأخر سايرن لحظة.

— شخص عرفته قديمًا.

أعاد الرجل نظره إلى القائمة.

— اعرف أولًا إن كان ما يزال هناك. الرسائل تضيع حين نرسلها إلى الذكريات.

أومأ سايرن.

لم يسأله المضيف عن الاسم.

قبل أن يعودا إلى المخزن، وصل فارس يحمل أمرًا مختومًا. قرأه الضابط واقفًا، ثم أعاده إلى غلافه، وطلب إحضار سجل السلاح.

بعد قليل، انشغل الفناء برجال ينقلون رزم السهام ويفتحون باب مستودع بقي مغلقًا منذ وصول سايرن. صعد جنديان إلى الممر العلوي، وبدآ يفحصان الخشب عند مواضع الحراسة.

اقترب الضابط منه.

— هل تستطيع تأجيل السقف ساعة؟

نظر سايرن إلى الأدوات في يده.

— ماذا تحتاج؟

أشار الرجل إلى درج يصعد بمحاذاة الجدار.

— أريد فحص عوارض الممر الشرقي. قيل لي إنها تحتمل الرجال، ولا أحب كلمة «قيل» في أمر كهذا.

وضع سايرن المطرقة فوق الصندوق، وتبعه.

عند أعلى الدرج، انكشف الطريق تحت الحصن، ملتفًا بين الحقول قبل أن يضيق قرب التلال. وقف لحظة أطول مما يحتاجه رجل جاء ليفحص الخشب.

ثم انحنى، ووضع كفه على أول عارضة.

◆

كان نائل مستيقظًا حين نهض أوران.

جلس عند طرف السرير، وقد ربط حذاءه ووضع حقيبته قرب الباب. لم يسأله الشيخ عن سبب تبكيره. غسل وجهه، وجففه بطرف القماش، ثم فتش داخل ردائه ليتأكد من شيء لم يخرجه.

في الأسفل، كان الخباز يرتب الأرغفة فوق لوح طويل. اشترى أوران رغيفين، وأعطى نائل أحدهما.

أكله الفتى وهما يسيران.

بدا الطريق إلى السوق القديم أقصر في الصباح. لم تُفتح بعض الدكاكين بعد، وخرج الماء من تحت أبواب يغسل أصحابها العتبات. مرّا بعربة زجاج غطيت حمولتها بالقش، فانتظر أوران حتى تجاوزتهما قبل أن ينعطف إلى زقاق ضيق.

رأى نائل اللوح المعلق فوق الدكان.

نصف دائرة، وخط قصير تحتها.

كان الباب مفتوحًا مقدار كف.

دفعه أوران.

رفع صاحب الدكان رأسه فور دخولهما، كأنه ظل يصغي إلى الخطوات منذ وقت طويل. انتقلت عيناه من الشيخ إلى نائل، وتوقفتا عند وجهه لحظة أطول مما اعتاد الفتى من الغرباء.

مسح الرجل يديه في مئزره.

— أهذا هو؟

أومأ أوران.

نظر نائل من أحدهما إلى الآخر.

— يبدو أنكما تعرفان عني أكثر مما أعرف عنكما.

تحرك طرف فم الرجل، لكنه لم يبتسم تمامًا.

أغلق الباب وقلب اللوح، ثم أشار إليهما أن يتبعاه.

في الغرفة الداخلية، اضطر نائل إلى ضم مرفقيه كي لا يصدم ميزانًا يتدلى من الرف. رأى أدوات لا يعرف ما تقيسه، وعدسات موضوعة في علب مبطنة، وقطعًا معدنية صغيرة رُتبت بعناية لا تشبه الغبار الذي يغطي الخزائن.

توقف أمام الخزانة القصيرة.

كان اللوح المبطن قد أُخرج، والأمانة فوقه.

ترك نائل عصاه الخشبية إلى جانب الجدار.

جثا صاحب الدكان، وحلّ الرباط الأول. استغرق الثاني وقتًا أطول، فمدّ أوران يده ليثبت طرف القماش بينما يفك الرجل العقدة.

وقف نائل خلفهما.

كلما انكشفت طبقة، حاول أن يرى ما تحتها.

ظهر طرف معدني داكن.

ثم جزء أطول، مستقيم، خالٍ من الزخرفة إلا من خطوط دقيقة قرب موضع القبض.

أزاح الرجل بقية الغلاف.

كانت عصا.

نظر نائل إليها، ثم إلى أوران، وانتظر أن يُرفع شيء آخر من تحتها.

لم يحدث ذلك.

قال الشيخ:

— خذها.

انحنى نائل ومد يده.

كانت أبرد مما توقع، وثقلها موزعًا بطريقة جعلته يغير موضع أصابعه قبل أن يرفعها كاملة. استقام، وأبعد طرفها عن الرف بحذر.

بلغت قريبًا من طول عصاه الخشبية، لكنها أضيق عند موضع القبض. جرى إبهامه فوق خدوش قديمة، ثم توقف عند أثر صغير في المعدن، كما لو أن ضربة أصابته منذ زمن ولم تُصلح.



رفعها قليلًا.

لم يتغير شيء.

قال:

— ظننت...

انتظر أوران.

نظر نائل إلى الغلاف الكثير فوق الأرض.

— لا شيء.

هذه المرة ابتسم صاحب الدكان.

أدار نائل العصا بين كفيه، فاقترب طرفها من مصباح موضوع على الرف. أمسك أوران بها قبل أن تلامسه.

— في الخارج.

خفضها الفتى.

— لمن كانت؟

ترك الشيخ يده عنها.

— لرجل عرف استعمالها.

— وأنا؟

— ستتعلم.

تفحص نائل موضع القبض مرة أخرى.

— لماذا احتفظتم بها كل هذا الوقت؟

جمع صاحب الدكان الأربطة، وسوّى بعضها فوق بعض.

قال أوران:

— وُضعت هنا أمانة، وقد حفظها أهل هذا البيت.

رفع الفتى عينيه إلى الرجل.

لم يعد ينظر إلى العصا وحدها.

— شكرًا.

توقف صاحب الدكان عن طي القماش، ثم أومأ.

أراد نائل أن يسأل سؤالًا آخر، لكن أوران التقط الغلاف وناولَه إياه.

— لفّها قبل أن نخرج.

— هل أخفيها؟

— كي لا تخدش كل باب تمر منه.

لفّها، ولم ينجح في شد الرباط الأخير. أعاد الرجل عقده بيدين اعتادتا الأشياء الدقيقة، ثم تراجع.

عند الباب، تذكر نائل عصاه الخشبية.

عاد إليها وحملها أيضًا.

نظر أوران إلى العصوين.

— ستحتاج إلى يد ثالثة قريبًا.

— هذه أعرفها.

لم يطلب منه الشيخ أن يتركها.

خرج نائل إلى الشارع حاملًا الاثنتين، واستدار جانبًا ليمر بين العربة والجدار دون أن يصدم شيئًا.

أما صاحب الدكان، فعاد إلى الغرفة الداخلية بعد رحيلهما.

بقي الغبار مرسومًا حول الموضع الذي استقر فيه اللوح أعوامًا طويلة.

جثا، ومسح براحته الفراغ النظيف في وسطه، ثم أغلق الخزانة.

◆

ضغط سايرن على العارضة، ثم رفع كفه إلى موضع اتصالها بالجدار.

بقي الضابط واقفًا خلفه، ينتظر.

كان الخشب صلبًا عند الطرف الظاهر. أدخل سايرن رأس أداة قصيرة في شق قرب الحجر، فخرجت معها فتاتة داكنة. شمّها، ثم نظر إلى السطح الذي يعلوه.

تسرب الماء من أعلى الجدار، ووجد طريقه إلى الموضع الذي لا تصل إليه الشمس.

انتقل إلى العارضة التالية.

فعل الشيء نفسه.

قال الضابط:

— كم واحدة؟

— هذه، والتي بعدها تحتاج إلى كشف.

رفع الرجل عينيه إلى الممر.

— هل يحتمل الحرس حتى ننتهي؟

نظر سايرن إلى المسافة بين الدعامتين.

تخيل الرجال يقفون عند السور، ثم يتجمعون في موضع واحد حين يسمعون أمرًا أو يرون حركة تحت الحصن.

— امنع تجمعهم هنا. ومن يصعد يحمل ما يحتاج إليه فقط.

أشار إلى رزم حجارة صغيرة وُضعت قرب الحافة.

— وهذه تُنقل الآن.

نادى الضابط جنديًا، وأعطاه الأمر.

لم يقل له إن عامل المخزن طلب ذلك.

حين بقيا وحدهما، سأل:

— أين تعلمت فحص هذه الأشياء؟

مسح سايرن الأداة في ثوبه.

— رأيت ما يحدث حين لا يفحصها أحد.

نظر الرجل إليه قليلًا، ثم انحنى ليرى الشق.

— اسمي هارث.

رفع سايرن رأسه.

كان قد عمل في الحصن يومًا كاملًا دون أن يسأله أحد عن أكثر مما يستطيع إصلاحه.

قال:

— سارن.

خرج الاسم قريبًا من اسمه بما يكفي ليسهل عليه الالتفات إليه، وبعيدًا عنه بما يكفي ليبقى داخل الحياة التي اختبأ فيها.

مدّ هارث يده.

صافحه سايرن، ثم عادا إلى العمل.

أُحضرت دعامات من المستودع القديم. اختار سايرن اثنتين، ورفض ثالثة تشققت عند موضع العقدة. حاول أحد العمال إقناعه بأنها استُعملت من قبل، فوضعها جانبًا دون جدال، وطلب غيرها.

وقف هارث معهم حتى ثبتت الدعامة الأولى.

حين وصل إليه جندي بقائمة، قرأها فوق صندوق الأدوات. سأل عن أحذية خمسة رجال، وعن زيت لم يصل إلى برج الحراسة، ثم شطب بندًا وأعاده.

قال الجندي إن المخزن لا يملك القياس المطلوب.

— بدّلوا بينها أولًا. لا أريد رجلًا يراقب الطريق وهو يفكر في قدميه.

غادر الجندي.

بقيت العبارة في ذهن سايرن وهو يدق الوتد.

عند الظهر، أكل الرجال في ظل الجدار. جلس هارث معهم، وأخذ الوعاء نفسه الذي وُزع عليهم، ثم ترك نصف خبزه إلى جانب عامل لم يحضر طعامًا.

لم يفعل ذلك على نحو يستدعي الشكر.

كان يسأل النجار عن ابنه المريض، ويستمع إلى جواب طويل بينما يزيل حصاة صغيرة من عدسه.

جلس سايرن عند الطرف.

للمرة الأولى منذ دخوله الحصن، لم يعدّ المخارج قبل أن يبدأ الطعام.

بعد العمل، طلب هارث منه أن يرافقه إلى البيت. أحضر من الغرفة الأخرى قطعة قماش أنظف من ثيابه، ووضعها فوق ظهر المقعد.

— للغبار. ما تلبسه لن يحتمل غسلًا آخر.

نظر سايرن إلى كمّه، ثم أخذها.

لم يسأله هارث عن الجرح، مع أنه رآه يستند إلى الجدار مرتين أثناء النزول.

في الخارج، وصل رجل يقود بغلًا محملًا بلفائف صغيرة. استقبله هارث باسمه، وأخذ منه رزمة أوراق، ثم طلب منه الانتظار إلى الصباح لأن الجواب لم يجهز بعد.

سمع سايرن اسم تيرافا.

بعد أن غادر الرجل إلى الإسطبل، سأل:

— هل يحمل الرسائل إلى العاصمة؟

— يحمل ما أخشى أن يضيعه غيره.

تردد سايرن، ثم قال:

— أحتاج إلى إرسال ورقة.

نظر هارث إليه.

— إلى الشخص الذي في القصر؟

أومأ.

فكر الضابط قليلًا.

— أستطيع أن أطلب منه تسليمها إلى مكتب المراسلات. ما بعد ذلك يتوقف على الاسم الذي ستكتبه.

ظل سايرن واقفًا.

أضاف هارث:

— أحضرها مغلقة قبل الفجر.

لم يسأله عما فيها.

◆

وضعت ميرافا التقرير إلى جانب المصباح.

لم تكن فيه عبارة واحدة تدعو إلى الاطمئنان الكامل.

رجال قرهان أقل من جيش، وأكثر من حرس رجل أُبعد عن القيادة. مخازنه منتظمة، وخيوله صالحة للمسير، والحداد الذي يعمل له اشترى حديدًا خلال الشتاء أكثر مما تحتاجه أدوات الزراعة.

وفي أسفل الورقة، وردت أسماء ضباط زاروه أو أرسلوا إليه رسائل.

عرفت معظمها.

قالت:

— لم يتوقف.

وقف إيلدار أمام المائدة.

— لم يتحرك ضدك أيضًا.

رفعت التقرير.

— أهذا ما طلبت منك أن تعرفه؟

— طلبت معرفة ما بقي حوله. هذا ما بقي.

عادت إلى القراءة.

خارج الغرفة، مرّ خادمان يحملان صندوقًا من السجلات. سمعتهما يتوقفان عند العتبة ليستريحا، ثم يواصلان السير.

قالت:

— كان يستطيع أن يرسل الرجال منذ سقطت الحصون.

— وربما كان ينتظر أمرًا.

نظرت إليه.

لم يدافع إيلدار عن العبارة.

كانت رسائل قرهان القديمة محفوظة في درج لم تفتحه منذ أشهر. عرفت ما سيقوله قبل أن تراه: تركتم الجيش لمن يحسنون الكلام، ثم طلبتم منه أن يقاتل. خففتم عن القرى حتى فرغت المخازن. سمعتم الشكاوى، ولم تسمعوا التحذير.

وكان سيقول بعض ذلك أمام رجال يتمنون أن يكون محقًا، لأن صوته الواثق يريحهم من كثرة الأسئلة.

قلبت التقرير، فظهرت الجهة البيضاء.

— إن أعطيته الجيش قبل أن يعود، دخل العاصمة وقد أخذ ما يريد.

قال إيلدار:

— إذن يعود إليك أولًا.

وضعت الورقة.

بقيت تنظر إلى المصباح حتى انخفض اللهب، ثم مدّت يدها إلى الخاتم.

استدعت الكاتب.

حين دخل، انتظر عند طرف المائدة، والقلم فوق الورقة.

أملت عليه أمرًا باستدعاء قرهان إلى دمهار للمثول أمامها. يتقدم مع مرافقة محدودة، ويترك رجاله في مواضعهم حتى تصدر أوامر أخرى.

توقف الكاتب عند العبارة الأخيرة.

أعادت قولها ببطء.

قرأ الرسالة عليها، فطلبت حذف كلمة في أولها، وتغيير أخرى قرب النهاية. لم تسمه قائدًا، ولم تذكر الجيش.

بعد أن خرج الكاتب لإحضار الغلاف، قال إيلدار:

— سيقرأ ما لم تكتبيه أيضًا.

أغلقت الخاتم في كفها.

— أعرف.

عند الصباح، وقف الرسول في الفناء إلى جانب حصانه.

راقبته ميرافا من النافذة وهو يثبت الحقيبة خلف السرج. دخل إيلدار الغرفة، وأخبرها بأن الطريق اختير بعيدًا عن المواضع التي تكثر فيها دوريات رهفان.

لم تجب.

في الأسفل، فُتحت البوابة، وخرج الرسول.



تابعته حتى أخفته الأبنية.

ثم عادت إلى المائدة، وسحبت نحوها تقرير المؤن الذي تركته في الليلة السابقة.

◆

قرأ جروان جواب أردان واقفًا.

لم يصل إلى آخره قبل أن يعود إلى الفقرة الوسطى.

كان ماردين قرب النافذة، يراقب الكاتب الذي أحضر النسخة المفرغة من الغلاف. أشار إليه بالخروج، وانتظر حتى أُغلق الباب.

قال جروان:

— تحت إشراف موظفيه.

لم يسأله ماردين عما يقصد.

وضع الملك الرسالة فوق المائدة، ثم ضغط بإصبعه على السطر التالي.

— وهذا يبقى مغلقًا.

قال ماردين:

— يستطيع رجالنا الاطلاع على الفهارس أولًا. وما لا يفتحونه للوفد، قد نعرف من يدخله.

رفع جروان عينيه إليه.

— يعرفون ما طلبناه.

— ولهذا يضعون الشروط.

دار الملك حول المائدة.

كانت في الغرفة خزانة زجاجية تضم نسخًا من معاهدات قديمة. توقف قربها، لكنه لم ينظر إلى ما داخلها. انعكس وجهه في الزجاج، وبقيت رسالة أردان ظاهرة وراء كتفه.

قال:

— يعطوننا ما يختارونه، ثم ينتظرون أن نشكرهم على حسن الاستقبال.

لم يكن في الرسالة ما يبرر النبرة التي قال بها ذلك.

انتظر ماردين حتى عاد إلى مقعده.

— هل نؤخر الوفد؟

— لا. يذهب في موعده.

سحب جروان ورقة صغيرة، وكتب سطرين، ثم طواها قبل أن يجف الحبر تمامًا.

ناولها لماردين.

— أما هذه، فتخرج الليلة.

قرأ ماردين الاسم المكتوب على الغلاف.

فاريك.

رفع بصره.

استقر جروان في مقعده، ووضع جواب أردان إلى جانب يده.

— حان الوقت لإكمال النصف الآخر من المعاهدة مع رهفان. لقد أدّينا دورنا، والآن عليهم أن يؤدّوا دورهم.

لم يفتح ماردين الورقة.

سأل:

— عبر الطريق المعتاد؟

— لا.

انتظر الملك قليلًا، ثم أضاف:

— والرجل الذي يحملها يعود بالجواب نفسه. لا أريد أن أعرف من أفواه ثلاثة ما قاله فاريك لرجل واحد.

أدخل ماردين الرسالة في جيب ردائه.

عند الباب، استوقفه جروان.

— هل انتهت القوائم؟

التفت.

— بقيت أسماء قليلة.

— تنتهي قبل وصول جوابه.

خرج ماردين.

بقي الملك وحده مع رسالة إيفارا. قرأ عبارتها الأخيرة، التي تمنت استمرار الصلات الطيبة بين المملكتين، ثم طواها من موضع لم تكن مطوية عنده من قبل.

◆

وجد نائل رائف واقفًا فوق السقالة، وظهره للشارع.

نادى اسمه.

التفت الشاب، ثم نظر إلى ما يحمله.

— هل جئت لإصلاح السقف؟

رفع نائل العصا الملفوفة.

— هذه جديدة.

— وتحتاج إلى القديمة كي تمشي بها؟

نظر إلى يده الأخرى.

كان قد اعتاد وزن العصا الخشبية حتى نسي أنه يحملها.

أنزل رائف وعاءه بحبل، ثم هبط. أخذ من نائل العصا المعدنية بعدما أذن له، وفك طرف القماش مقدارًا صغيرًا.

مرر إبهامه على الخدش القريب من المقبض.

— لا تبدو جديدة.

— جديدة عندي.

رفعها رائف قليلًا، واختبر وزنها، ثم أعادها.

— من صنعها؟

— لا أعرف.

— ومن أعطاك إياها؟

— رجل لم يكن يعرف ما بداخل غلافها.

نظر رائف إليه، منتظرًا أن يضحك.

لم يفعل.

قال أخيرًا:

— أنت تختار أجوبتك بطريقة متعبة.

جلسا عند حافة الساحة، بعيدًا عن الغبار المتساقط.

كان رائف يحمل دفترًا صغيرًا، اهترأت أطراف أوراقه. فتحه ليبحث عن رسم، فرأى نائل بين صفحاته بوابة واسعة، ثم جسرًا ذا أقواس مرتفعة، وواجهة لا تشبه أبنية تيرافا.

مدّ عنقه.

— أين هذا؟

غطى رائف طرف الورقة براحة يده كي لا تقلبها الريح.

— لا أعرفه إلا من رسم عند صاحب الورشة.

— ظننتك رأيته.

هز رأسه.

قلب صفحات أخرى. بعضها يضم تفاصيل صغيرة: مفصل باب، طريقة رص حجر، حافة نافذة. وفي صفحات قليلة ظهرت أبنية كاملة، نسخها بأكثر مما يحتاجه عمله.

قال:

— أريد أن أعرف كيف تبدو من الداخل.

— اذهب إليها.

ابتسم رائف دون أن يرفع عينيه.

— بعد أن أدفع ما عليّ.

أشار إلى الأدوات قرب السقالة.

— بعضها ليس لي بعد. وصاحب الورشة دفع أجري حين توقفت يدي عن العمل. لا أتركه الآن مع كل هذا.

نظر نائل إلى الجدار.

— كم بقي؟

رفع رائف رأسه، وتأمل الواجهة الطويلة.

— كلما رفعت الجص، وجدت شيئًا آخر يحتاج إلى إصلاح.

أغلق الدفتر.

— وأنت، إلى أين تذهب بعد تيرافا؟

فتح نائل فمه، ثم توقف.

كان يستطيع أن يخبره عن مملكته التي لم يجد موضعها بعد، وعن الخرائط التي يريد أن يغيرها، لكنه لم يعرف من أين يبدأ أمام رجل يحسب أجرته بعدد الأيام التي تستطيع يده أن تعمل فيها.

قال:

— لم نقرر.

— أنت والشيخ؟

أومأ.

وقف رائف حين ناداه العامل، ثم طلب من نائل أن يمسك طرف خيط مغطى بمسحوق داكن. أراد تثبيت خط مستقيم على الجدار قبل متابعة العمل.

أمسكه الفتى.

شدّ رائف الطرف الآخر، وقارن موضعه بالرسم.

قال نائل:

— الحجر الذي تحته مائل.

نظر الشاب إلى الصف.

— أين؟

أشار نائل إلى كتلة بدت مثل غيرها تحت بقايا الجص.

قرب رائف وجهه، ثم حك الحافة بأداة صغيرة. انكشف فاصل ضيق، وظهر أن الحجر دُفع إلى الداخل من جهة واحدة.

أعاد وضع الخيط.

— لو ثبّتّه هكذا، لاختلف الصف كله.

رفع عينيه إلى نائل لحظة.

كان الفتى يحاول إبعاد المسحوق عن أصابعه، وقد ترك أثرًا داكنًا على أنفه حين حكه.

ناولَه رائف قطعة قماش.

— لا تلمس وجهك.

— تأخرت.

ابتسم، ثم عاد إلى الرسم.

حين حان وقت الرحيل، لفّ نائل العصا المعدنية بعناية أكبر، ووضع الخشبية تحت ذراعه.

سأله رائف:

— هل ستعود غدًا؟

نظر الفتى إلى الشارع المؤدي إلى النزل.

— إن لم يجد أوران بيتًا آخر يبحث عنه.

◆

لم يحتج سايرن إلى أكثر من ورقة صغيرة.

جلس عند الطاولة بعدما نام البيت، ووضع المصباح قريبًا من يده. سمع هارث يسعل في الغرفة الأخرى، ثم تحرك الخشب تحت فراشه وسكن.

بقي القلم بين أصابعه طويلًا.

كان يستطيع أن يكتب أنه حي، وأنه في إيفارا، وأن قاسران تحتاج إلى باب يُفتح قبل أن تغلق بقية الأبواب. لكن الكلمات، ما إن تستقر على الورق، لن تبقى له وحده.

كتب عبارة واحدة أولًا:

«ما زلت أظن أن شجرة الرمان كانت أقرب إلى السور مما قلتِ.»

توقف.

رأى موضعًا قديمًا تحت ضوء آخر، وسمع ضحكة انقطعت قبل أن يتمكن من تذكرها كاملة.

لم يسمح لنفسه بالبقاء هناك.

أضاف طلبًا قصيرًا بأن تسأل عن حامل الرسالة إن أرادت جوابًا، ثم طوى الورقة. لم يوقع اسمه.

كتب على الغلاف:

«إلى الأميرة سيراي. تُسلَّم إلى يدها.»

نظر إلى الاسم حتى جف الحبر.

قبل الفجر، خرج إلى الفناء.

كان الساعي يشد أحزمة الحمل، وهارث واقف قربه بكأس ساخنة بين يديه. أعطى سايرن الرسالة للضابط، الذي قرأ الاسم على ظاهرها فقط.

ارتفع حاجباه قليلًا.

لم يقل شيئًا.

ناولها للساعي منفصلة عن الرزمة الأخرى.

— هذه تُسلّم إلى مكتب القصر. اطلب إثبات وصولها، وأعده إليّ.

أومأ الرجل، ووضعها في جيب داخلي.

راقب سايرن يده حتى اختفت الورقة.

بعد خروج الساعي، مدّ هارث الكأس إليه.

— لم أشرب منها بعد.

أخذها سايرن.

كان الماء ساخنًا أكثر مما يحتمل، لكنه أبقى كفيه حولها.

◆

كانت سيراي تراجع أسماء العاملين في دار تابعة للقصر حين وصلت المراسلات.

جلست قرب نافذة مفتوحة، وأمامها سجل كبير لم يترك مكانًا كافيًا للصينية التي وضعتها الخادمة. نقلت الكأس إلى حافة أخرى، ثم أعادت سؤالها إلى المرأة الواقفة أمامها.

— هذا الاسم ورد مرتين.

انحنت المرأة فوق السجل.

قالت إن أحدهما الأب والآخر الابن، وإن الكاتب اختصر الاسم الثاني.

طلبت سيراي إضافة ما يميزهما قبل صرف المستحقات.

لم ترفع صوتها، لكنها انتظرت حتى كُتب التصحيح أمامها.

دخل موظف يحمل رزمة رسائل. وضعها عند طرف المائدة، وذكر أن واحدة منها وصلت منفصلة، مع طلب بتسليمها إلى يدها.

أشارت إلى تركها.

أكملت الحديث مع المرأة، وسألتها عن سقف الغرفة التي اشتكت منه في الأسبوع السابق. وحين سمعت أن الإصلاح لم يبدأ، كتبت ملاحظة قصيرة، وأعطتها إياها لتأخذها إلى المسؤول عن المباني.

خرجت المرأة.

فتحت سيراي الرسالة الأولى، ثم الثانية.

كانت الثالثة أصغر من أن تبدو مهمة.

قلبتها بين أصابعها.

لم تعرف الخط على الغلاف فورًا. كان أشد حذرًا مما تذكرت، كأن صاحبه كتب الاسم وهو يراقب يده.

فكّت الطية.

قرأت السطر الأول.

توقفت يدها فوق المائدة.

ظل صوت الماء يصل من الحديقة، وسمعت في الممر امرأة تسأل عن غرفة لا تعرف موضعها. تحرك الستار قرب كتفها، فمدت يدها إليه دون أن تنظر، ثم تركته.

أعادت القراءة.

شجرة الرمان.

كان ذلك قبل أن يصير لكل كلمة بينهما ثمن، وقبل أن يُقال لها إن بعض الزيارات لا ينبغي أن تتكرر.

رفعت الورقة إلى الضوء، ثم خفضتها.



قد يعرف العبارة رجل سمعها منه.

قد تكون كُتبت قبل موته.

قد يكون أحدهم وجد بين أشيائه ما لا ينبغي أن يصل إلى أحد.

وضعت الرسالة تحت السجل.

نادت الموظف قبل أن يبتعد.

عاد إلى العتبة.

سألته:

— من أحضر هذه؟

وصفت الغلاف، فذكر اسم الساعي والحامية التي جاء منها.

— هل رآه أحد منكم يسلمها إليه رجل آخر؟

تردد.

— وصلت مع مراسلات الضابط هارث، يا أميرتي.

أومأت، كأنها سألت عن موعد حمل قماش.

ثم قالت:

— أهو ما يزال في القصر؟

— ينتظر إثبات التسليم عند المكتب.

أغلقت السجل.

لم تضع الختم على الورقة التي كانت تراجعها.

— اطلب منه أن ينتظر.

انحنى الموظف، لكن صوتها أوقفه مرة أخرى.

— وأحضره من الممر الداخلي.

حين خرج، أزاحت السجل وأعادت إخراج الرسالة.

لم تبتسم.

مررت إصبعها فوق موضع الطية، ثم نظرت إلى الباب، تنتظر وقع الخطوات.

دخل الساعي وهو يحمل قبعته بين يديه.

توقف بعد العتبة، ونظر إلى السجل المفتوح فوق المائدة، ثم إلى سيراي. كان قد انتظر طويلًا في مكتب المراسلات، ولم يفهم لماذا انتهى به الأمر في غرفة الأميرة بدل أن يأخذ إثبات التسليم ويعود.

أشارت إلى المقعد.

جلس عند حافته.

وضعت الرسالة أمامها، وأبقت كفها فوق طرفها.

— من أعطاك هذه؟

— الضابط هارث، يا أميرتي.

— هل كتبها أمامك؟

هز رأسه.

— خرج بها رجل من البيت. أعطاها له، ثم سلّمني إياها.

لم تتحرك يدها.

— صفه.

رفع الساعي عينيه قليلًا، محاولًا أن يستعيد وجهًا لم يكن لديه سبب لحفظه.

— طويل. شعره داكن، ولحيته...

توقف، ثم مرر يده قرب فكه.

— ليست طويلة. كان يلبس ثياب العمال.

— كبير في السن؟

— لا. لكنه بدا متعبًا.

وصلها الجواب الأخير أوضح من البقية.

أزاحت الكأس عن حافة المائدة قبل أن تسأله:

— كيف عرفت؟

— حين خرج، وضع يده على الجدار. ظننته لم يستيقظ جيدًا. ثم رأيته يفعلها مرة أخرى عند الدرج.

نظرت إلى موضع الطية في الرسالة.

سألته إن كان الرجل يعمل في الحامية، فأخبرها بما سمعه من هارث عن إصلاح المخزن. لم يعرف من أين جاء، ولا منذ متى يقيم هناك. وحين سألته عن اسمه، قال إنه سمع الضابط يناديه سارن.

لم تصحح له.

نهضت واتجهت إلى النافذة.

في الحديقة، انحنى عامل فوق مجرى الماء، وأخرج منه أوراقًا تراكمت عند الحافة. تابعته لحظة، ثم عادت إلى المقعد.

— متى ترجع؟

— بعد الظهر، إن اكتملت الأوراق.

أومأت.

طلبت منه الانتظار عند المكتب، ثم استدعت الكاتب بعد خروجه. أمْلت ملاحظة قصيرة إلى هارث، تطلب تسليم غلاف داخلي إلى الرجل الذي أرسل الورقة، وإعادة جوابه مع أول ساعٍ موثوق.

لم تذكر اسمها في الملاحظة. استخدمت ختم المكتب الذي تُرسل منه مراسلات الدار.

وحين بقيت وحدها، أخذت ورقة أصغر.

كتبت سؤالًا، ثم قرأته بصوت لم يخرج من حلقها:

«وماذا تركتُ تحت الحجر الثالث؟»

لم تضف اسمًا.

أغلقت الورقة، وكتبت على غلافها: «إلى سارن».

بقي القلم فوق آخر حرف لحظة، ثم رفعته.

◆

دخل قرهان دمهار قبل الظهر.

لم يحمل رجاله رايات. تقدمه فارس واحد، وتبعه عدد قليل ممن سمحت بهم رسالة ميرافا. عند البوابة، طلب الحارس اسم القادم، ثم رفع رأسه قبل أن يكتمل الجواب.

استقام.

رآه قرهان، ولم يعلق.

من داخل غرفة الحراسة خرج رجل أكبر سنًا. توقف عند الدرجة، ووضع يده على صدره التحية التي اعتادها الجنود قبل سنوات، ثم أنزلها بعدما تذكر أن الرجل الذي أمامه لا يحمل أمر قيادة.

تابع قرهان عبوره.

تغيرت المدينة في غيابه.

رأى دكانًا أُغلق بالخشب، وصفًا طويلًا أمام مخزن حبوب، وعربة تنقل رجالًا مصابين جلس بعضهم فوق القش. عند مفترق الطريق المؤدي إلى القصر، مرّت امرأة تحمل درعًا على ظهرها، وقد ربطت داخله أدوات لا علاقة لها بالحرب.

أبطأ حصانه ليفسح لها.

ظلت تنظر إلى الأرض حتى تجاوزته.

لم يتحدث إلى رجاله.

في الفناء الداخلي، نزل وسلّم اللجام إلى السائس. انتظر حتى أُبلغ بوصوله، ثم صعد الدرج دون أن يسأل عن الغرفة.

كان يعرف الطريق.

وقفت ميرافا عند المائدة حين دخل.

إلى جانبها إيلدار، وخلفهما نافذة أُغلقت إحدى ضلفتيها لتمنع الريح من تقليب الأوراق.

توقف قرهان على بعد خطوات.

انحنى انحناءة قصيرة.

— مولاتي.

لم تقل له إنهما وحدهما.

أشارت إلى المقعد.

جلس، ووضع قفازيه فوق ركبتيه.

بقيت تنظر إليه لحظة. كانت في صدغيه شعيرات لم تتذكرها، وعلى يده أثر حرق صغير. أما الطريقة التي يراقب بها الغرفة، فقد بقيت كما هي؛ رأى الباب الثاني، والخريطة، والأوراق التي أخفتها بيدها قبل أن يسأل شيئًا.

قالت:

— قرأت التقارير؟

— ما وصلني منها.

— إذن تعرف لماذا استدعيتك.

نظر إلى إيلدار، ثم عاد إليها.

— أعرف أن الجيش يتلقى أكثر من أمر.

سحبت خريطة نحو وسط المائدة.

شرحت مواقع الوحدات التي بقيت، ومقدار ما استطاعوا جمعه من الرجال بعد الانسحاب. أصغى دون مقاطعة، لكنه مد يده مرتين ليزيح ثقلًا عن اسم حصن.

عندما انتهت، سأل عن المؤن.

أجاب إيلدار.

ثم سأل عن القادة.

ذكرت ميرافا ثلاثة أسماء. توقف عند الثاني.

— هذا يبقى مسؤولًا عن الإمداد.

— يقود رجالًا منذ أشهر.

— ولهذا أعرف أين ينبغي أن يبقى.

رفعت عينيها إليه.

أضاف:

— يستطيع أن يحصي ما يدخل المخزن. في الميدان ينتظر حتى يصير القرار بلا فائدة.

قالت:

— إن كُلّفت، ترفع إليّ أسماء من تريد تغييرهم.

نزع قفازًا من فوق الآخر وسوّاه.

— وإن رفضتِ؟

— تسمع السبب.

— والرجال ينتظرون بينما نتبادل الأسباب؟

وضع إيلدار يده فوق حافة الخريطة.

— يمكن تحديد ما يعود إلى القيادة وما يحتاج إلى المجلس.

نظر إليه قرهان.

— أريد أن أعرف من يصدر الأمر الأخير.

قالت ميرافا:

— أنا.

ساد الصمت.

في الخارج، تحركت عجلات عربة فوق حجارة الفناء. انتظر قرهان حتى ابتعد صوتها، ثم مال إلى الأمام.

— إذن حددي ما تريدينه مني.

لم تجبه فورًا.

قالت بعد قليل:

— جيشًا يستطيع الدفاع عما بقي، ثم استعادة ما خسرناه.

— أحتاج إلى الرجال والمخازن والطرق. وإلى ألّا تصل إلى وحداتي رسالة تلغي ما أمرت به.

— لن تأخذ ما تشاء من القرى.

رفع رأسه.

— لم أطلب ذلك بعد.

— أعرف كيف تجمع المؤن.

ثبتت عيناه عليها.

كان إيلدار ينظر إلى الخريطة، لكنه لم يعد يقرأها.



قال قرهان:

— القرى التي لا تمد الجيش ستطعم جيش رهفان.

— والقرى التي تأخذ بذورها الآن لن تطعم أحدًا في الشتاء.

لم يتحرك.

أكملت:

— يُشترى ما يمكن شراؤه، ويُحصى ما يؤخذ، وتُترك حاجتهم للزرع. والتجنيد له حدود.

نظر إلى الأوراق التي أمامها.

— تريدين استعادة نصف المملكة بما يتبقى بعد أن يرضى الجميع.

شدّت أصابعها على طرف المائدة.

— أريد أن يبقى فيها من يعودون إلى بيوتهم حين تنتهي الحرب.

مال إلى الخلف.

لم يعتذر، ولم يكرر العبارة.

بعد قليل، قال:

— أعطيني أعداد الرجال كما هي، وسجلات المؤن، وأسماء من يقودونهم. سأعود إليك بما يمكن فعله.

أشارت ميرافا إلى إيلدار.

— تُتاح لك السجلات هنا. وتسمع من القادة بحضوره. لا تصدر أمرًا إلى وحدة قبل أن نقرر.

نهض قرهان.

حمل قفازيه، وبقي لحظة عند المقعد.

— لم آتِ إلى دمهار لأقيم فيها.

قالت:

— ولم أستدعك لتنتظر طويلًا.

خرج.

لم تتحرك ميرافا حتى أُغلق الباب.

قال إيلدار:

— لم يرفض.

نظرت إلى الموضع الذي كان يجلس فيه.

— ولم يقبل بما سمعه.

◆

وصل رسول جروان إلى هاروك بعد غروب الشمس.

أُدخل من باب جانبي، وبقي حصانه في إسطبل منفصل عن خيل القصر. لم يرافقه كاتب، ولم يحمل صندوق هدايا.

كانت الرسالة صغيرة.

قرأها فاريك مرة واحدة، ثم دفعها نحو نيرفا.

أخذتها واقفة.

تحركت عيناها على السطرين، ثم عادت إلى أولهما.

— الآن؟

أدار الملك الخاتم حول إصبعه.

— هذا ما يطلبه.

— أعرف ما يطلبه.

وضعت الرسالة أمامه.

كانت قد وصلت من جولة طويلة في الأراضي التي استولت عليها رهفان. بقي الغبار عند أسفل ردائها، ولم تفك حزام سيفها.

أشارت إلى تقارير مفتوحة فوق المائدة.

— هذه الطرق لا نحرسها كلها بعد. الحصون التي أخذناها تحتاج إلى رجال، والرجال يحتاجون إلى مؤن لا تأتي في موعدها.

قال فاريك:

— لهذا لم نوقّع اتفاقًا للحرب الأولى وحدها.

اقتربت من المائدة.

— وما اتفقنا عليه لا يجعل التوقيت مناسبًا.

رفع عينيه.

لم تخفض صوتها، لكنها أبطأت كلامها.

— إيردان يطلب رجالًا لا أريد إعطاءه إياهم. القرى تخفي ما تستطيع إخفاءه، وبعض الجسور لا تعبرها عربة دون حراسة. إن فتحنا أمرًا آخر الآن، فمن يغطي ما نتركه خلفنا؟

وضع الملك راحته فوق الرسالة.

— جروان لم يتأخر حين احتجنا إليه.

— ولن ينسى ما يأخذه مقابل ذلك.

نظر إليها طويلًا.

ثم قال:

— لهذا ستشرفين أنتِ على تنفيذ ما يخصنا.

لم تبدُ راضية.

سألته عن السجلات والأسماء، فأخبرها بأنها ستصل منفصلة. طلبت أن تمر كل الأوامر عبر قادة رهفان، وألّا يتصرف أحد داخل حدودها بإذن مكتوب من غير فاريك.

وافق.

وأضاف:

— ولا يعرف إيردان شيئًا لا يحتاج إلى معرفته.

عندها جلست.

سحبت ورقة، وبدأت تسجل طلبات قصيرة. توقفت عند اسم مخزن، وشطبت الموضع الذي اقترحه الملك.

— هذا قريب من السوق.

كتبت اسمًا آخر.

لم يسألها فاريك عن السبب.

حين خرجت، استدعت ضابطين. أمرت بإفراغ مستودعات على طريق قلّ استعماله، ونقل ما فيها إلى الحصون القريبة. ثم طلبت إغلاق جزء من الطريق أمام العربات المدنية بحجة إصلاح جسر.

سأل أحدهما:

— إلى متى؟

نظرت إلى الورقة في يدها.

— حتى يصدر أمر جديد.

في الغرفة، طلب فاريك إدخال الرسول مرة أخرى.

أعطاه جوابًا مختومًا، وانتظر حتى أخفاه الرجل داخل ردائه.

— إلى يد جروان.

انحنى الرسول.

وقبل منتصف الليل، غادر هاروك من الباب الذي دخل منه.

◆

وجد نائل أوران في الفناء الصغير خلف النزل، واقفًا قرب حبل الغسيل.

كانت العصا المعدنية في يد الفتى منذ الصباح. لفّها وفكها أكثر من مرة، وجرب أن يرفعها من الموضع الذي اعتاد أن يمسك عنده عصاه الخشبية.

ضرب الهواء ضربة قصيرة.

انخفض طرفها أكثر مما أراد.

لامست الأرض، فاهتزت كفه.

قال أوران:

— أنت توقفها متأخرًا.

أعاد نائل المحاولة.

تحركت قدماه كما تعلم في الجزيرة، لكن ذراعه أكملت المسافة بعد أن انتهت الوقفة.

أمسك الشيخ طرف العصا.

— لا تطلب من يدك أن تتذكر وزنًا لم تعرفه.

تركه، وأشار إلى فسحة ضيقة بين الحائط وسلة فارغة.

طلب منه أن يحرك العصا داخلها دون أن يمس شيئًا.

في المحاولة الثالثة، اصطدمت بالسلة.

خرج صاحب النزل إلى الباب.

نظر إلى الحبل، ثم إلى الشيخ.

قال أوران:

— لم نصل إلى الغسيل بعد.

لم يضحك الرجل.

انتظرا حتى عاد إلى الداخل، ثم خفض نائل صوته.

— هل كانت عصاك الأولى بهذا الثقل؟

نظر الشيخ إلى ما في يده.

— كانت أطول مما يناسبني.

— وماذا فعلت؟

— قصرتها.

رفع نائل العصا المعدنية.

— حل مفيد.

ترك أوران طرف فمه يتحرك، ثم أشار إليه أن يعيد الحركة.

بعد ساعة، استطاع نائل المرور بالعصا بين الحائط والسلة مرات متتالية.

كانت أصابعه تؤلمه قليلًا حين غادر إلى ورشة رائف.

◆

لم يكن رائف فوق السقالة.

وجده نائل في الساحة الخلفية، يساعد العمال على نقل كتلة حجرية أُنزلت من إحدى النوافذ. امتد حبل سميك من حولها إلى بكرة معلقة في عارضة، ووقف رجلان يشدان طرفه، بينما حاول ثالث إبعاد الحجر عن قوائم السقالة.

وضع نائل حقيبته قرب الباب.

رفع رائف رأسه إليه، ثم أشار أن ينتظر.

كانت الكتلة أثقل مما بدا من الشارع.

تحركت مقدار كف، ثم توقفت عند لوح بارز.

قال الرجل الذي يشرف على العمل إن عليهم رفعها قليلًا.

شدّ العاملان.

سمع نائل صوتًا خفيفًا فوقهما.

رفع رأسه.

لم يعرف في البداية ما الذي رآه يتغير. كان الحبل في مكانه، والبكرة تدور ببطء، لكن العارضة التي تحملها انفصلت عن ظلها عند أحد الطرفين.

سمع الصوت مرة أخرى.

— توقفوا.

خرجت الكلمة أعلى مما قصد.

التفت أحد العاملين إليه، بينما واصل الآخر الشد لحظة إضافية.

مالت العارضة.

انزلقت الكتلة نحو السقالة، واصطدمت بالقائم القريب. اهتز اللوح الذي يقف عليه عامل فوقهم، فاختفى نصف جسده خلف الحافة.

سقط إزميل.

ارتطم بالحجر عند قدم رائف.

أمسك الرجل المعلق بطرف السقالة، وبقيت ساقه محصورة بين لوحين تحرك أحدهما فوق الآخر.

اندفع نائل نحو الحجر.

وضع العصا تحت طرفه، وضغط.

تحركت الكتلة قليلًا، ثم دارت باتجاه لم يتوقعه.

انزلق طرف العصا.

ارتدّ إلى الخلف وكاد يصيب رائف، الذي أمسك بكتفه وجذبه بعيدًا.

— انتظر!

في الأعلى، صاح الرجل.

كان أحد العمال قد أفلت الحبل، فأمسكه صاحب الورشة بيديه وأمر الآخرين بتثبيته حول عمود الساحة.

رأى نائل موضع القدم العالقة.

لم يعد ينظر إلى الحجر كله.

أشار إلى فجوة صغيرة تحته.

— نحتاج إلى شيء يبقيه هنا.

جرّ رائف إسفينًا خشبيًا من قرب الحائط، ووضعه في متناول يده.

هذه المرة، أدخل نائل العصا ببطء. غيّر موضع قدميه، وانتظر حتى شدّ الرجال الحبل وأوقفوا ميل الكتلة.

ضغط.

ارتفع الطرف مقدارًا ضئيلًا.

دفع رائف الإسفين، ثم ضربه بمطرقة حتى ثبت.

لم يرفع نائل يديه عن العصا.

في الأعلى، صعد عامل من الجهة الأخرى وأمسك بزميله تحت ذراعيه. حركا اللوح قليلًا، وخرجت القدم.

أنزلوه جالسًا.

ظل ينظر إلى حذائه، كأنه لم يصدق أنه ما يزال فيه.



عندما استقر الحجر، قال رائف لنائل أن يترك العصا.

لم يستطع فتح أصابعه فورًا.

رفع يده الأخرى وفكّها واحدة بعد أخرى.

كان في راحته أثر أحمر طويل، وعلى كمّه غبار أبيض.

جلس العامل المصاب قرب الباب. انحنى صاحب الورشة أمامه، وفحص كاحله، ثم أرسل صبيًا ليأتي بمن يضمده.

بعد ذلك، عاد إلى السقالة.

نظر إلى العارضة، وإلى الموضع الذي ابتعد فيه الحديد عن الخشب.

لم يقل شيئًا زمنًا.

وقف نائل قرب رائف، وما يزال يتنفس بسرعة.

قال:

— كنت سأبعد الحجر.

نظر رائف إلى الأثر الذي تركته الكتلة في الأرض.

— وكان سيدور فوق قدمك.

خفض نائل عينيه.

لم يحاول الدفاع عن الحركة.

ناولَه رائف ماءً، ثم أخذ العصا وفحص طرفها. التصق بها مسحوق الحجر، وظهر خدش جديد قرب نهايتها.

مسحه بإبهامه، وأعادها.

— احتاجت إلى يوم واحد كي تصير أقدم.

ابتسم نائل، لكن ابتسامته لم تثبت.

اقترب صاحب الورشة.

كان رجلًا عريض الكفين، يغطي الغبار حاجبيه. سأله إن كانت يده تؤلمه، ثم نظر إلى العصا.

— من علمك استعمالها؟

— ما زلت أتعلم.

أومأ الرجل نحو موضع الكتلة.

— تعلّم أن تنتظر من يشد معك.

قالها دون قسوة.

ثم طلب من رائف أن يترك العمل في الأعلى بقية اليوم، وأن يساعده في فحص بقية التثبيتات.

بقي نائل.

حمل الأخشاب الصغيرة، وجمع الأدوات التي سقطت، وأعاد وعاء الإزميل إلى مكان آمن.

حين عاد إلى النزل، رأى أوران أثر الراحة قبل أن يسمع القصة.

تركه يرويها حتى النهاية.

ثم أخذ العصا، ووضعها قرب الباب.

— غدًا نبدأ باليد الأخرى.

نظر نائل إلى كفه.

— ظننتك ستقول إنني تصرفت بحماقة.

رفع الشيخ وعاء الماء نحوه.

— أيّ جزء تريدني أن أعيده؟

◆

عاد الساعي إلى الحصن في مساء بارد.

توقف عند بيت هارث، وطلب ماءً لبغله قبل أن يفك الرزمة. كان سايرن في الفناء يصلح مقبض أداة، فرفع رأسه حين سمع صوته، ثم أعاده سريعًا إلى ما في يده.

خرج هارث.

أخذ المراسلات، وتحدث إلى الرجل عن الطريق وحمولة تأخرت عند المعبر. دخل بعد ذلك إلى البيت، وبقي سايرن ينتظر دون أن يعرف ماذا يفعل بالمقبض الذي انتهى منه.

ناداه الضابط.

دخل.

كانت الرزمة مفتوحة فوق المائدة، وإلى جانبها غلاف صغير.

رفعه هارث بين إصبعين.

— لك.

أخذه سايرن.

لم يظهر على الغلاف سوى الاسم الذي أعطاه.

قال هارث:

— يريدون جوابك مع أول ساعٍ موثوق. هذا يعود بعد يومين.

أومأ سايرن.

انتظر الرجل لحظة، ثم دفع نحوه الأداة التي تركها في الصباح.

— إذا وجدت وقتًا، جرّب هذا أيضًا. المقبض يتحرك.

أخذها بيده الأخرى.

خرج إلى غرفته، وأغلق الباب دون أن يسنده إلى نهايته.

وضع الأداة فوق الطاولة.

فتح الرسالة.

قرأ السؤال مرة واحدة، ثم جلس.

كان الحجر الثالث أصغر من الحجرين اللذين يسبقانه. احتاجا يومها إلى جهد لرفعه، وتظاهرت سيراي بالغضب لأنه ضحك حين انكسرت إحدى أظافرها.

قالت إن الأساور تضيق على المعصم كلما اقتربت من القصر.

نزعت خيطًا بسيطًا كانت ترتديه في رحلة قصيرة، وربطت فيه خرزة خزفية زرقاء، ثم وضعته تحت الحجر. أخبرته أنها ستعود لأخذه في المرة التالية.

لم تكن هناك مرة تالية.

رفع سايرن الرسالة إلى المصباح.

لم تطلب منه أن يقول اسمه.

وضعت أمامه شيئًا لا يستطيع رجل يحمل خبر موته أن يجيبه عنه.

أخرج الورقة التي بقيت عنده، وكتب:

«خيط أزرق فيه خرزة خزفية مشقوقة. قلتِ إن الشق يجعلها تشبه النهر من بعيد.»

توقف، ثم أضاف:

«لم تبقَ تحت الحجر. عدتُ في اليوم التالي، قبل المطر.»

بقي القلم في يده.

كان يريد أن يكتب أنه لم يختر الغياب كله، وأن السنوات التي مرت لم تمحُ ما ظنت أنه نسيه. لكنه رأى كم ستحتاج تلك الكلمات إلى ما يسبقها، وكم ستبدو ضعيفة على ورقة تصل متأخرة أعوامًا.

كتب سطرًا أخيرًا:

«لا أستطيع أن أعود باسمي بعد.»

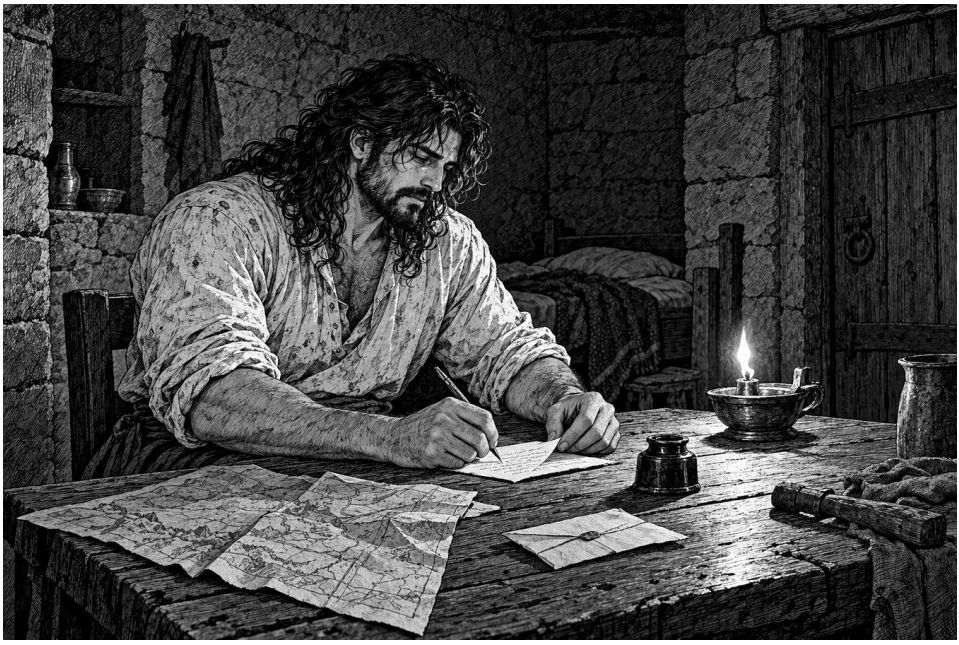

طوى الجواب.

بعد ذلك فقط، فتح قبضته ونظر إلى الأثر الذي تركه القلم في إصبعه.

في الخارج، كان هارث يسأل الساعي إن كان أكل.

نهض سايرن وأعاد إصلاح المقبض قبل أن يبرد الطعام.

◆

وصل وفد زافرين إلى تيرافا في صباح صافٍ.

لم تكن العربات كثيرة، لكنها دخلت متقاربة، وتوقفت عند البوابة حتى أنهى الحراس مراجعة الأسماء. حمل بعض رجال الوفد صناديق للأوراق وأدوات نسخ، وحمل آخرون ما يكفي من الأمتعة لإقامة أطول من الزيارة التي كُتبت في الرسالة.

استقبلهم موظف من القصر.

قادهم إلى الدار المخصصة لإقامتهم، وأخبرهم بموعد استقبال الملك وبالسجلات التي أُعدت لمعاينتهم.

كان بين القادمين ناسخ مسن نزل من العربة ببطء، ثم عاد ليتأكد من أن صندوق أحباره لم يوضع قرب الشمس. سأل عن رطوبة الغرفة قبل أن يسأل عن الطعام.

أما الرجل الذي يرأس الوفد، فاكتفى بالنظر إلى قائمة المواعيد.

في اليوم التالي، دخلوا الأرشيف.

وقف مهراز عند آخر الدرجات.

رحب بهم، وأرشدهم إلى قاعة أُخرجت إليها السجلات المطلوبة. جلس الناسخ المسن فورًا، ووضع عدسته فوق الصفحة الأولى، بينما بدأ رجل آخر يقارن أسماء الطرق بين سجلين.

تحرك العمل بهدوء.

أُحضرت المياه، وتبدلت المصابيح في الجهة التي لا يصلها الضوء. سأل أحد المختصين عن اختلاف رسم اسم قديم، فذهب موظف ليأتي بنسخة أقدم.

بقي رئيس الوفد واقفًا.

نظر إلى الباب الداخلي الذي يمر منه العمال، ثم اقترب من مهراز.

— سنبدأ بالقاعة الأخرى بعد الظهر؟

رفع مهراز رأسه عن الورقة.

— أيّ قاعة؟

— موضع الترميم.

أعاد مهراز القلم إلى حامله.

— أوضح جواب الملك أن المعاينة هناك لم تنتهِ.

ابتسم الرجل ابتسامة صغيرة.

— ويمكن أن يساعد مختصونا في إتمامها.

— لم نطلب مساعدة في الترميم.

تحرك الناسخ المسن في مقعده، لكنه لم يرفع رأسه.

قال رئيس الوفد:

— نحن هنا من أجل السجلات التي قد تتصل بتاريخ المملكتين.

أشار مهراز إلى الصناديق المفتوحة.

— وهذه السجلات أُعدت لكم.

نظر الرجل إلى الباب مرة أخرى.

خرج منه عامل يحمل قماشًا ملفوفًا حول أدوات. أغلقه خلفه، ومضى إلى الدرج.

سأل رئيس الوفد:

— ومن يقرر ما يتصل بتاريخنا؟

لم يتغير صوت مهراز.

— في هذا المبنى، تُتاح الوثائق وفق الإذن الذي جاء بكم.

توقف الحديث عند ذلك.

عاد الرجل إلى المائدة، وجلس دون أن يفتح سجلًا.

استمر الناسخ المسن في عمله. بعد قليل، طلب من الموظف أن يبعد مصباحًا لأن حرارته تجفف حبر النسخة التي يعدها.

عند المساء، غادر الوفد.

أعاد مهراز الأوراق إلى مواضعها، ثم مرّ بالباب الداخلي وفحص قفله بيده.

في دار الضيافة، جلس رئيس الوفد إلى طاولة صغيرة.

كتب عن الاستقبال، وعن السجلات التي أُتيحت لهم، ثم خصص الجزء الأطول لما مُنعوا من رؤيته. اختار عبارة تفيد بأن رجال إيفارا أصروا على حجب موضع قد يحتوي على شواهد تمس حقوق زافرين.

قرأها مرتين.

لم يذكر أن الإغلاق ورد في جواب أردان قبل سفرهم.

أغلق التقرير، وسلّمه إلى رجل لم يشارك في النسخ طوال النهار.

— يخرج مع أول قافلة.

أخذ الرجل الغلاف، وأخفاه بين أوراق أخرى.

◆

وصل جواب سايرن إلى سيراي بعد أيام من إرسال سؤالها.

كانت واقفة هذه المرة.

دخل الموظف ووضع الرسالة فوق المائدة، ثم أخبرها أن بعض السجلات التي طلبتها ستتأخر حتى المساء.

سمعت الجملة، وأومأت.

انتظرت خروجه.

لم تفتح الرسالة عند النافذة. حملتها إلى المقعد القريب من الجدار، وجلست، ثم فكّت الغلاف من موضع الختم كي لا تمزق ما في داخله.

قرأت وصف الخرزة.

أغلقت عينيها.

حين فتحتهما، تابعت إلى السطر التالي.

«عدتُ في اليوم التالي، قبل المطر.»

وضعت يدها على فمها.

كانت قد عادت إلى ذلك الموضع بعد زمن، ورفعت الحجر فلم تجد شيئًا. ظنت أن الماء أخذه، أو أن عاملًا أصلح الحافة وألقى الخيط مع التراب.

لم يخبرها أحد أنه عاد.

قرأت السطر الأخير.

هذه المرة لم تبحث عن احتمال آخر.

خفضت الورقة إلى حجرها، وبقيت تنظر إلى الباب المغلق.

في الممر، اقتربت خطوات، ثم ابتعدت.

انتظرت حتى هدأ تنفسها قبل أن تنهض.

وعند بوابة تيرافا، كانت قافلة صغيرة تستعد للخروج. شدّ رجل رباط صندوقه، وصعد إلى العربة، ثم تحسس الغلاف الذي يحمله إلى جروان.

فُتح الطريق أمامهم.

داخل القصر، أعادت سيراي قراءة الكلمات الثلاث الأولى.

أما التقرير، فغادر المدينة قبل الظهر.

انتظرت سيراي حتى خلا الممر.

كان الموظفون قد حملوا السجلات التي راجعتها، وأُغلقت النافذة القريبة من الحديقة بعدما اشتدت الريح. بقيت رسالة سايرن فوق المائدة، مطوية عند السطر الأخير.

«لا أستطيع أن أعود باسمي بعد.»

لم تطلب منه ذلك.

لم تكن تريد اسمه مكتوبًا في ورقة يمكن أن تمر بين أيدٍ كثيرة، ولم تكن تحتاج إليه كي تعرف من كتب إليها. لكنها لم تستطع أن تكتفي باليقين الذي منحته الكلمات.

كان حيًّا.

في إيفارا.

وبينهما طريق يمكن قطعه.

سحبت ورقة، ثم أعادتها إلى موضعها. فكرت في استدعائه إلى القصر، لكنها رأت في ذهنها سجل الداخلين عند البوابة، والحراس الذين يسألون عن كل عامل لا يحمل أمرًا، والخدم الذين يحفظون الوجوه أسرع مما يحفظون الأسماء.

لن يدخل رجل يُدعى سارن إلى جناح الأميرة دون أن يترك أثرًا.

نهضت واتجهت إلى خزانة صغيرة قرب الجدار. أخرجت منها سجلًا يضم أملاكًا تتبع الدار الملكية، وفتحته عند دار قديمة تقع خارج تيرافا، وراء بساتين الرمان والطريق المؤدي إلى التلال الغربية.

كانت الدار تُستخدم لاستقبال ضيوف لا تستدعي إقامتهم فتح جناح في القصر. لم يسكنها أحد منذ الشتاء، لكن حديقتها تحتاج إلى فحص، وسورها الجنوبي أُدرج مرتين ضمن أعمال الترميم المؤجلة.

وجدت السبب الذي تحتاج إليه.

استدعت مشرفة الدار.

دخلت امرأة في الخمسين، تحمل مجموعة مفاتيح تتدلى من حزامها. وقفت أمام المائدة، وانتظرت أن تُسأل عن السجلات أو العاملات.

قالت سيراي:

— سأزور دار السرو بعد ثلاثة أيام.

رفعت المرأة عينيها.

— هل نستعد لإقامة، يا أميرتي؟

— زيارة نهارية. أريد فحص السور والحديقة قبل أن تُرسل قائمة الإصلاحات الجديدة.

بدأت المشرفة تعد ما يلزم بصوت منخفض: عربتان، حرس، خادمة، وطاهٍ يسبقهم في الصباح.

قاطعتها سيراي:

— عربة واحدة. وعدد قليل من الحرس.

توقفت المرأة.

— الطريق آمن، لكن…

— لهذا لا أحتاج إلى موكب.

لم تجادلها.

طلبت الإذن بالانصراف، ثم غادرت وهي تعيد ترتيب المفاتيح عند حزامها.

بقيت سيراي واقفة حتى ابتعد وقع خطواتها. بعد ذلك كتبت إلى هارث.

لم تذكر دار السرو في الغلاف الخارجي. طلبت منه أن يرسل سارن إلى تيرافا بحجة معاينة إصلاحات في ملك تابع للقصر، وأن يعطيه الرسالة الداخلية وحده.

أما الرسالة الداخلية فكانت أقصر:

«دار السرو، بعد ثلاثة أيام. ادخل من بوابة الحديقة الجنوبية عند انتصاف النهار. إن لم تستطع المجيء، أعد الورقة فارغة.»

لم تكتب أنها ستكون هناك.

لم يكن يحتاج إلى ذلك.

أغلقت الغلاف بختم مكتب الدار نفسه، ثم أبقته بين يديها لحظة.

كانت غاضبة منه.

لم تعرف بعد أي جزء من غضبها يخص السنوات التي مضت، وأي جزء يخص الأيام التي عاشها قريبًا منها وهو يتركها تؤمن بموته.

لكنها عرفت أنها لا تريد أن تسأله عبر ساعٍ آخر.

وضعت الرسالة مع المراسلات الخارجة.

وقبل أن تنادي الموظف، أخرجتها مرة ثانية، وأعادت قراءة الموعد.

ثم أغلقتها.

◆

بدأ قرهان بالسجلات.

قضى يومه الأول في غرفة جانبية من القصر، وإيلدار يجلس قبالته، بينما يدخل الكتبة ويخرجون حاملين قوائم الوحدات والمخازن والخيول. لم يرفع قرهان صوته، ولم يطلب قيادة رجل واحد.

كان يسأل فقط.

كم بقي من جنود الكتيبة الثالثة؟

كم منهم يستطيع المسير؟

كم عربة خرجت من دمهار خلال الأسبوع؟

ولماذا وصلت إلى الحصن الشرقي سبع عربات من أصل إحدى عشرة؟

في البداية أجابه الكتبة بالأرقام المكتوبة.

ثم بدأ يسألهم عمّا رأوه.

تغيرت الأجوبة.

أحدهم قال إن أربعين رجلًا نُقلوا إلى دار العلاج، لكن أسماءهم ما تزال ضمن القوة القادرة على القتال. وآخر اعترف بأن سبع عشرة دابة نُفقت، ولم تُحذف من سجل النقل لأن المسؤول ينتظر شراء بدائل.

عندما انتهى النهار، وضع قرهان ورقة صغيرة إلى جانب السجل الكبير.

قال إيلدار:

— ماذا كتبت؟

دفعها نحوه.

احتوت على عدد الجنود الذين يستطيعون حمل السلاح فعلًا، وعدد الخيول التي يمكن إخراجها من الإسطبل، ومقدار الحبوب الذي يصل إلى الوحدات بعد ما يضيع في الطريق.

كان الرقم الأخير أقل مما في سجل القصر بثلثه.

قرأ إيلدار الورقة.

— بعض هذه الأعداد تقديرية.

— والسجلات الرسمية خيال مكتوب بحبر جيد.

أغلق قرهان الدفتر.

— أريد رؤية الرجال.

في الصباح التالي خرجا إلى الساحة الواقعة خلف السور الداخلي. لم يرافقهما حرس خاص. ارتدى قرهان معطفًا داكنًا فوق درعه، ومشى إلى جانب إيلدار كأنه ضابط جاء لتفقد مخزن.

لكن الرجال عرفوه.

انتقل اسمه بين الصفوف قبل أن يبلغ منتصف الساحة. استقامت الظهور، وتوقفت الأحاديث، وخرج ضباط من المباني وهم يشدون أحزمتهم أثناء السير.

لم يطلب منهم الاصطفاف.

مرّ بين الجنود كما وجدهم.

رأى رجلًا يلف قطعة قماش حول نعل انشق، وآخر يحمل رمحًا أقصر من بقية الرماح لأن طرفه كُسر وأعيد تثبيته. عند الجدار، كان ثلاثة جنود يتقاسمون درعًا واحدًا أثناء التدريب؛ يستخدمه الأول، ثم يسلمه إلى الثاني حين يأتي دوره.

سأل قائد الوحدة عن عدد الدروع.

ذكر الرجل رقمًا.

أشار قرهان إلى الجنود.

— قلت إن لديك مئة وستة.

— في المخزن، سيدي.

— افتحه.

تردد القائد لحظة، ثم نادى المسؤول.

كان باب المخزن يحتاج إلى رجلين لرفعه بعدما انخفض مفصله. في الداخل، رُصت الدروع على الحائط، لكن قرهان لم يحتج إلى عدها كلها. أخرج أول درع، وضرب حافته بعقب سكينه.

انفصل الجلد عن الخشب.

أخرج الثاني.

وجد فيه شقًا طُلي فوقه.

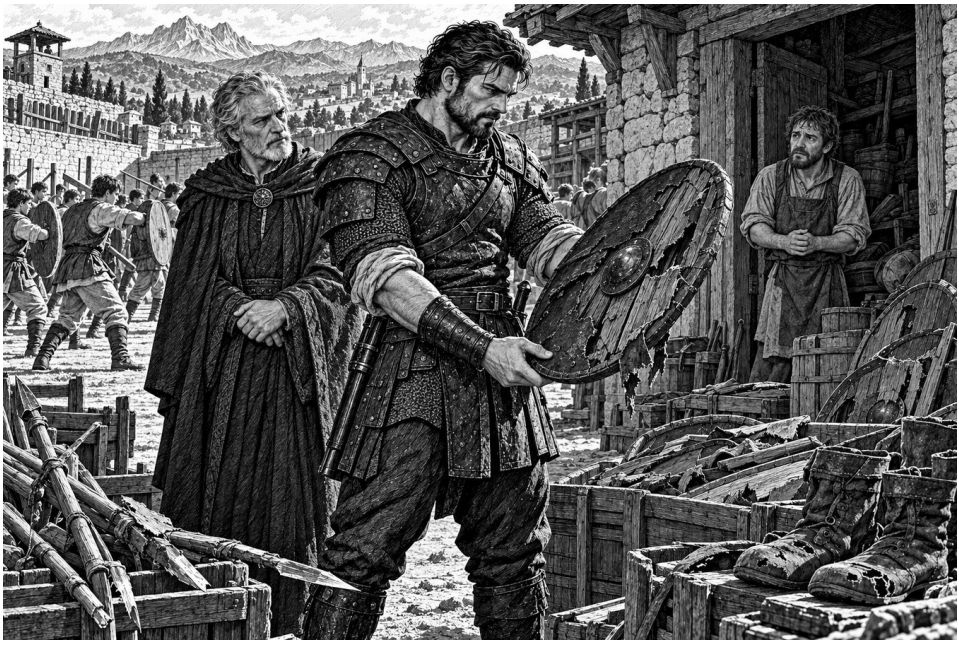

قال مسؤول المخزن:

— تصلح للتدريب.

نظر إليه قرهان.

— وكتبتها صالحة للقتال.

فتح الرجل فمه.

— كنا ننتظر الجلد الجديد.

— منذ متى؟

لم يجب.

وجد إيلدار التاريخ في سجل معلّق قرب الباب.

— منذ سبعة أسابيع.

أعاد قرهان الدرع إلى موضعه.

قال لقائد الوحدة:

— كم رجلًا أرسلت ليحرس الطريق الجنوبي؟

— ثمانية عشر.

— أعد ستة منهم قبل الغروب. وخذ من العاملين هنا من يستطيع إصلاح الخشب. هذه الدروع تنتهي اليوم.

وقف القائد مستقيمًا.

— لم يصلنا أمر من الملكة بتغيير الحراسة.

لم يتغير وجه قرهان.

— أرسلت ثمانية عشر رجلًا لحراسة طريق لا تمر منه المؤن منذ عشرة أيام، وتركت جنودك يتدربون بدرع يتناوب عليه ثلاثة.

قال إيلدار:

— لا تستطيع إصدار الأمر بعد.

التفت إليه قرهان.

كان الرجال قريبين بما يكفي ليسمعوا.

لم يخفض إيلدار عينيه.

بقي الصمت بينهما لحظة، ثم عاد قرهان إلى قائد الوحدة.

— أرسل إلى القصر طلبًا بإعادة الستة، واكتب أنني أوصيت بذلك. إلى أن يأتي الجواب، اجعلهم يفحصون العربات عند الطريق بدل الوقوف فوق التلة.

فهم الرجل الفرق.

انحنى وغادر.

أما مسؤول المخزن، فبقي عند الباب.

سأله قرهان عن اسمه، ثم عن الرجل الذي سبقه في الوظيفة. كانت أجوبته تتعثر كلما اقترب السؤال من الدروع.

قال قرهان:

— يُعزل اليوم، ويُربط عند باب المخزن حتى يرى كل جندي ما فعله.

تقدم إيلدار نصف خطوة.

— يُعزل ويُحقق معه.

نظر قرهان إليه.

— كتب أن الخشب المتشقق صالح كي يحمله رجل في الحرب.

— ولهذا سيُحاسب. أما العقوبة فتقررها الملكة.

شدّ الرجل يديه أمامه.

كانت عيناه تنتقلان بينهما.

قال قرهان:

— اخرج.

خرج مسرعًا.

انتظر قرهان حتى ابتعد.

— إن عاد إلى عمله قبل انتهاء التحقيق، سأربطه بنفسي.

— لن يعود إن ثبت ما رأيناه.

— لقد رأيناه.

— ورآه الجنود أيضًا. لا تحتاج إلى مشهد آخر كي يفهموا.

نظر قرهان إلى الساحة.

كان الجنود قد عادوا إلى الحركة، لكنهم يراقبونه من أطراف أعينهم.

قال:

— أحيانًا يحتاج الجيش إلى أن يرى العقوبة.

أجابه إيلدار:

— وأحيانًا يحتاج إلى أن يعرف أن قائده لا يعاقب رجلًا قبل أن يعرف من سرق الجلد الذي كان ينتظره.

عاد قرهان ينظر إلى المخزن.

لم يوافقه.

لكنه لم يأمر بإحضار الرجل.

في آخر الساحة وجدوا عربة محملة بالأكياس. كان أحد محوريها يميل إلى الخارج، وقد ثُبت بحبل غليظ. سأل قرهان السائق عن الطريق الذي جاءت منه.

أشار الرجل إلى البوابة الشمالية.

— كان ينبغي أن تصل من الشرق.

— الجسر لا يحتملها، سيدي.

اقترب قرهان من العجلة.

ركع، ومسح الطين عن خشبها. بقيت طبقة فاتحة في الجهة الداخلية، بينما جفّت الجهة الأخرى.

رفع رأسه.

— لم تعبر طريق الشمال.

ارتبك السائق.

وضع قرهان إصبعه فوق حافة العجلة.

— هذا طين الوادي الغربي.

حاول الرجل الكلام، لكن قرهان نهض.

أمر بفتح الأكياس.

كان القمح في أعلاها جافًا. أما ما قرب القاع فاختلط بالتراب والحجارة الصغيرة حتى زاد وزن الحمل.

وصل قائد الإمداد بعد قليل، وقد سبقته أنفاسه.

استمع قرهان إلى تفسيره، ثم طلب سجل الطريق. لم يجده الرجل معه.

قال إن النسخة في مكتبه.

— تذهب إليها الآن، وتغلق الباب خلفك، ولا تخرج حتى يأتي إيلدار.

نظر الرجل إلى المستشار.

لم يعترض هذه المرة.

بعد خروجه، مشى قرهان بمحاذاة صف العربات.

توقف عند الثالثة، ثم الرابعة.

قال:

— لا ينقصنا القمح وحده. ينقصنا الطريق الذي لا يُسرق فيه قبل أن يصل.

أخرج ورقة من داخل معطفه، ووضعها فوق صندوق.

رسم ثلاثة خطوط قصيرة.

الأول يصل دمهار بالحصن الشرقي، والثاني يمر بالقرى التي بقيت تحت سلطة قاسران، والثالث ينحرف عبر الوادي الغربي.

— نعتمد طريقًا واحدًا، يعرفه كل تاجر وكل رجل يريد أخذ نصيبه. أريد قافلتين أصغر بدل واحدة كبيرة. تخرجان في يومين مختلفين، وتحمل كل منهما سجلًا يوقع عليه من يستلمها عند كل محطة.

قال إيلدار:

— هذا يحتاج إلى رجال إضافيين.

— نأخذهم من الحراسات التي تحمي طرقًا لم تعد تُستخدم. ونضع مع كل قافلة رجلًا من المخزن ورجلًا من الوحدة التي ستأخذ المؤن. إذا نقص كيس، عرف الاثنان أين كان آخر مرة.

تأمل إيلدار الخطوط.

— وماذا عن الجسر الشرقي؟

— يُصلح، لكنه لا ينتظر الإصلاح كي يأكل الجنود.

عند المساء، وضع قرهان خطته أمام ميرافا.

قرأت الأرقام أولًا.

رفعت بصرها إليه عند عدد الدروع غير الصالحة، ثم عادت إلى الورقة دون تعليق. كان إيلدار واقفًا قرب النافذة، وقد وضع أمامها تقرير التحقيق الأولي في المخزن.

قالت:

— تريد نقل رجال من أربعة مواضع.

— من أربعة مواضع لا تحمي شيئًا.

— إحداها قرب قرية عادت إليها دوريات رهفان مرتين.

— ثمانية رجال فوق تلة لن يوقفوا دورية. لكنهم يستطيعون إيصال الطعام إلى خمسين جنديًا يحرسون الحصن الذي يمنعها من التقدم.

أشارت إلى الطريق الثاني.

— يمر قرب الحقول.

— ولن نأخذ منها شيئًا دون سجل.

بقيت تنظر إليه.

أضاف:

— هذا شرطك.

— هل صار شرطك أيضًا؟

لم يجب فورًا.

سحب تقريرًا آخر.

— يصير شرطي حين أعرف أن سرقة القرى ستجعل الطريق فارغًا في الشتاء.

لم يكن ذلك الجواب الذي توقعه إيلدار.

أما ميرافا فلم يظهر عليها الرضا.

قالت:

— تُنفذ الخطة لأسبوعين. تتحرك القوافل تحت أوامر القادة الموجودين، وتصلني السجلات كل ثلاثة أيام.

رفع قرهان عينيه.

— وأوامري؟

— تبدأ بالإمداد وتنتهي عنده. لا تنقل وحدة مقاتلة دون الرجوع إليّ.

أخذ الورقة.

— أسبوعان لن يعيدا بناء الجيش.

— لكنهما يكفيان لأعرف إن كنت تبني جيشًا أم سلطة داخل الجيش.

استقرت يده فوق التقرير.

ثم انحنى انحناءة قصيرة.

— سترين القوافل تصل.

خرج ومعه الخطة.

قال إيلدار بعد إغلاق الباب:

— أعطيته أول باب.

نظرت ميرافا إلى سجلات المخزن.

— ولهذا أريد أن أعرف أي الأبواب سيفتح بعدها.

◆

بلغ تقرير الوفد سجّال قبل القافلة بيوم.

حمله الرجل الذي غادر تيرافا بين أوراق عادية، ودخل به إلى القصر من ممر يؤدي إلى غرف ماردين. فُتح الغلاف هناك، ونُسخت منه نسخة واحدة، ثم نُقل الأصل إلى جروان.

قرأ الملك التقرير جالسًا.

لم يبدُ عليه الغضب عند وصف السجلات التي سُمح للوفد برؤيتها. لم يتوقف عند تعاون الناسخين، ولا عند الوثائق التي عاد رجاله بنسخ منها.

توقف عند العبارة التي كتبها رئيس الوفد عن الموضع المغلق.

أعاد قراءتها.

كان ماردين واقفًا قرب الخزانة، ونسخة التقرير في يده.

قال:

— عرفوا قبل السفر أن موضع الترميم مغلق.

طوى جروان طرف الورقة بين إصبعيه.

— والآن يعرفون أننا نريده.

— لم يرفض أردان طلبًا جديدًا بعد. هذا تقرير رجل يريد أن يثبت أهمية مهمته.

رفع الملك عينيه.

— هل تعتقد أنه بالغ؟

— أعتقد أنه كتب ما يعرف أنك تريد قراءته.

بقيت الورقة بين أصابع جروان.

لم يحب الجملة، لكنه لم ينكرها.

نهض واتجه إلى الخريطة المعلقة قرب النافذة. لم تكن خريطة للعالم، بل لإيفارا وحدها؛ طرقها الرئيسية، موانئها، ومواقع الأراضي التي تتبع القصر.

وقف أمام تيرافا.

— سمح لهم بالدخول، ثم وضع بابًا أمامهم في قلب الأرشيف.

قال ماردين:

— يستطيع أن يقول إن الباب كان مغلقًا قبل وصولهم.

— يستطيع أن يقول ما يشاء.

أفلت جروان الورقة فوق المائدة.

— أريد طلبًا جديدًا. لا وفدًا آخر، ولا عرض مساعدة. نطلب فتح الموضع لمعاينة مشتركة، بحضور رجالنا ورجالهم، خلال عشرة أيام من وصول الرسالة.

— وعلى أي أساس؟

اتجهت عينا الملك إلى الخزانة الزجاجية التي تضم المعاهدات.

— على أساس أن ما أخفوه قد يتصل بسجلات الطرق والحقوق القديمة بين المملكتين.

قال ماردين:

— التقرير لا يثبت ذلك.

— لهذا سيذهب الطلب قبل أن يكتمل ما يثبت العكس.

جلس، وأشار إلى المقعد المقابل.

— يصاغ كاحتجاج، لا كسؤال.

لم يجلس ماردين.

— إن رفض، ماذا تريد أن نفعل؟

نظر إليه جروان طويلًا.

— أريد أن يرفض أولًا.

كان الجواب هادئًا، لكنه لم يحتج إلى توضيح.

فتح ماردين دفترًا صغيرًا.

— والرسالة الأخرى؟

لم يسأله الملك أي رسالة يقصد.

قال:

— هل وصل جواب فاريك؟

— وافق على تنفيذ ما يخصه. نيرفا ستشرف على الطرق والمخازن.

تحركت يد جروان فوق ذراع المقعد.

— أفضل أن تشرف هي.

— لأنها تنفذ؟

— لأنها لا تثق بنا. الحذر يجعلها تحصي كل شيء بنفسها، ومن يحصي الطريق جيدًا يفتحه جيدًا حين يأتي الأمر.

كتب ماردين سطرًا.

قال:

— القوائم لم تكتمل.

— متى؟

— ثلاثة أيام.

— اجعلها يومين.

أغلق ماردين الدفتر.

عند الباب، سأله جروان:

— هل ظهر شيء في تيرافا غير ما كتبه رئيس الوفد؟

— الناسخ المسن يقول إن بعض السجلات نُقلت من مواضعها قبل وصولهم، لكنه لا يعرف إن كان ذلك بسبب الترميم.

— احتفظ بالناسخ.

— هو ناسخ، لا رجل لنا.

— لم أقل اشتره. قلت احتفظ به قريبًا من الوفد. الرجال الذين يهتمون بالحبر يرون ما لا يراه من يبحث عن الأسرار.

خرج ماردين.

بقي جروان أمام خريطة إيفارا.

مرر إصبعه فوق الطريق المؤدي إلى العاصمة، ثم توقف عند حافته دون أن يلمس اسمها.

كانت ملامحه ساكنة، لكن الورقة التي طواها بقيت منبعجة فوق المائدة.

◆

لم يعرف إيردان سبب إغلاق الطريق.

وصل الأمر إلى حصنه في الصباح: الجزء الممتد قرب الجسر يُغلق أمام العربات المدنية حتى انتهاء الإصلاح، وتُنقل بعض المؤن إلى مخازن أخرى تحت إشراف ضباط من رهفان.

قرأ الورقة مرتين.

لم تحمل توقيع فاريك، بل ختم قيادة أدنى لا يملك سؤالها مباشرة.

قال الرجل الواقف أمامه:

— بدأوا الإفراغ ليلًا.

رفع إيردان رأسه.

— أي مخازن؟

ذكر الرجل ثلاثة مواضع.

عرفها جميعًا.

كان اثنان منها بعيدين عن الجسر الذي قيل إنهم يصلحونه.

مشى إلى النافذة.

منها رأى السور الذي أعطاه إياه فاريك، والبيوت القليلة التي امتدت تحته، والحقول التي لم يعد أصحابها يعرفون لأي ملك يدفعون ما يُطلب منهم. لم يكن ذلك ما وُعد به حين فتح الطريق لرهفان.

كان يريد أرضًا تتسع حتى تبلغ تخوم دمهار.

أما الآن، فكانوا يعطونه حصنًا صغيرًا، ويطلبون منه حماية الطرق، ثم ينقلون المؤن من حوله دون أن يخبروه إلى أين.

قال:

— كم عربة خرجت؟

— خمس ليلًا. وثلاث عند الفجر.

— حراسة؟

— من رجال نيرفا.

استدار.

— هل مرّت من هنا؟

— أخذت الطريق القديم.

وضع إيردان الأمر فوق المائدة.

— أرسل إلى هاروك. اكتب أن رجالي لا يستطيعون حماية الأراضي الجديدة إن نُقلت المؤن دون تنسيق معنا.

قال كاتبه:

— أذكر حاجتنا إلى تعزيزات؟

— للمرة الثالثة.

جلس، ثم أضاف:

— واكتب أن تحركات كهذه تترك الحصون مكشوفة.

بدأ الكاتب عمله.

أما الرجل الذي جاء بالخبر فبقي عند الباب.

انتظر إيردان حتى خرج الكاتب بالرسالة، ثم أشار إليه أن يقترب.

— الطريق القديم يمر قرب مزرعة آل روفان.

أومأ الرجل.

— لك قريب هناك؟

— زوج أختي.

— يبيع العلف؟

— أحيانًا.

أخرج إيردان قطعة نقدية، ووضعها على المائدة.

— سيبيع أكثر خلال الأيام القادمة. أريد أن يعرف عدد العربات، ومن يقودها، وإلى أين تتجه بعد المزرعة.

لم يأخذ الرجل القطعة فورًا.

— إن رآه رجال نيرفا...

رفع إيردان عينيه إليه.

أخذها.

قال إيردان:

— لا تقترب من العربات. راقب من يشتري العلف. ومن يسأل عن الطريق. وإن رأيت رجلًا لا يحمل علامة رهفان، أريد وصفه.

خرج الرجل.

بقي إيردان وحده.

فتح صندوقًا صغيرًا تحت المائدة، وأخرج منه خريطة الأراضي التي كان يطالب بها. امتد الخط الذي رسمه لنفسه أبعد من الحصن والقرى المحيطة به.

بلغ الطريق المؤدي إلى دمهار.

مرر ظفره فوقه حتى ترك أثرًا في الورق.

◆

وصل رائف إلى النزل قبل أن ينتهي نائل من تدريب يده اليسرى.

كان الفتى يحرك العصا المعدنية في الفسحة الخلفية، أبطأ مما فعل في اليوم السابق. وضع أوران ثلاث أوعية فارغة على الأرض، وطلب منه أن يمر بالطرف بينها دون أن يلمسها.

أصاب الأول مرتين.

أما الثالث فسقط عند المحاولة السادسة، وتدحرج حتى بلغ قدم رائف.

انحنى الشاب والتقطه.

— يبدو أنني جئت في الوقت المناسب.

خفض نائل العصا.

— اليد الأخرى لا تعرف شيئًا.

قال أوران:

— تعرف إسقاط الأوعية.

وضع رائف الوعاء في مكانه، ثم أخرج ورقة مطوية من حزامه.

أخبرهما أن صاحب الورشة أرسل رجلين لفحص قناة حجرية قديمة خارج تيرافا. انخفض الماء في أحد الفروع التي تغذي بساتين صغيرة، ويظن أهل الموضع أن جزءًا من القناة انهار تحت الطريق.

— وسأبيت هناك ليلة، إن لم ننتهِ قبل المساء.

نظر نائل إلى أوران قبل أن يسأل:

— لماذا تخبرنا؟

قال رائف:

— لأنني أحتاج إلى شخص يحمل الأدوات، ولأنك بقيت تجمعها معنا بعد الحادث.

رفع نائل العصا.

— وهذه؟

تأمل رائف المعدن.

— إن استخدمتها قرب الحجر، أبقِها بعيدة عن رأسي.

لم يبتسم أوران.

سأل عن موضع القناة، والطريق المؤدي إليها، واسم الرجل الذي طلب الإصلاح. أجاب رائف بما يعرفه، ثم انتظر.

قال نائل:

— سأذهب.

ظل أوران ينظر إلى الورقة.

— تعود غدًا قبل الظلام.

— هذا يعني نعم؟

— يعني أنك تعود غدًا قبل الظلام.

دخل إلى النزل، وخرج بعد قليل بحقيبة صغيرة. تفقد طعام نائل، وأضاف إليه قماشًا جافًا وإبرة وخيطًا.

قال نائل:

— لا نحتاج إلى خياطة قناة.

— القناة لا أعرفها. أما قميصك فأعرفه.

سار نائل مع رائف بعد الظهر.

خرج الطريق من البوابة الغربية، ثم انقسم عند حقول الزيتون. ابتعدت أبراج تيرافا خلفهما، وظهرت التلال منخفضة أمام الأفق. حمل رائف معظم أدوات القياس، بينما وضع نائل فوق كتفه حبلًا وكيس المسامير.

كانت العصا المعدنية مربوطة إلى الحقيبة.

بعد ساعة، مرّا بجسر صغير تجري تحته مياه قليلة. توقف رائف ليرى اتجاهها، ثم رسم خطًا في دفتره.

سأل نائل:

— ترسم كل شيء؟

— أرسم ما سأكذب بشأنه إن اعتمدت على ذاكرتي.

— وأنا ظننتك تثق بها.

— أثق بها حين لا يدفع أحد ثمن خطئها.

تابعا السير.

قرب الغروب بلغا بستانًا تحيط به جدران منخفضة. استقبلهما رجل مسن ومعه ابناه. لم يهتم الرجل بعمر نائل، ولا بالعصا التي يحملها. قادهما مباشرة إلى طرف الأرض، حيث خرج الماء من فتحة حجرية أضيق مما ينبغي.

قال:

— كان يبلغ هذه العلامة.

أشار إلى خط داكن على الجدار.

جثا رائف، وأدخل عودًا طويلًا في المجرى. أخرجه مغطى بالطين.

سأل عن آخر مرة نُظفت فيها القناة، وعن الحجارة التي أضيفت إلى الطريق فوقها. أجابه الابن الأكبر، بينما دار نائل حول الجدار.

امتدت القناة بمحاذاة البستان، ثم اختفت تحت بناء منخفض أُقيم لتخزين الأدوات. في الجهة الأخرى، عاد الماء إلى الظهور أضعف مما كان.

قال رائف:

— الانسداد تحت البناء.

قال الرجل المسن:

— هدمنا جزءًا من أرضه في الشتاء. لم نجد شيئًا.

أخرج رائف دفتره.

بدأ يقيس المسافة بين الفتحتين. طلب من نائل تثبيت طرف الحبل، ثم نقل العلامة إلى الورق.

لم تتطابق المسافة مع الخط المستقيم الذي توقعه.

أعاد القياس.

كانت النتيجة نفسها.

قال نائل:

— القناة لا تمر تحته.

نظر إليه رائف.

— من أين تمر؟

أشار الفتى إلى الجدار الجانبي.

— تنعطف قبل البناء.

قال الابن:

— لا يوجد مخرج هناك.

اقترب نائل من الحجارة. كانت متشابهة في اللون، لكن صفًا واحدًا انخفض قليلًا عند المنتصف. مرر أصابعه فوق الفاصل.

لم يشعر بشيء غير برودة الحجر.

طرق عليه بمقبض العصا الخشبية التي أعطاه إياها رائف.

جاء الصوت أثقل من الحجارة المجاورة.

قال رائف:

— هذا يعني أنه ممتلئ من الخلف.

طرق نائل مرة أخرى، ثم تحرك خطوتين.

تغير الصوت.

اقترب رائف، وجرب بنفسه.

أخرج قطعة الفحم، ورسم علامتين صغيرتين.

— يوجد فراغ بينهما.

نظر إلى الرجل المسن.

— هل كان هنا باب؟

— لم أرَ واحدًا.

قال ابنه:

— الجدار أقدم من المخزن.

بدأوا بإزالة التراب عند القاعدة. لم يهدموا الحجر؛ كشفوا الحافة أولًا، ثم وجد رائف خطًا عموديًا طمره الجص. امتد إلى أسفل في انحناءة ضيقة.

قال نائل:

— مثل مدخل مجرى.

لم يجبه رائف.

كان يتفحص البناء بعناية أكبر.

عملوا حتى غاب الضوء. ظهرت فتحة صغيرة، خرج منها ماء موحل، ثم توقف.

أدخل رائف أداة حديدية.

اصطدمت بشيء قريب.

قال:

— حجر أو خشب.

أراد نائل توسيع الفتحة بالعصا المعدنية، لكن رائف أمسك طرفها.

— غدًا.

نظر إليه.

أشار رائف إلى الجدار فوقهما.

— لا نعرف ما الذي يحمله. نتعلم أن ننتظر من يشد معنا، أتذكر؟

ترك نائل العصا.

ناما في غرفة قرب مخزن البستان. أعطاهما الرجل المسن حساءً وخبزًا، وظل يحدثهما عن الأعوام التي كان الماء يصل فيها إلى آخر الأشجار. قال إن ابنه الأصغر يفكر في ترك الأرض والعمل داخل المدينة إن استمر النقص.

استمع نائل إلى الرجل، ثم نظر إلى رائف.

كان الشاب يأكل ببطء، وعيناه على الرسم الذي وضعه قرب الوعاء.

في الصباح، ثبتوا عارضة فوق الجدار، وربطوا بها الحجارة التي قد تتحرك. أزال رائف الجص حول الفتحة، بينما أخذ نائل التراب إلى الخارج.

ظهر لوح حجري ضيق، وضعه بنّاء قديم أمام مجرى جانبي. لم يكن جزءًا من الجدار الأصلي. تراكمت خلفه جذور وأغصان حتى أغلقت الماء.

قال الرجل المسن:

— لماذا أغلقوه؟

تتبع رائف امتداد القناة.

— لم يغلقوها كلها. حوّلوا جزءًا منها حين بنوا الطريق.

أشار نائل إلى الصف المنخفض.

— لكن الطريق تغيّر بعد ذلك.

نظر رائف إلى موضعه.

كان خلف الجدار خط آخر من الحجارة، أقدم وأعرض، ينحرف نحو البستان بدل أن يستمر إلى المخزن.

أزال قليلًا من التراب، ثم جلس على عقبيه.

— هناك مجرى ثانٍ.

قال الابن:

— لم نعرف به.

فتح رائف دفتره، وقارن الرسم بما ظهر.

أما نائل فتراجع حتى رأى الجدار كاملًا.

قال:

— الأول بُني فوق الثاني. وحين انسدّ الجديد، بقي القديم خلفه.

نظر إليه رائف.

— كيف رأيت ذلك؟

أشار نائل إلى اختلاف بسيط في ميل الصفوف.

— هذا الخط لا ينتهي عند الزاوية. يستمر تحتها.

لم يكن الأمر واضحًا للرجل ولا لابنيه.

اقترب رائف، ومسح التراب براحته.

بعد وقت طويل، وجد الحافة.

لم يقل شيئًا.

عملوا حتى الظهر. لم يفتحوا المجرى القديم كله؛ اكتفوا بإزالة ما يسد الفرع الجديد، وثبتوا اللوح بطريقة تسمح بتنظيفه لاحقًا.

عندما سحبوا آخر كتلة من الجذور، اندفع الماء دفعة واحدة.

تراجع نائل، لكن حذاءه انغرس في الطين، فسقط جالسًا.

ارتفع الماء حول ساقيه.

ضحك الابن الأصغر للمرة الأولى منذ وصولهما.

مدّ رائف يده إليه.

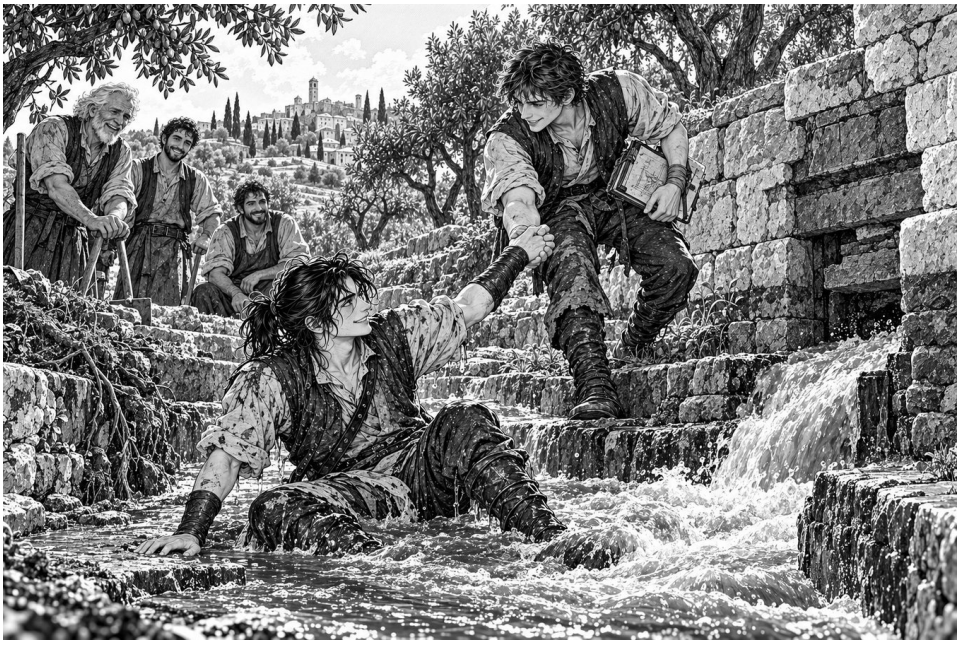

قال نائل وهو ينهض:

— كنت أعرف أنه سيخرج.

— ولهذا جلست في طريقه؟

عاد الماء إلى الارتفاع عند العلامة القديمة ببطء. وقف الرجل المسن قرب القناة، يراقبه كأنه لا يثق به بعد.

قبل رحيلهما، حاول إعطاء رائف أجرًا إضافيًا.

رفض.

أخذ ما اتفق عليه صاحب الورشة، وطلب من الابنين تنظيف الفتحة كل شهر حتى ينتهي موسم الجذور.

في الطريق إلى تيرافا، ظل دفتره في يده.

قال نائل:

— ما زلت تفكر في الجدار.

— أفكر في المجرى القديم.

— لن نحتاج إليه.

— لا أعرف.

فتح الرسم وهو يمشي.

كان الخط الذي أشار إليه نائل يستمر خلف زاوية لا يظهر بعدها شيء فوق الأرض.

قال رائف:

— لم ترَ الحافة إلا بعد أن بحثنا عنها.

— رأيت أن الصف لا يستقيم.

— لم يكن مستقيمًا منذ البداية.

أغلق الدفتر.

— لكنك عرفت أين يستمر.

رفع نائل كتفه.

— خمنت.

نظر إليه رائف قليلًا، ثم أعاد الدفتر إلى حزامه.

— كانت تخميناتك مفيدة اليوم.

عندما وصلا إلى المدينة، كان الطين قد جف فوق ثياب نائل حتى صار يتساقط مع كل خطوة.

وجده أوران عند باب النزل.

نظر إلى الحقيبة، ثم إلى الحذاء، ثم إلى العصا المعدنية التي بقيت مربوطة ولم تُستعمل.

قال:

— عدت قبل الظلام.

أومأ نائل.

— وأنقذنا بستانًا.

قال رائف:

— فتحنا قناة.

دخل أوران.

— كنت أعرف أن القصة ستكبر قبل أن تصل إلى السلم.

◆

وصلت رسالة سيراي إلى الحصن مع سجل للمؤن وأمر بتبديل رجلين من الحراسة.

لم يميزها سايرن بين الأوراق حين حمل هارث الرزمة إلى الداخل. أمضيا الصباح في فحص العوارض التي استُبدلت، ثم انتقلا إلى باب المستودع الشرقي. كان الحديد يحتك بالحجر كلما أُغلق، وأصر هارث على إصلاحه قبل أن يُنقل إليه شيء.

قال:

— الأبواب تنتظر حتى تمتلئ المخازن، ثم تختار ذلك اليوم لتتعطل.

جلس سايرن قرب المفصل، وأدخل أداة تحته.

— لأنها لا ترى فائدة في التعطل وهي فارغة.

نظر هارث إليه.

— بدأت تتعلم كلام أصحاب الحصون.

— لا أعرف إن كان هذا مدحًا.

— ليس مدحًا.

عملا حتى الظهر.

بعد الطعام، دخل هارث غرفته وبقي فيها وقتًا أطول من المعتاد. خرج حاملًا غلافًا داخليًا لا يحمل ختمًا.

أعطاه لسايرن.

— جاءت مع أوراق المكتب نفسه.

أخذها.

— هل ينتظرون جوابًا؟

— الورقة الخارجية تقول إن عليك السفر إن قبلت العمل، أو إعادة الغلاف إن لم تقبل.

ظل سايرن ينظر إليه.

قال هارث:

— لم أفتحه.

— أعرف.

— لكنني أعرف أنك لست عاملًا يسأله القصر عن جدار لأنه أصلح سقف مخزن.

لم يكن في صوته اتهام.

انتظر سايرن السؤال.

لم يأتِ.

أشار هارث إلى الغرفة.

— اقرأها. ثم أخبرني كم يومًا تحتاج.

أغلق سايرن الباب خلفه.

فتح الغلاف، وقرأ الموعد.

دار السرو.

عرفها.

كانت أبعد عن القصر مما توقع، وأقرب إلى الطريق الذي يستطيع الوصول إليه دون دخول تيرافا من بوابتها الرئيسية. فهم لماذا اختارتها.

جلس على حافة السرير.

بعد ثلاثة أيام.

لم يشعر بالخوف حين عبر أراضي رهفان، ولا حين رأى نيرفا عند الحدود. هناك كان الخطر واضحًا؛ دورية، سيف، وجه قد يتذكره.

أما هذه الورقة فلم تحمل إلا اسم دار وموعدًا.

ومع ذلك بقي ينظر إليها طويلًا.

طواها وأعادها إلى الغلاف، ثم خرج.

كان هارث عند الممر العلوي، يراجع مواضع الحراسة.

وقف سايرن إلى جانبه.

— أحتاج إلى أربعة أيام.

لم يسأل هارث إلى أين.

نظر إلى الطريق تحت الحصن.

— تعود في اليوم الخامس؟

— إن لم يتغير الطريق.

— الطريق يتغير دائمًا. أعطني جوابًا لا يصلح للحكماء.

تحرك طرف فم سايرن.

— سأعود في اليوم الخامس.

أومأ هارث.

— إذن ننتهي من الباب اليوم. وغدًا تريني ما الذي كنت تنظر إليه عند الممر الشرقي.

نزلا إلى المخزن.

في اليوم التالي، أخذ سايرن الضابط إلى الجزء الذي أُصلحت دعاماته. وضع كفه فوق العارضة، ثم أشار إلى نقطة أبعد عند الجدار.

— إذا جاء ضغط من هذه الجهة، لن تكون المشكلة في الخشب وحده. الحجر هنا أضعف.

قال هارث:

— ضغط من ماذا؟

نظر سايرن إلى الطريق.

— تجمع رجال فوق الممر. أو ضربة من الخارج.

— لا أحد يهاجم هذا الحصن.

لم يجبه.

اقترب هارث من الجدار، وفحص الفاصل.

— ماذا نفعل؟

شرح له كيف توضع دعامة مائلة تحت الممر، وكيف تُنقل رزم السهام بعيدًا عن الموضع كي لا يجتمع الحرس فوقه. أصغى هارث، ثم استدعى النجار.

قبل الغروب، كتب سايرن قائمة بما بقي من الإصلاحات، ووضعها فوق مائدة الضابط.

قرأها هارث.

— كتبت أكثر مما يصلحه رجل في أربعة أيام.

— بعضها لا يحتاج إليّ.

— أعرف. ولهذا أغضبني أنك جعلتني أراه.

طوى الورقة ووضعها في جيبه.

في الصباح التالي، خرج سايرن بثياب العامل نفسها، وحقيبة أخف من التي حملها عبر الجبل.

عند البوابة، أعطاه هارث قطعة معدنية صغيرة تحمل علامة الحامية.

— إن أوقفك أحد من رجالنا، قل إنك ذاهب لمعاينة إصلاح بأمر مني.

أخذها سايرن.

— وهذه حقيقة؟

— نصفها.

نظر إليه هارث.

— يبدو أنك معتاد على أنصاف الحقائق.

لم يجد سايرن جوابًا.

فتح الحارس الباب.

مشى إلى الطريق، ثم التفت.

كان هارث قد عاد إلى الداخل قبل أن يراه.

◆

وصل احتجاج جروان إلى أردان في المجلس الصباحي.

قرأ الملك الرسالة وحده أولًا. ثم طلب حضور مهراز ودارن.

دخل مهراز حاملًا سجلين ولفافة من رسوم الترميم. جاء كما يأتي إلى الأرشيف؛ ثوبه خالٍ من الزينة، وأصابعه تحمل أثر الحبر عند الظفر.

أما دارن، فدخل بلا أوراق.

كان أطول من مهراز، مستقيم الظهر، يرتدي معطفًا عسكريًا داكنًا فوق درع خفيف. حمل سيفًا واحدًا عند جانبه، قبضته خالية من الأحجار، وغمده مخدوش عند الموضع الذي تلامسه يده.

لم يكن يحتاج إلى علامة تُعرّف به.

عرفه جنود إيفارا باسم فارس المرآة قبل أن يقف قريبًا من العرش. لم يأتِ الاسم من درع لامع ولا من شعار يحمله؛ كان الرجال يطلقونه حين يتحدثون عن مبارزات بدأت بأسلوب خصمه وانتهت بالأسلوب نفسه يعود إليه أكثر دقة. لم يعرف أكثرهم أين ينتهي التدريب وتبدأ القوة التي ورثها، ولم يسأل أردان عن ذلك أمام أحد.

وقف دارن على يسار المائدة.

لم ينظر إلى الرسالة أولًا.

نظر إلى يد الملك التي أمسكت بها.



قال أردان:

— جروان يطالب بفتح موضع الترميم خلال عشرة أيام.

وضع الرسالة أمامهما.

قرأ مهراز النص كاملًا. أما دارن فقرأ الفقرة الوسطى، ثم أعاد بصره إلى أردان.

قال مهراز:

— لم نجد داخل الموضع وثيقة واحدة بعد.

— لكنه يكتب كأننا وجدنا ما يخصه وأخفيناه.

فتح مهراز أحد السجلين.

— رجال الوفد اطلعوا على كل ما شمله الإذن. طلب رئيسهم دخول القسم المغلق، فذكّرته بجوابك السابق.

قال أردان:

— هل رأى شيئًا عند الباب؟

— رأى العمال يدخلون ويخرجون. ورأى أن العمل مستمر.

— هل تحدث مع أحدهم؟

— ليس داخل الأرشيف. سألتهم بعد مغادرته.

تدخل دارن:

— من حمل التقرير؟

نظر مهراز إليه.

— لا أعرف.

قال أردان:

— خرج مع قافلة.

— لم أسأل كيف خرج. أسأل من كتبه ومن حمله.

أشار مهراز إلى اسم رئيس الوفد.

— كتبه هذا الرجل على الأرجح. أما الحامل فلم يكن من الناسخين الذين عملوا عندي.

مد دارن إصبعه إلى آخر فقرة.

— يعرف جروان أن القسم كان مغلقًا قبل وصول الوفد. ومع ذلك جعل الإغلاق حدثًا وقع في وجوه رجاله.

قال أردان:

— يريد بابًا يدخل منه.

— أو سببًا يقول إنه مُنع من دخوله.

رفع الملك عينيه إليه.

كان دارن واقفًا دون حركة، لكن نظره انتقل إلى الخريطة الموضوعة عند طرف المائدة، ثم إلى نافذة تطل على الساحة.

قال أردان:

— ما الذي تنظر إليه؟

— ليس في الرسالة طلب لإعادة الناسخين، ولا اعتراض على الوثائق التي أُتيحت لهم. كل ما فيها عن غرفة لا يعرفون ما بداخلها.

قال مهراز:

— لأنهم لم يأتوا من أجل السجلات التي طلبوها.

سكت الثلاثة.

فتح مهراز اللفافة.

أظهر رسمًا للجدار الذي أزيل عنه الجص، وللحجارة التي أعيد ترتيبها في زمن غير محدد.

— وجدنا خطوطًا أخرى خلف الطبقة الثانية. ليست كتابة كاملة. قد تكون علامات بناء، أو جزءًا من رسم أكبر.

اقترب أردان.

— هل تشبه ما في السجلات؟

— لا أستطيع القول بعد.

قال دارن:

— كم شخصًا يعرف؟

— العمال، واثنان من موظفي الأرشيف.

— والوفد؟

— يعرف أنني أوقفتهم عند الباب.

سأل أردان:

— إن فتحت الموضع أمامهم، ماذا سيرون؟

أجاب مهراز:

— جدارًا لا نفهمه بعد. وسيكتبون تفسيرهم قبل أن نعرف نحن ما ننظر إليه.

بقي الملك واقفًا.

دار دارن حول طرف المائدة، وتوقف عند الخريطة. لم يمد يده إليها.

— متى غادر التقرير تيرافا؟

ذكر مهراز اليوم.

حسب دارن المدة في ذهنه.

— وجاء الاحتجاج أسرع مما تأتي ردودهم التجارية.

قال أردان:

— ماذا يعني ذلك؟

— يعني أن الجواب كان ينتظر سببًا.

لم يعلق مهراز.

أما أردان فأعاد قراءة السطر الذي حدد المهلة.

— أتقترح إغلاق الأرشيف؟

— لا. إن أغلقناه كله، أعطيناه ما يريد أن يقوله. يُستمر في العمل، وتُزاد الحراسة دون أن يتغير وجه المبنى.

قال مهراز:

— زيادة الحراس ستُلاحظ.

— لهذا لا نرسل جنودًا يقفون عند الباب. أبدّل بعض رجال الحراسة الموجودين برجال أعرفهم، ويعملون بالعدد نفسه.

نظر أردان إليه.

— وتراجع الطرق؟

— أبدأ بالطريق الذي خرج منه التقرير، ثم مخازن الحدود والرسائل التي وصلت من رهفان خلال الشهر. إذا كان هذا ضغطًا على الأرشيف وحده، لن نجد شيئًا. وإن لم يكن وحده، فالأفضل أن نعرف قبل أن تصلنا رسالة أخرى.

قال مهراز:

— أحتاج إلى إبقاء العمال. إزالة الطبقة التالية لا تحتمل التوقف الآن.

أومأ الملك.

— يستمر العمل. ولا يخرج رسم جديد من المبنى.

جمع مهراز أوراقه، لكنه ترك الرسم أمام أردان.

سأل:

— والجواب؟

مشى الملك إلى النافذة.

في الساحة، كان جنديان يتدربان بالسيف الخشبي. نفذ الأول ضربة من أعلى، فتراجع الآخر متأخرًا وأصابته العصا عند كتفه.

تبع دارن الحركة بعينيه.

لم يتحرك جسده، إلا أن أصابع يده قرب الغمد أغلقت على فراغ المقبض لحظة، ثم ارتخت. كأنه حفظ الضربة وخطأ المدافع معًا.

قال أردان:

— نجيبه بأن الأرشيف يخضع لسلطة إيفارا، وأن ما شمله الاتفاق أُتيح لوفده كاملًا. يمكن إرسال مراقب واحد بعد انتهاء الفحص، لا قبله، ولا خلال مهلة يضعها هو.

قال مهراز:

— سيرفض.

— لم أسأله أن يقبل.

نظر دارن إلى الملك.

كانت العبارة أقرب إلى ما قاله جروان في مكان آخر، لكن أحدًا في الغرفة لم يعرف ذلك.

أضاف أردان:

— تبدأ مراجعتك اليوم. لا تحرك وحدة، ولا ترسل أمرًا يحمل اسم زافرين.

— مفهوم.

— وإذا وجدت شيئًا؟

— آتيك به قبل أن يعرف الطريق أننا وجدناه.

أومأ الملك.

انحنى دارن وغادر.

في الممر، أفسح له الحراس الطريق. لم يتجه إلى جناحه، بل نزل إلى الساحة التي رآها من النافذة.

كان الجنديان قد بدآ جولة جديدة.

وقف عند الحافة.

رآه المدرب، فأوقفهما.

قال دارن:

— دعهما يكملان.

عاد الرجلان إلى موضعيهما.

رفع الأول سيفه الخشبي، واستخدم الضربة نفسها من أعلى. هذه المرة تراجع خصمه مبكرًا، فغير المهاجم اتجاهه وأصاب جانبه.

راقب دارن قدميه، ثم كتفه، ثم اليد التي تأخرت عن بقية الحركة.

كرر الجندي الضربة مرة ثالثة.

قبل أن تبدأ، كانت يد دارن قد تحركت قرب غمده بالحركة نفسها، أقصر وأهدأ.

لم يسحب سيفه.

اكتفى بالمشاهدة حتى انتهت الجولة، ثم طلب من المدرب قائمة الرجال الذين سيتولون حراسة الأرشيف في الأسبوع التالي.

◆

في الطابق الأعلى، بقي أردان مع مهراز.

قال الملك:

— هل تثق به؟

لم يسأل مهراز عمن يقصد.

— في الحرب؟ نعم.

— وهذا ليس حربًا بعد.

جمع مهراز السجلين.

— لهذا استدعيته قبل أن تصير كذلك.

نظر أردان إلى الرسم فوق المائدة.

في الجهة الأخرى من القصر، كانت سيراي تستعد للخروج إلى دار السرو. اختارت خادمة واحدة، وطلبت أن تتحرك العربة بعد شروق الشمس لا قبله، كي تبدو الزيارة مثل أي تفقد لملك تابع للدار.

وفي الطريق خارج تيرافا، كان سايرن قد بلغ التلة التي تظهر منها الأبراج.

توقف عند أعلاها.

بدت العاصمة بعيدة، لكنه عرف القصر قبل أن يميز بقية المباني. بقي ينظر إليه لحظة، ثم ترك الطريق الرئيسي ونزل نحو بساتين الرمان.



بعد الظهر، خرج من بوابة القصر ساعيان.

حمل الأول جواب أردان إلى زافرين.

وحمل الثاني أوامر مختومة إلى رجال دارن على الطرق الغربية.

لم يعرف أحدهما ما يحمله الآخر.

أما الطريق المؤدي إلى دار السرو، فظل بلا رسول.
كان رجل يمشي فيه وحده.

◆

في سولان، تأخرت قافلة الحديد حتى أُغلقت معظم دكاكين السوق.



دخلت العربات من البوابة الشمالية واحدة بعد أخرى، ووقفت تحت القوس الذي نُقش عليه أسد يعلوه تاج. حملت عجلاتها طين طرق بعيدة، وتدلت من إحدى الحمولات قطعة قماش مزقها الاحتكاك طوال السفر. كان السائق الأخير نائمًا فوق مقعده، يترك للحصان أن يتبع العربة التي أمامه.

لم تبدُ العاصمة مدينة تستعد لحرب.

في الساحات الواسعة، كان الباعة يجمعون أغطية منصاتهم، والصبية يطاردون كرة من الجلد بين الأعمدة. بقيت الواجهات الحجرية مضاءة بشمس آخر النهار، وارتفع من حي الصناع صوت مطارق لم يتغير منذ الصباح. عند النافورة القريبة

من السوق، جلست نساء ينتظرن امتلاء الجرار، يتحدثن عن ثمن الزيت وزواج ابنة الخباز.

لكن القافلة لم تُترك لتعبر كما كانت تفعل من قبل.

وقف عندها موظفان بدل واحد، وأُعيد فتح صناديق سبق أن فُحصت عند حدود ألدوريا. عُدّت قضبان الحديد، ووُزنت بعض الحزم، ثم قورنت الأختام بما في السجل. احتج صاحب الحمولة لأن هذا التأخير سيضطره إلى دفع ليلة أخرى لرجاله، فلم يجبه الموظف إلا بطلب الورقة التالية.

وصل نقص الحمولة إلى القصر قبل أن تصل العربات إلى المخازن.

كان إيلان في غرفة تطل على ساحة داخلية، يراجع حسابات شراء الخيل. وضع التقرير الجديد إلى جانب أوراقه، وسأل عن مقدار النقص، ثم عن الثمن الذي دفعه التاجر كي يعبر آخر طريق.

تضاعفت أجرة الحراسة في بعض المواضع. وفي مواضع أخرى، دُفعت الرسوم مرتين لرجال يحملون أوامر مختلفة. لم يستطع التاجر أن يحدد أيهم كان يملك حق تحصيلها، لكنه عرف أن الامتناع عن الدفع يعني العودة بحمولة لا يملك إعادتها.

قرأ الملك أسماء الطرق.

كان يعرف بعضها من تقارير السنوات الماضية، حين لم تكن تحتاج إلى أكثر من سطر في حساب التجارة. الآن صار لكل طريق خبر عن حصن سقط، أو حامية تبدلت، أو قرية لم يعد يُشترى منها العلف.

على المائدة المقابلة وُضعت خريطة الشمال.

لم تُصحح حدودها بعد. ثبت الكاتب فوق المواضع المختلف عليها رقاعًا صغيرة تحمل أسماء الحصون، لأن الأخبار لم تستقر بما يكفي ليمر الحبر فوق الخط القديم. احتفظت قاسران في الورقة بأرض لم تعد تملكها، وبقيت طرق المناجم مرسومة كما لو أن العربات تستطيع عبورها بإذن واحد.

اقترب إيلان من الخريطة.

رفع رقعة عند أحد المعابر، وقرأ ما تحتها، ثم أعادها إلى موضعها.

كان في المجلس من يرى أن إنهاك الممالك الشمالية سيمنح ألدوريا وقتًا ومكانة أفضل في التجارة. وكان فيه من يحصي الرجال الذين جمعتهم رهفان، ويقارن بين ما كانت تملكه قبل الحرب وما صار يدخل مخازنها بعدها.

استمع الملك إلى الرأيين.

لم يتوقف طويلًا عند احتمال أن تصل الحرب إلى أرضه غدًا؛ لم يكن في التقارير ما يدعو إلى ذلك. ما شغله هو شكل الشمال حين تنتهي حروبه، ومن سيضع شروط العبور وأسعار الحديد إن تجمعت الطرق والمناجم في يد واحدة.

قال أحد مستشاريه إن رهفان ستحتاج إلى سنوات لتثبيت ما أخذته.

أبقى إيلان إصبعه عند المعبر.

— وقد تمنحنا تلك السنوات لنستعد، إن استعملناها.

بعد ذلك عاد النقاش إلى ما يمكن عده.

طلب مراجعة مخزون الحبوب في الحصون، وفحص الخيل المسجلة للجيش، وإحصاء العربات التي يمكن تحويلها إلى نقل عسكري دون تعطيل الحصاد. لم يأمر باستدعاء الناس من الحقول، ولا بإظهار الجنود في الأسواق. أراد أولًا أن يعرف ما يستطيع الاعتماد عليه إذا اضطر إلى إصدار الأمر.

حين بدأ الكاتب يجمع الأوراق، استوقفه الملك وسأله عن آخر رسالتين من نومارا وميرازا.

كانتا تتعلقان بالتجارة.

فتحهما إيلان من جديد، وقرأ العبارات التي بدت عادية حين وصلتا: طلب مراجعة رسوم، وتأجيل تسليم حمولة، واستفسار عن أمن طريق. وضعهما إلى جانب تقرير القافلة، ثم أمر بإعداد رسالتين يسأل فيهما عن أحوال المنافذ وحركة التجار.

لم يذكر الحلف.

ولم يَعِد بالتدخل في الشمال.

في الأسفل، استمرت مطارق حي الصناع بعد غروب الشمس. أُضيئت مصابيح إضافية داخل ورشتين تعملان لحساب الجيش، وبدأ صبي ينقل من المخزن مسامير عريضة كان قد اعتاد رؤيتها تُخرج في بداية الشتاء.

عند البوابة، نام سائق القافلة الأخير فوق مقعده مرة أخرى.

لم يوقظه أحد حتى انتهى العد.

◆

بلغت أخبار القافلة إيلورا في صيغة مختلفة.

قال التاجر الذي حملها إن ألدوريا بدأت تحجز الحديد. وقال رجل وصل بعده بيوم إن العربات لم تُحجز، وإنما تأخر فحصها. أما الرسالة الرسمية، فلم تتحدث عن القافلة أصلًا؛ ذكرت انتظام التجارة وطلبت معلومات عن الطرق.

كانت الملكة إيرانا قد أمرت ألّا تُجمع الأخبار المتشابهة في تقرير واحد.

أرادت أن ترى الاختلافات.

في ذلك الصباح، بقي الضباب عالقًا بين أبنية إيلورا حتى بعد أن فُتحت الأسواق. ظهرت الأسطح العالية فوقه، ثم أخذت الأزقة تتكشف ببطء، رطبة وضيقة، يصل بعضها إلى ساحات صغيرة تحيط بها أشجار قديمة. تحت إحدى الرايات، استقرت بومة بيضاء أمام قرص بنفسجي، وتحرك طرف القماش كلما مرت ريح بين المباني.

كان الداخلون إلى المدينة يتركون أسماءهم عند البوابات كعادتهم، لكن الحراس صاروا يسألون سؤالًا إضافيًا: من أي طريق جاؤوا؟

في القصر، وُضعت الأجوبة أمام إيرانا مع أسماء أصحابها وتواريخ وصولهم.

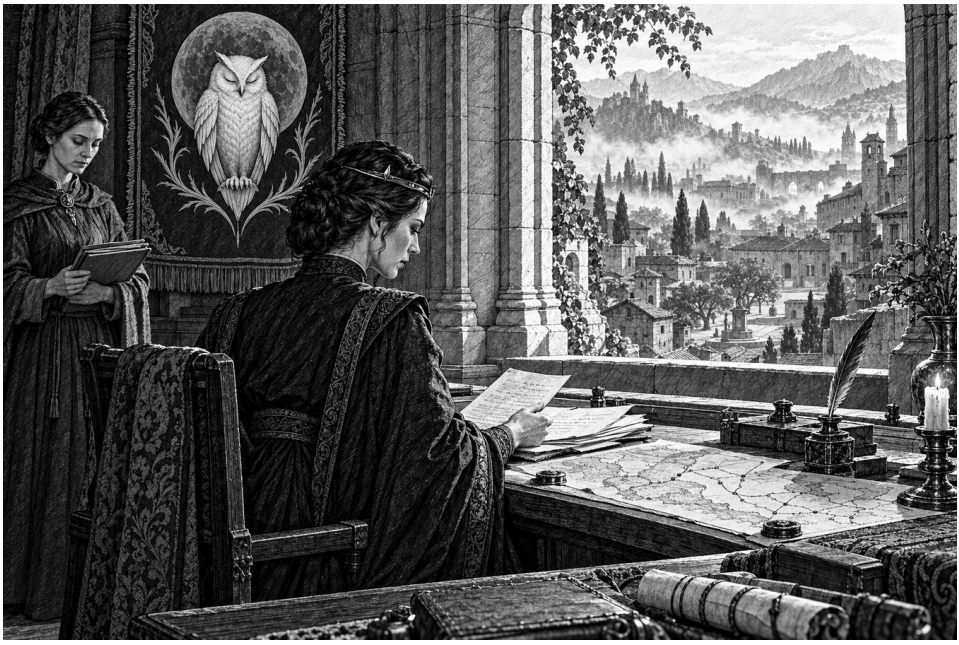

لم تبدأ بقراءة الأخبار عن الملوك.

بدأت بالطرق.

وجدت في ثلاثة تقارير ذكرًا لتأخر عربات على أراضي رهفان. واختلفت أسباب التأخير: إصلاح جسر، تبديل حرس، ومراجعة تصاريح. أحد التجار قال إنه عاد من طريق آخر، لكنه لم يرَ الجسر الذي قيل إنه أُغلق.

وضعت الملكة علامة صغيرة عند اسمه.

في تقرير مختلف، ورد أن رجالًا من زافرين دخلوا أرشيف إيفارا. حمل الخبر ناسخ كان يبحث عن عمل، فحوله بعض من سمعوه إلى اتفاق بين المملكتين. وبعد أيام، وصل حديث عن خلاف بين الوفد وموظفي الأرشيف.

لم يكن أحد في إيلورا يعرف ما جرى داخل القاعة.

كان هذا ما أكدته إيرانا حين حاول أحد الحاضرين بناء رأيه على الخبر الأخير. طلبت منه أن يفصل ما شاهده صاحب الرواية عمّا استنتجه، ثم أعادت الورقة إلى وسط المائدة.

أُحضرت خريطة أخرى، أصغر من خريطة الممالك، تضم المنافذ التي تعبر منها التجارة إلى نومارا. قارنت الملكة بين الأخبار وعلامات العبور المثبتة في السجلات. كانت بعض الحمولات تصل متأخرة، لكن أعدادها لم تنخفض بما يكفي لتفسير القلق الذي ملأ الرسائل.

قال أحد المسؤولين إن التجار يبالغون ليبرروا رفع الأسعار.

لم تنكر ذلك.

طلبت منه أن يرسل رجاله لشراء العلف من المواضع التي اشتكى منها التجار، وأن يعود إليها بالثمن الذي دفعوه فعلًا.

ثم انتقلت إلى تقارير الحراسة.

كان بعض قادتها يريد زيادة الرجال عند الحدود الشمالية. قرأت طلباتهم، ثم سألت عمّا سيُترك خاليًا إذا وافقت عليهم جميعًا. طال النقاش عند هذا السؤال؛ كل قائد عرف الموضع الذي يخشاه، ولم يعرف من أين يؤخذ الرجال الذين طلبهم.

لم توافق على نقل الوحدات في ذلك اليوم.

أمرت بإصلاح مواضع المراقبة المهملة، وتبديل الخيل المتعبة عند محطات السعاة، وإرسال رجال يعرفون الأسواق ولا يلفتون الأنظار إليها. أرادت أخبارًا تصل قبل أن تفقد فائدتها، وأسماء يمكن الرجوع إليها حين يتغير الكلام.

في آخر المجلس، قُرئت رسالة ألدوريا.

أصغت إيرانا إلى سؤال إيلان عن المنافذ، ثم طلبت إحضار نسخة الرد قبل ختمها. وافقت على تبادل أخبار الطرق، لكنها حذفت منه عدد الحرس وأماكن تبديلهم.

توقف القلم في يد الكاتب.

قالت:

— نعطيهم ما يساعدهم على فهم الطريق. أما ما يحرسه، فيبقى عندنا.

لم تقل إنها تخشى ألدوريا.

لم تكن تحتاج إلى قول ذلك كي يفهم الجالسون سبب الحذف.

بقيت بعد خروجهم تقلب الأوراق الثلاث التي تحدثت عن الطريق المغلق في رهفان. كانت كل واحدة تحمل سببًا معقولًا، ولم تثبت أي منها وجود أمر أكبر خلفه.

وضعتها في ملف واحد.

على غلافه كتبت تاريخ أول خبر، وتركت ما تحته فارغًا.

في الخارج، انقشع الضباب عن آخر الساحات. ظهرت عربات كانت أصواتها تصل إلى القصر منذ الصباح، وواصل أهل المدينة يومهم دون أن يعرفوا أن أسماء الطرق التي يسلكونها صارت تُقرأ مرتين.

◆

في سيلمارا، عرف رجال الميناء بتبدل أحوال الشمال من أثمان الحبال.

ارتفع ثمنها أولًا، ثم ارتفعت أجور البحارة الذين يقبلون السفر في الرحلات الطويلة. بعد ذلك صار أصحاب السفن يطلبون دفع جزء أكبر من الأجرة قبل الإبحار، وبدأت حمولات تصل إلى الميناء بلا المسامير والحديد الذي سُجل معها عند الانطلاق.

لم تتوقف المدينة.

امتدت الأرصفة تحت الأبنية المتدرجة على الساحل، وتقاطعت فوقها ظلال الصواري والحبال. نُقلت سلال السمك إلى الأسواق قبل أن تشتد الشمس، ووقف الحمالون ينتظرون فتح مخازن الملح والخشب. على برج يشرف على الماء، التفت أفعى بحرية فضية حول لؤلؤة زرقاء في راية تحركها الريح.

من النوافذ العالية، بدت السفن متقاربة حتى يصعب تصور المسافات التي قطعتها.

كانت تاليا تراقب إحداها حين دخل موظف الميناء.

جاء بسجلين، أحدهما للأجرة والآخر للحمولات المتأخرة. وضعهما أمامها، ثم أخرج ورقة ثالثة ظل ممسكًا بها حتى سألته عنها.

حملت طلبًا من ثلاثة تجار لتوفير حراسة مشتركة لسفنهم في الرحلة المقبلة.

لم يكن الطلب الأول.

فتحت الملكة سجل الأجور، وقارنت بين رحلتين يفصل بينهما أقل من شهر. السفينة نفسها، والحمولة نفسها تقريبًا، لكن الثمن تغير بما يكفي ليأكل ربح التاجر الصغير كله.

قال الموظف إن أصحاب السفن يخشون بقاءهم في ميناء تتبدل أوامره أثناء وجودهم فيه.

سألته تاليا عمّا حدث بالفعل.

ذكر سفينة انتظرت تصريحًا جديدًا، وأخرى دفعت رسومًا لم تُطلب منها عند وصولها، وثالثة باعت جزءًا من حمولتها بثمن منخفض كي تستطيع دفع أجور رجالها والعودة.

لم تكن تلك الأخبار كافية لإرسال الأسطول.

لكنها كانت كافية لاستدعاء من يديرونه.

قرب الظهر، اجتمع في الغرفة رجال البحر والتجارة، ومعهم المسؤول عن مخازن السلاح. لم تُفرش خريطة كبيرة فوق المائدة في البداية. أرادت تاليا سماع ما يحتاجون إليه قبل أن تتحول الجلسة إلى إشارات فوق مدن بعيدة.

طلب رجال البحر مزيدًا من الخشب والحبال، وإصلاح سفينتين أُجل العمل فيهما. أراد التجار ضمانات للرحلات المقبلة. أما مسؤول المخازن، فحذر من أن شراء كل المطلوب دفعة واحدة سيرفع الأسعار داخل ميرازا نفسها.

أصغت الملكة، وطلبت تقديرًا مكتوبًا لكل حاجة.

ثم فُتحت الخريطة.

وُضعت عند أطرافها التقارير التي وصلت من الشمال: أراضي قاسران المفقودة، والمناجم التي لم تعد تُرسل منها الأخبار بانتظام، وخلاف يتسع بين زافرين وإيفارا. لم تحمل الأوراق تفاصيل يتفق عليها الجميع، لكن أثرها كان حاضرًا في سجلات الميناء المفتوحة أمامهم.

رأى أحد المستشارين أن ميرازا تستطيع الانتظار. البحر يمنحها مسافة لا تملكها الممالك التي تتجاور حصونها، ولم تصلها مطالبة من جروان ولا تهديد من فاريك.

نظرت تاليا إلى سجل الخشب.

كانت بعض أخشابه تأتي من خارج المملكة.

ثم إلى الحديد.

وإلى قائمة القمح الذي ينتظر أصحاب السفن تحميله في الموانئ التالية.

أعادت السجل إلى موضعه.

— كم سفينة نستطيع إبقاءها في البحر إن أُغلقت هذه الطرق؟

بدأ قائد الميناء يجيب، ثم توقف ليحسب ما لم يدخل في تقديره الأول: مؤن الرجال، والخشب اللازم للإصلاح، والرحلات التي ستُلغى كي تتفرغ السفن للحراسة.

أعطاها عددًا أقل.

طلبت منه تسجيله.

لم تعلّق.

انتقل النقاش إلى ما يمكن حمايته من سواحل المملكة، ثم إلى ما يبقى خارج قدرة سفنها مهما زاد عددها. كلما امتد إصبع فوق طريق، احتاج إلى المرور بأرض أو ميناء لا تحكمه تاليا.

عندها طلبت رسائل ألدوريا ونومارا.

وصلت الأولى حديثًا تسأل عن حركة التجارة. أما الثانية فتعلقت بموعد حمولة وتأمين عبورها. لم تتحدث أي منهما عن التزام عسكري، لكن السؤال الذي لم يُكتب كان حاضرًا في الاثنتين: إلى أي حد يستطيع كل طرف الاعتماد على الآخر إذا اضطر إلى تغيير خططه؟

تركت تاليا الرسالتين مفتوحتين.

كانت تعرف ما سيصعّب الأمر قبل أن تقترحه.

إيلان لن يضع رجاله تحت أمر يصدر من سيلمارا، وإيرانا لن تفتح سجلات حراستها لأن سفن ميرازا تأخرت. وبين الممالك الثلاث رسوم اختلفوا عليها،

ووعود لم تُنفذ في موعدها، ومجالس انتهت بابتسامات أعقبتها رسائل أشد مما قيل فيها.

لم تكن تلك الخلافات سببًا كافيًا لترك كل مملكة تستعد وحدها.

طلبت من المسؤول عن المخازن أن يبقى بعد انتهاء عرض الأرقام. ثم سألت عن مقدار ما تحتاج إليه ميرازا لو ضمنت شراء الحديد في موعد ثابت، وعن عدد السفن التي يمكن تخصيصها للحماية لو نسقت الرحلات بدل أن تخرج كل حمولة وحدها.

هذه المرة تغيرت الأعداد إلى جهة أخرى.

ارتفع ما يستطيعون فعله، وانخفض بعض ما يحتاجون إلى شرائه فورًا.

تابعت الأسئلة حتى فهم الحاضرون إلى أين تتجه.

قال أحد مستشاريها:

— قد يريان في الدعوة محاولة لجمعهما تحت رايتك.

رفعت تاليا عينيها.

— لا أطلب منهما أن يأتيا تحت رايتي.

أزاحت الخريطة قليلًا، وجمعت الأوراق التي تتعلق بحاجة ميرازا وحدها.

— أطلب أن نجلس قبل أن يُضطر كل واحد منا إلى طلب النجدة منفردًا.

لم تُمَلِ معاهدة.



أمرت بإعداد دعوتين إلى اجتماع بين حكام الممالك الثلاث، يُبحث فيه اتفاق دفاعي، وحماية الطرق والموانئ، وتنسيق المؤن والاستعداد العسكري. تُحدد الالتزامات فيه بالموافقة، ولا تتحرك قوة من مملكة بأمر أخرى دون إذن صاحبها.

قرأ الكاتب ما سجل.

أوقفتْه عند عبارة جعلت سيلمارا مقرًا للاجتماع، وطلبت استبدالها باقتراح يترك اختيار المكان والموعد باتفاقهم. ثم حذفت وصفًا احتفاليًا للدعوة؛ لم ترد أن يقضي إيلان وإيرانا وقتًا في تخمين ما تخفيه المجاملات قبل أن يبلغا غرض الرسالة.

حين انتهى الكاتب، أعاد القراءة من البداية.

أبقت تاليا عينيها على الاسمين المكتوبين في رأس الورقتين.

لم يكن حلف قد وُلد.

كان عليها أولًا أن تقنع ملكًا وملكة بأن يجلسا إلى المائدة نفسها، وأن يقولا أمامها ما يخشيانه بدل أن يكتفيا بالسؤال عمّا تعرفه.

أمرت بإعداد نسختين نظيفتين وختمهما، وتسليم كل واحدة إلى رسول يعرف الطريق ولا يترك الرسالة عند حاجب إن استطاع بلوغ صاحبها.

من النافذة وصل صرير حبل اشتد فوق رافعة الميناء. تحركت حمولة كبيرة ببطء، وانتظر الرجال تحتها حتى استقرت فوق العربة.

تابعتها تاليا لحظة، ثم عادت إلى الكاتب.

— تخرج الدعوتان اليوم.

انحنى، وجمع الورقتين.

وبقي موضعهما خاليًا على المائدة، بين سجل الحديد وخريطة الطرق.

◆

كانت بوابة الحديقة الجنوبية مفتوحة، لكن سايرن مرّ أمامها قبل أن يعود.

وقف عند موضع انخفض فيه السور، ونظر إلى الطريق خلفه. عبرت عربة تحمل سلالًا فارغة، وتبعها رجل يسوق حمارًا، ثم خلا المنعطف. لم يرَ من تبعه منذ ترك الطريق الرئيسي، ومع ذلك انتظر حتى اختفى صوت العجلات.

أخرج علامة الحامية من داخل ثوبه.

في الفناء الصغير خلف البوابة، جلس رجل يصلح أسنان مشط خشبي طويل. رفع رأسه حين وقع ظل سايرن فوق الحجارة، ونظر إلى القطعة المعدنية، ثم أشار بالمشط نحو الدار.

— ينتظرون من يفحص السور.

أعاد سايرن العلامة إلى موضعها.

سأله الرجل إن كان يحمل أدواته، فرفع الحقيبة الصغيرة. لم يكن فيها إلا ما يكفي لإصلاح باب، لكن ذلك أرضاه. عاد إلى المشط، ومضى سايرن بين صفين من الشجيرات انتهيا عند حوض جاف.

عرف الحوض قبل أن يرى الدرج.

كان طرفه المكسور قد أُصلح بحجر أفتح من بقيته، وقُلّمت الأشجار التي كانت تحجب الواجهة. أما النافذة الضيقة فوق الباب، فبقيت كما تذكرها، عالية إلى حد يجعل فتحها يحتاج إلى عصا طويلة.

خرجت خادمة تحمل إناءً.

توقفت، ثم قالت إن السور من الجهة الأخرى. قادته إلى ممر جانبي، وطلبت منه الانتظار تحت شجرة السرو حتى يأتي من يريه موضع الشق.

لم ينتظر طويلًا.

سمع وقع خطوات على الحصى، أخف مما توقع، ثم توقفت خلفه.

استدار.

كانت سيراي عند آخر الممر.

لم ترتدِ ما رآها به آخر مرة في القصر. خلا شعرها من التاج، وجُمعت أطرافه خلف رأسها بمشبك صغير. أمسكت في يدها دفترًا مغلقًا، وبقي إبهامها بين صفحاته، كما لو أنها خرجت لتسأل العامل عن مقدار الحجارة التي يحتاج إليها.

نظر إليها، ولم يجد الجملة التي أعدها في الطريق.

أما هي فكانت تنظر إلى وجهه.

انتقلت عيناها إلى الندبة قرب فكه، ثم إلى كتفه التي حملت الحقيبة، وإلى الثوب الخشن الذي اتسع عند خصره. رأت أنه نقص عما بقي في ذاكرتها، وأنه يحاول الوقوف مستقيمًا أكثر مما يسمح له جسده.

تحركت نحوه خطوة.

ثم توقفت.

قالت:

— انزل الحقيبة.

نظر إلى ما يحمله، كأنه نسيه.

وضعها عند جذع الشجرة.

اقتربت حتى صار يستطيع رؤية التعب تحت عينيها. رفعت يدها إلى وجهه، لكنها لم تلمسه فورًا. بقيت أصابعها قرب الندبة لحظة، ثم استقرت عند فكه.



لم يتحرك.

قالت بصوت منخفض:

— قالوا إنهم بحثوا.

أومأ.

— بحثوا.

ارتجفت أصابعها قليلًا، فسحبت يدها وأغلقتها حول الدفتر.

كان قد تخيل أسئلة كثيرة. أين كان؟ لماذا لم يكتب؟ من يعرف؟ لم يتخيل أن يقف أمامها عاجزًا عن طمأنتها إلى أمر تراه بعينيها.

قال:

— حملني رجل إلى بيته. لم أكن...

توقف حين رأى وجهها.

لم تكن تريد تقريرًا بعد.

مدّ يده إليها، فتركت الدفتر يسقط بينهما، وأمسكت بثوبه عند صدره. اقتربت بحركة سريعة، ثم خففت قبضتها حين سمعت النفس الذي حبسه.

ابتعدت مقدارًا قليلًا.

— يؤلمك؟

— قليلًا.

نظرت إليه.

خفض عينيه.

— أكثر من قليل.

أبقت يدها فوق ذراعه، وقادته إلى المقعد الحجري عند السور. جلست إلى جانبه دون أن تتركه، بينما بقي الدفتر مفتوحًا على الحصى.

مرّت ريح خفيفة بين الأغصان.

في الجهة الأخرى من الدار، سمعت الخادمة تنادي البستاني، وسمعا جوابه يأتي من قرب البوابة. انتظرت سيراي حتى ابتعد الصوت، ثم انحنت والتقطت الدفتر.

وضعته على المقعد بينهما.

— منذ متى تستطيع الكتابة؟

نظر إلى يديه.

كان في السؤال ما لم يكن في رسائلها.

أخبرها عن الأيام التي لم يذكر منها شيئًا، وعن ابنة القروي التي بدلت الضمادات، وعن الحمى التي أعادته إلى الفراش كلما ظن أنه يستطيع النهوض. لم يطل في وصف الجروح. حين بلغ الوقت الذي استطاع فيه السير إلى الحقول، سكت.

أبقت عينيها عليه.

— وبعد ذلك؟

مرر كفه فوق ركبته.

— لم أعرف كيف يصل خبر مني دون أن يصل إلى غيرك.

— ثم وجدت طريقة.

أومأ.

— ثم وجدت هارث.

لم تقل إن ذلك يفسر كل شيء.

فتحت الدفتر وأغلقته، ثم وضعته بعيدًا هذه المرة.

أخبرها عن الطريق الذي قطعه، وعن الميناء الذي لم يقترب منه، وعن الرعاة الذين وجدوه تحت الصخر. وحين ذكر المرأة التي قادت البغال، رفعت سيراي عينيها إليه.

— من رهفان؟

— نعم.

بقي ينظر إلى أطراف الأشجار.

— أوصلتني إلى إيفارا. ولم تسألني عمّن كنت أقاتل.

سكتت.

في الداخل، أُغلق باب، فتراجع سايرن قليلًا في المقعد. لاحظت الحركة، لكنها لم تلتفت. قالت إن الخادمة تعرف أنها تراجع حساب الإصلاح معه، وإن الحرس عند المدخل الأمامي.

لم يقل لها إنه لا يريد أن يراها أحد معه.

كانت قد فكرت في ذلك قبل أن يأتي.

بعد قليل، سألته عن ميرافا.

تغير وجهه عند الاسم.

أخبرها أنه لم يرسل إلى أخته. عرف كيف سيبدو ذلك حين يقوله، ولم يحاول تجميله. كان يستطيع أن يعود، لكنه سيعود رجلًا نجا من جيشه، بلا قوة يستند إليها ولا خبر يغير ما تواجهه.

قالت سيراي:

— ستريد أن تعرف أنك حي، حتى لو عدت بلا شيء.

خفض رأسه.

بقيت الجملة بينهما وقتًا.

— أعرف.

لم تكن الإجابة دفاعًا.

رأت أصابعه تضغط بعضها، ثم تفترق. كان ذلك مألوفًا لديها؛ حركة يفعلها حين يحاول ألا يُظهر ما لا يستطيع إصلاحه.

قال إنه جاء إلى إيفارا لأنه يحتاج إلى أكثر من مخبأ. ما أخذته رهفان من قاسران لم يكن أرضًا وحدها. كانت المناجم والطرق والحصون تمنح فاريك ما يستطيع أن يستخدمه بعد أن يفرغ من تثبيت رجاله فيها.

استمعت دون أن تقاطعه.

لم يذكر اسم زافرين.

حين انتهى، سألته:

— تريد مقابلة أبي؟

نظر إليها مباشرة للمرة الأولى منذ ذكر ميرافا.

— أريد أن يسمعني. ولا أريد أن يسبقه خبر نجاتي إلى القاعة.

أخذت وقتها قبل أن تجيب.

لم تكن تعرف كيف تطلب من أبيها استقبال رجل يظنه العالم ميتًا، ولا كيف تفسر معرفتها بمكانه دون أن تفتح أسئلة أخرى. وكانت تعرف أيضًا أن الملك لن يَعِد بجيش لأن ابنته طلبت منه الإصغاء.

قالت:

— أستطيع أن أفكر في طريق إليه. أما ما سيقوله لك، فلا أملكه.

— لم آتِ لأطلبه منك.

التفتت إليه.

— جئت تطلب شيئًا صعبًا بما يكفي.

لم يعترض.

مدت يدها إلى الدفتر مرة أخرى، ثم تركته.

— لكننا لن نبدأ به الآن.

نظر إليها.

كانت قد تعبت من حديث الممالك، قبل أن ينتهي ما يخص الرجل الجالس إلى جانبها.

◆

وضع أوران ورقة أمام نائل، وأبعد عنها وعاء الطعام.

نظر الفتى إلى الخبز الذي بقي في يده.

— الآن؟

— قبل أن تنسى.

جلس نائل، ومسح أصابعه في قطعة القماش. كانت ثيابه النظيفة معلقة قرب النافذة، أما الحذاء الذي غرق في القناة فقد حشاه بورق قديم وتركه عند الباب.

وضع أوران قطعة فحم فوق الورقة.

طلب منه رسم الطريق إلى البستان.

بدأ نائل بالبوابة الغربية. جعلها أكبر مما ينبغي، ثم رسم الطريق الذي ينحدر منها، ووضع عند المفترق شجرة تذكر أن رائف استراح تحتها ليعيد ربط حذائه.

راقبه الشيخ دون تعليق.

بعد قليل، صار للورقة جسر وحقول وجدار طويل، ثم بيت صغير لم يعرف نائل إن كان قد رآه قبل الجسر أو بعده. محاه بطرف إصبعه، فترك لطخة عريضة.

قال أوران:

— اترك ما لا تعرفه.

— سيبقى نصف الطريق أبيض.

— أفضل من أن تبني بيتًا في حقل رجل.

أعاد نائل الفحم إلى موضع الجسر.

رسم المجرى تحته، ثم أكمل إلى البستان. عند الحافة، وضع المخزن والفتحة التي أزالوا منها الجذور، وحاول أن يُظهر زاوية الجدار كما رسمها رائف.

مال أوران إلى الأمام.

لم ينظر إلى الفتحة.

أشار إلى خط قصير امتد وراء المخزن، ثم انحنى باتجاه الطريق.

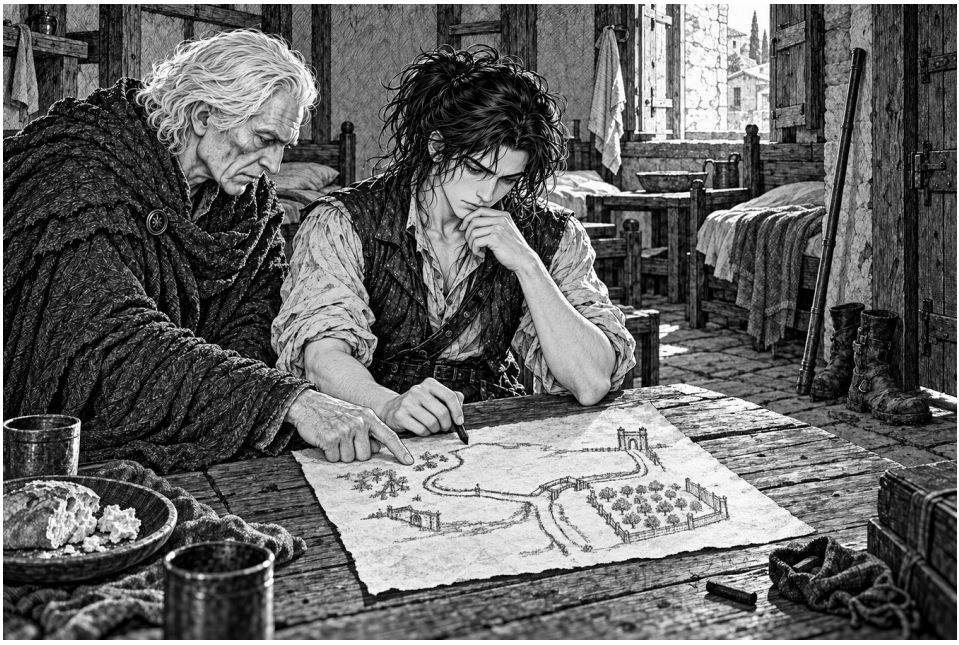

— وهذا؟

توقف نائل.

تتبع الخط بعينيه، ثم أعاد النظر إلى أول الرسم.

— المجرى القديم.

— مشيت وراء المخزن؟

— لا. كان هناك سياج، ولم نحتج إلى…

سكت.

وضع الفحم.

لم يكن يعرف لماذا أكمل الخط إلى تلك الجهة.

تذكر الحجر المنخفض، والبرودة عند الفاصل، والصوت الذي تغير حين طرق على الجدار. أما الانحناءة فلم يتذكرها.

قال:

— ربما رسمته هكذا لأن الماء يجب أن يأتي من جهة ما.

أدار أوران الورقة قليلًا.

— وربما.

انتظر نائل أن يمحو الخط.

لكن الشيخ أخذ قطعة فحم أخرى، ووضع علامة صغيرة عند آخر موضع قال الفتى إنه رآه. أبقى ما بعد العلامة كما هو.

— حين نعرف، نقارنه بما رسمت.

نظر نائل إليه.

— ظننتك تعرف.

رفع أوران رأسه.

لم يجب بسرعة.

— أعرف أن الخط الذي ترسمه لا يصبح صحيحًا لأنك أردته كذلك.

عاد الفتى إلى الورقة.

في الخارج، ارتفع صوت صاحب النزل وهو يطلب من أحد النزلاء إبعاد صندوقه عن السلم. دفع أوران وعاء الطعام إلى نائل، ثم نهض ليغلق النافذة قبل أن تصل ريحها إلى القماش المعلق.

بقيت العصا المعدنية قرب الباب.

لم يلمسها أحد طوال الرسم.

بعد الطعام، أراد نائل أن يري الشيخ كيف اندفع الماء حين نزعوا الجذور. استخدم الرغيف ليمثل الجدار، وكفه للمجرى، ثم توقف حين رأى نظرة أوران.

أعاد الخبز إلى الطبق.

— أنت لا تسمح لي أن أشرح شيئًا هنا.

جمع الشيخ الورقة.

— شرحت البستان على المائدة أمس. اليوم حاول أن تترك لنا مكانًا نأكل فيه.

طوى الرسم بحيث بقيت العلامة الصغيرة إلى الخارج، ووضعه داخل حقيبته، منفصلًا عن بقية الأوراق.

◆

لم يجد دارن في التقارير الأولى ما يستدعي إيقاظ الملك.

وجد عربات تأخرت، وتجارًا غضبوا، وحراسًا بالغوا في التفتيش بعدما وصلت إليهم أوامر لم تُشرح جيدًا. كان ذلك يحدث حتى حين لا تتبادل الممالك الاحتجاجات.

قرأ الأوراق في غرفة الحراسة القريبة من الإسطبل.

اختارها لأن الرجال الذين يعودون من الطرق يستطيعون دخولها دون المرور بموظفي القصر. لم يطلب منهم كتابة ما رأوه مرة أخرى. جلس معهم، وسأل عن المسافات والأوقات والوجوه التي تذكروها.

في اليوم الثاني، وضع ثلاث إفادات متجاورة.

حملتها أيدٍ مختلفة، لكن الجملة التي وصفت إغلاق الطريق كانت واحدة، حتى في ترتيب كلماتها: أعمال إصلاح مؤقتة حفاظًا على سلامة العابرين.

لم تكن العبارة دليلًا على شيء.

يمكن لقائد واحد أن يرسلها إلى كل نقاط الحراسة.

ما أوقفه كان تاريخًا عند أسفل ورقة أخرى.

ذكر صاحب عربة علف أنه باع حمولته على الطريق البديل قبل أن يصل إعلان الإغلاق إلى السوق بأربعة أيام. لم يكن وحده؛ وجد هناك عربات تعرف أين تتوقف، ورجالًا ينتظرونها قرب مخزن ظل مغلقًا منذ الشتاء.

استدعى دارن الرجل.

جاء متوجسًا، وظن أن في الأمر رسومًا لم يدفعها. أخرج إيصال البيع قبل أن يُطلب منه، وبدأ يشرح أن العلف لم يكن من مخزن عسكري.

أعاده دارن إليه.

سأله عمّن اشترى الحمولة.

لم يعرف الاسم.

وعن العلامة التي حملها الرجال.

ذكر علامة رهفان.

وعن الجسر.

هز الرجل رأسه.

لم يره. لم يكن طريقه يمر به أصلًا.

أعاد دارن السؤال بطريقة أخرى: لماذا اختار ذلك المسلك في ذلك اليوم؟

قال الرجل إن أحد المشترين طلب منه أن يأتي إليه، وإنه وجد ثمنًا أفضل من السوق.

بقي دارن ينظر إلى التاريخ.

كان الطريق يستقبل المؤن قبل أن يُقال للناس إنه سيُغلق. يمكن أن يكونوا قد استعدوا للإصلاح مبكرًا. ويمكن أن يكون الجسر تفسيرًا جاء بعد القرار.

لم يكتب أيًّا من الاحتمالين حقيقة.

طلب أسماء من باعوا العلف في الأيام نفسها، ثم أعطى الرجل إذنًا بالانصراف.

في المساء، رفع إلى أردان ورقة قصيرة. لم يذكر جيشًا، ولا اتجاه هجوم. وصف فرق التوقيت بين حركة العربات والإعلان، وأرفق أسماء من يمكن سؤالهم.

طلب الإذن بفحص الطريق من جهة إيفارا.

جاءه الجواب قبل إغلاق البوابة الداخلية.

خرج عند الفجر مع رجلين يعرفان محطات العبور. ترك عند الأرشيف من يتولى تبديل الحرس، وأعطاه أمرًا بإبلاغ مهراز بأي غياب غير معتاد بين العاملين، دون منع أحد من عمله.

عند آخر بيوت تيرافا، أبطأ حصانه لتمر عربة أمامه.

كان السائق يضرب كفه على الفخذ، يحث دابته على الإسراع. راقب دارن العجلة الخلفية حتى استقرت في الأخدود، ثم نظر إلى الطريق الذي جاءت منه.

لم تكن مهمته أن يجد ما يثبت شكه.

كان يحتاج إلى أن يعرف ما الذي يسلك تلك الطرق حين لا يراها أحد من رجاله.

◆

وصلت القافلة الأولى إلى الحصن الشرقي قبل الموعد الذي حدده قائد حاميته.

خرج الرجال إلى الفناء حين سمعوا العجلات، لكن الضابط أبقاهم بعيدًا حتى انتهى العد. وقف كاتب المخزن إلى جانب رجل من الوحدة، وفتحا الأكياس التي اختاراها بنفسيهما.

كان القمح جافًا حتى القاع.

تطابقت الأختام، ولم ينقص من سجل العربات إلا كيس تمزق عند التحميل. وُضع محتواه في كيس آخر، وسجل الرجلان ذلك قبل خروج القافلة من دمهار.

في العربة الأخيرة وصلت جلود للدروع، وأحذية لم يجد بعض الرجال قياسهم بينها. تبادلوها في الفناء، ثم حمل الإسكافي ما بقي ليعدله.

سمع قرهان الخبر من الساعي بعد عودته.

لم يبتسم.

سأله عن الوقت الذي ضاع عند المحطة الثانية، وعن سبب توقفهم قبل المنحدر. كتب الملاحظتين على هامش السجل، ثم أعطى الرجل طعامًا وأمره بالنوم قبل أن يعود إلى الطريق.

كان إيلدار حاضرًا.

نظر إلى السجل، ثم إلى الأكياس الفارغة التي أعادوها.

قال:

— وصل الطعام.

أعاد قرهان غطاء المحبرة.

— هذه أول مرة. إذا احتفلنا بها، عرفنا مقدار ما اعتدناه.

في الساحة، كانت مجموعة تتدرب بالدروع التي أُصلحت. بقي لون الجلد الجديد أفتح من بقية الحواف، وظهرت الخياطة واضحة عند المقابض. لم تصر الدروع جديدة، لكنها لم تعد تتفكك في أيدي أصحابها.

مرّ قرهان قربهم وهو يغادر.

رفع أحد الجنود رأسه، ثم ضرب بعصا التدريب على درعه تحية قصيرة.

تبعه آخر.

لم يتوقف قرهان، ولم يأمرهما بالكف.

وصل الخبر إلى ميرافا مع السجل.

قرأت توقيعي الاستلام، وطلبت مقارنة الأوزان بما خرج من مخازن العاصمة. حين جاءت الأرقام متطابقة، وضعت الورقة في الجهة التي تحفظ فيها الأعمال المنجزة.

كانت الأوراق في تلك الجهة أقل مما أرادت.

قال إيلدار إن الرجال بدأوا يستعيدون ثقتهم بوصول المؤن.

سألته:

— بالمخازن أم به؟

تأخر قليلًا.

— لا يفصلون بينهما الآن.

أومأت.

لم تطلب إزالة اسمه من الأوامر، ولا أن يُنسب وصول القافلة إلى المجلس. لكنها أمرت أن تحمل النسخ التالية توقيع المسؤول الذي أجاز خروجها، إلى جانب أسماء من نقلوها وتسلموها.

كانت تعرف أن الخبز الذي يصل في موعده يمنح صاحبه ما لا تمنحه الخطب.

في ذلك المساء، جاء إلى قرهان ضابط من وحدة خارج العاصمة.

وقف عند الباب وفي يده طلب لنقل عشرين رجلًا إلى موضع أقرب من الحصن الشرقي. قال إن القائد المسؤول لا يجيب منذ أيام، وإن الحراسة الحالية لا تستطيع تغطية الطريق بعد الغروب.

قرأ قرهان الورقة.

كان يستطيع أن يكتب سطرًا، وسيجد من ينفذه.

أعادها.

— هذا ليس من صلاحياتي.

لم يخفِ الضابط خيبته.

انحنى وهمّ بالخروج، لكن قرهان سأله عن الأرض التي يريد نقل الرجال إليها.

عاد.

أشار إلى الموضع على الخريطة، وشرح أين تتوقف العربات، وأين تتجمع المياه حين تمطر. أصغى قرهان، ثم سأله عن قوة الحراسة، وأسماء الرجال القادرين على قيادة دورية، وعدد الخيول التي تصلح للمسير ليلًا.

استغرق الحديث أطول مما استغرق رفض الطلب.

حين انتهى، طلب منه أن يرفع الورقة إلى مكتب الملكة، وأن يرفق بها ما قاله عن الطريق بدل أن يكتفي بطلب الرجال.

شكره الضابط.

بعد خروجه، كتب قرهان اسمه في ورقة صغيرة، وتحته اسم وحدته.

لم يكتب أمرًا.

وضع الورقة إلى جانب أسماء أخرى، ثم عاد إلى سجل القوافل.

◆

انتقل ظل السرو عن المقعد قبل أن ينهض سايرن.

كان قد بقيا في الحديقة أطول مما يسمح به فحص شق صغير في السور. مرت الخادمة مرة واحدة، ووضعت ماءً عند مدخل الممر دون أن تقترب. بعد ذلك، خرجت سيراي معها إلى الدار بضع دقائق، ثم عادت وحدها.

حين جلست، لم تفتح الدفتر.

سألته عمّا بقي معه يوم أنقذه القروي.

ذكر الثياب التي مزقوها ليصلوا إلى الجرح، وقطعة الحزام التي احتفظ بها الرجل، وأشياء لم يعرف أين سقطت. ثم مد يده إلى داخل ثوبه، وأخرج لفافة صغيرة لا يزيد عرضها على إصبعين.

وضعها فوق المقعد.

عرفت سيراي ما فيها قبل أن يفكها.

كان الخيط أقصر مما تذكرته، واسودّ قرب العقدة. بقيت الخرزة زرقاء، وفي جانبها الشق الرفيع نفسه.

لم تلتقطها فورًا.

قال سايرن:

— هل ما زلت تريدينها؟

مدت إصبعها إلى طرف الخيط.

— ظننت أن الماء أخذها.

— كاد يأخذني معها. كنت قد بدأت أكره الحجر الثالث.

خرجت منها ضحكة قصيرة، ثم انقطعت.

رفع عينيه إليها.

كانت تنظر إلى الخرزة، لا إليه.

قالت:

— لم أعرف أنك عدت.

طوى طرف القماش.

— لم أترك ما يدل على ذلك.

هذه المرة لم يجد في العبارة ما يخففها.

بقيت يدها على المقعد، قريبة من يده. كان يستطيع أن يخبرها كيف حمل الخبر الذي أجبره على الرحيل، ولماذا لم يعد في الموعد الذي اتفقا عليه، وما الذي قيل له حين حاول أن يكتب بعد ذلك.

لكنه لم يبدأ حكاية تجعل ما عاشته خطأ في الفهم.

قال:

— كان ينبغي أن تعرفي مني.

رفعت رأسها.

انتظرت أن يضيف عذرًا.

لم يفعل.

أخذت الخرزة بين إصبعين، وقلبتها حتى وقع الضوء في شقها. ثم أعادتها إلى القماش.

— احتفظ بها حتى لا يكون خروجك من هنا آخر ما أعرفه عنك مرة أخرى.

أغلق سايرن اللفافة ببطء.

حين نهض، وضعت يدها على ذراعه.

عرضت عليه البقاء في الدار يومين أو ثلاثة، باسم العامل الذي يحتاج إلى متابعة الإصلاح. يمكنها أن تستدعي طبيبًا تثق به بحجة فحص أحد خدمها، وأن تبحث خلال ذلك عن وقت تتحدث فيه إلى أبيها.

نظر إلى الدار، ثم إلى حقيبته.

كان العرض أريح مما انتظره من الطريق كله.

لكنه تذكر هارث عند الممر العلوي، يطلب جوابًا يصلح لرجل ينتظر عودة عامل، لا لحكيم يتحدث عن تبدل الطرق.

قال:

— وعدت أن أعود في اليوم الخامس.

سحبت يدها قليلًا.

— إلى الحصن؟

أومأ.

— يستطيع إصلاح بابه دونك.

— نعم.

نظر إليها.

— لكنه ترك لي غرفة قبل أن يعرف إن كنت سأدفع ثمنها. وأرسل رسالتي قبل أن أسأله عمّا سيطلبه مقابلها.

خفضت عينيها إلى العلامة التي ظهرت عند فتحة ثوبه.

لم تكن تعرف هارث إلا اسمًا في مراسلات الحامية.

قالت:

— وما زال لا يعرف؟

— يعرف أنني لا أقول له كل شيء.

سكتت، ثم أومأت ببطء.

اتفقا على بقاء الرسائل في الطريق نفسه. تصل إلى مكتب الدار، داخل مراسلات هارث، ويعود الجواب في غلاف يحمل اسم سارن وحده. لا يرسل سايرن إلى موظف آخر، ولا تبحث سيراي عنه بساعٍ لا يعرفه مضيفه.

لم تعده بموعد مع الملك.

وعدته أن تكتب حين يكون لديها ما تقوله، لا لتطلب منه الانتظار مرة أخرى.

عند طرف الممر، توقف سايرن قرب السور الذي جاء لفحصه.

وجد الشق الذي ذكرته في دفتر الإصلاحات. انحنى، وأبعد التراب عن قاعدته. كانت جذور شجرة قديمة تضغط من الخلف، والحجارة العليا رُبطت بجص جديد أخفى الحركة ولم يوقفها.

راقبته سيراي.

قال إن إصلاحه من الوجه وحده لن يدوم، وإن عليهم كشف الجذور قبل أن ترتفع الشقوق إلى الحافة.

فتحت الدفتر وكتبت.

للحظة، صارا ما يظنه أهل الدار فيهما: أميرة تسأل، وعامل يشرح.

ثم أغلقته.

عند البوابة، كان البستاني قد انتهى من المشط. رفعه ليرى استقامة أسنانه، وسأل سايرن إن كان السور يحتاج إلى هدم.

أخبره أن جزءًا صغيرًا منه يحتاج إلى فك وإعادة بناء.

هز الرجل رأسه متذمرًا من الذين أصلحوه في الشتاء، ثم أفسح له الطريق.

مشى سايرن دون أن يلتفت حتى بلغ المنعطف.

حين عاد ببصره، لم يرَ سيراي.

رأى طرف السرو فوق الجدار، وبقي واقفًا لحظة، ثم تابع نحو الطريق المؤدي إلى الحصن.

◆

وصل جواب أردان إلى سجّال في صباح لم يُعقد فيه المجلس المعتاد.

أُبلغ المنتظرون أن الملك سيستقبلهم بعد الظهر. بقي بعضهم في الممر، وغادر آخرون إلى الدواوين القريبة، بينما حمل الكاتب الرسالة إلى الغرفة الداخلية.

قرأها جروان.

وضعها إلى جانب الطلب الذي أرسله، وسوّى حافتي الورقتين.

لم يضرب المائدة، ولم يطلب إعادة قراءة العبارات التي رفض فيها أردان المهلة.

سأل الكاتب عن ساعة وصول الساعي، ثم صرفه واستدعى ماردين.

حين دخل، كانت الخريطة مفتوحة.

قال جروان:

— انتهى الانتظار.

لم يحتج ماردين إلى قراءة الجواب كاملًا.

وضع دفتر القوائم أمام الملك، وفتحه عند الصفحات الأخيرة. لم تبقَ فيها فراغات إلا بجانب أسماء قليلة شُطبت ووُضع غيرها.

مرّ جروان عليها بإصبعه.

سأل عن رجلين، ثم عن زمن وصول الأوامر إلى المخازن. أجابه ماردين بالأوقات، لا بالوعود.

بعد ذلك استُدعي الكتبة.

دخلوا واحدًا بعد الآخر، ولم يبقَ اثنان منهم في الغرفة معًا. كتب الأول أوامر تتعلق بالمؤن، والثاني باستدعاء ضباط، والثالث بتبديل مواعيد خروج قوافل كانت مسجلة منذ أسابيع.

حملت كل ورقة سببًا يكفي لمن سينفذها.

لم تحمل واحدة منها ما في بقية الأوراق.

عند الظهر، أُغلقت سجلات في ديوان النقل، وأُعيد فتح نسخ أخرى لا تُعرض على أصحاب العربات. خرج رجل إلى الإسطبل ومعه أسماء خيل، وذهب آخر إلى المخازن ليتأكد من أحذية وُضعت في صناديق بدل أن توزع على الرجال.

في إحدى الساحات، انتهى التدريب أبكر من عادته.

ظن الجنود أن ذلك بسبب المطر الذي بدأ يتجمع فوق المدينة. أمرهم ضابطهم بفحص أحزمتهم، وإصلاح ما تأخروا في إصلاحه، ثم أرسل كل مجموعة إلى مبنى مختلف.

لم تُنصب رايات جديدة.

وبقي التجار الذين ينتظرون مجلس الملك يتحدثون عن جواب إيفارا، لأن هذا وحده هو الخبر الذي وصل إليهم.

قرب المساء، أعاد ماردين إلى جروان آخر ورقة تحتاج إلى ختمه.

قرأ الملك السطر الأول، ثم ضغط الخاتم في الشمع.

سأل:

— ومن بقي على الطريق؟

ذكر ماردين اسم الرسول.

أومأ جروان.

لم يعد إلى رسالة أردان.

◆

عند الطريق القديم في رهفان، توقفت عربة صغيرة أمام الحاجز.

حملت أقفاص دجاج، وثلاث سلال بصل، وامرأة غاضبة لأن الحارس طلب منها العودة بعدما قطعت نصف النهار. قالت إن السوق في الجهة الأخرى أقرب إلى بيتها من السوق الذي يريد إرسالها إليه، وإن الدجاج لا يفهم أوامر إصلاح الجسور.

وقف الحارس يسمعها، وقد أعاد الجملة نفسها مرتين.

وصل ضابط من عند المخزن.

نظر إلى العربة، ثم إلى الطريق خلفها.

لم تكن هناك عربات أخرى.

أمر بتركها تعبر.

تحركت المرأة قبل أن يغير رأيه. رفعت طرف ردائها عن العجلة، وضربت البغل ضربًا خفيفًا، وظلت تتحدث وهي تبتعد، حتى لم يبقَ من كلامها إلا نبرة احتجاج يحملها الهواء.

انتظر الرجال وصولها إلى المنعطف.

ثم سحبوا العارضة إلى وسط الطريق.

ثُبت طرفاها، ووُضعت خلفها عربة فارغة لم يعد أحد يحاول إصلاح محورها. عند المخزن، انطفأ المصباح المعلق فوق الباب، وبقي ضوء ضعيف في الداخل.

أخرج الضابط أمرًا مطويًا من جيبه، وراجعه للمرة الأخيرة.

كان يحمل ختم نيرفا.

أعاده إلى موضعه، ثم رفع يده إلى الحارس عند المنحدر.



اختفى الرجل بين الأشجار.

بعد قليل، وصل صوت احتكاك جلد بحديد، وخطوات حاول أصحابها تثبيتها فوق أرض لا يعرفون حفرها.

وقف رجال في الظل وراء المنعطف الآخر، ينتظرون الإشارة.

لم تُرفع فوق رؤوسهم راية.

◆

كان الحارس يبدل فتيل المصباح حين سمع الحصان.

رفع رأسه نحو الطريق، وبقي الزجاج في يده. لم تكن دورية الفجر تعود بهذه السرعة، ولم يكن من عادوا يحتاجون إلى ضرب الدابة عند المنحدر الأخير؛ كانت الخيل تعرف موضع الإسطبل، وتبطئ من تلقاء نفسها عند الحجارة الزلقة تحت البرج.

خرج الحصان من بين الأشجار وحده.

تدلى أحد الركابين قرب بطنه، وضربت السيور جانبه مع كل خطوة. عند البوابة، توقف ورفع رأسه، ثم أخذ يدور كأنه ينتظر من يأخذ لجامه.

نزل الحارس درجتين ونادى من في الفناء.

خرج ثلاثة رجال.

عرف أحدهم الحصان قبل أن يصل إليه. أمسك اللجام، ثم مرر يده على السرج. حين أعادها، بقي عليها أثر داكن لم يجف.

لم يكن الدم من الدابة.

أُغلق الباب الصغير، وصعد رجل إلى أعلى البرج.

امتد الطريق الشرقي أمامه بين تلتين منخفضتين، يعبر جسرًا حجريًا ثم يختفي في أرض يغطيها الشجر. في الأيام الصافية، كان يستطيع رؤية عربة قبل أن تبلغ الجسر بوقت يكفي لإنهاء طعامه والنزول لاستقبالها.

لم يرَ عربة.

رأى رجلًا عند حافة الطريق.

كان يمشي ثم يتوقف، ويستند إلى رمحه كما لو أنه يستخدمه عصًا. لوّح الحارس له، لكن الرجل لم يرفع رأسه.

أمر قائد الموقع بفتح الباب.

خرج اثنان وعادا به بينهما.

بقيت يده مقبوضة على الرمح حتى أجلسوه قرب البئر. انكسر طرفه، وتعلق في الشق خيط من قماش لم يكن من ثيابه. حين حاول أحدهم فك الدرع عنه، أمسك معصمه وهز رأسه.

سأله القائد عن بقية الدورية.

فتح الرجل فمه، ثم سعل.

خرج مع الهواء دم قليل.

قال شيئًا عن الجسر.

انحنى القائد ليسمعه.

في أعلى البرج، سقط الزجاج من يد الحارس.

لم يسمع الرجال تحطمه بوضوح. غطى عليه صوت اصطدام حاد عند السور، ثم صرخة قصيرة من جهة الدرج.

نظر القائد إلى أعلى.

كان الرجل الذي صعد للمراقبة قد اختفى خلف الحافة.

جاءت السهام التالية فوق الباب.

أصاب أحدها حافة البئر، وانغرس آخر في الخشب الذي عُلقت عليه الدلاء. جذب القائد المصاب إلى الظل، وصرخ في الرجال أن يحملوا الدروع.

لم يكتمل الأمر حتى ضُربت البوابة.

ركض الحارس إلى درج البرج. لم يعد يحمل المصباح؛ أخذ من عند الباب شعلة، وصعد بها إلى الموضع الذي أُعدت فيه حزمة الزيت والقش للإنذار.

في منتصف الطريق وجد زميله.

كان جالسًا على الدرجة، وقد استقر سهم تحت فكه. نظر إليه بعينين مفتوحتين، وحاول أن يتحرك حين سمع الخطوات.

أمسك الحارس بذراعه.

من الأسفل، صاح القائد باسمه.

ترك الرجل على الدرجة وصعد.

رأى الرايات حين بلغ السطح.

خرجت من وراء الأشجار قبل الصفوف التي تحملها. ظهرت رقاب الطيور الطويلة فوق الكتب المفتوحة، وارتفعت خلفها رؤوس الرماح متقاربة حتى ضاق بينها الطريق.

زافرين.

لم يكن ما يراه دورية أخطأت المعبر.

تحرك رجال يحملون الدروع نحو قاعدة البرج، بينما اندفع آخرون إلى الباب بعوارض ثقيلة. أبعد من ذلك، على الجسر الذي خرجت إليه دورية الفجر، كانت العربات تنتظر أن يُفتح الطريق.

انحنى الحارس خلف الحافة، ومد الشعلة إلى القش.

لم يشتعل.

أعاد المحاولة، فتصاعد دخان خفيف ثم انطفأ طرفه. كان الغطاء قد تحرك في مطر الليل، ووصل الماء إلى الطبقة العليا.

مزق القش بيديه حتى بلغ ما تحته.

اشتعلت خصلة صغيرة.

ألقى عليها قليلًا من الزيت، وتراجع حين ارتفع اللهب. في اللحظة نفسها، ضرب سهم الحجر قرب رأسه، وتناثر الغبار في عينيه.



بقي النار تلتهم الحزمة ببطء.

لم يعرف إن كان البرج التالي قد رآها.

في الفناء، أمر القائد بإخراج حصان من الباب الخلفي.

كان أصغر الجنود واقفًا قرب الإسطبل، يرتجف وهو يشد الحزام إلى الثقب الخطأ. تقدم القائد، أعاد تثبيته بيده، ثم دفعه إلى السرج.

ناولَه رقعة كتب عليها كلمات قليلة.

— إلى المحطة التالية. لا تتوقف عند الطريق.

نظر الجندي إلى الباب الذي بدأ يتشقق.

— وأنت؟

ضرب القائد خاصرة الحصان بكفه.

خرج الفتى قبل أن يسمع جوابًا.

أُغلق الباب خلفه، وسُحبت إليه الأكياس التي بقيت قرب الإسطبل.

بعد قليل، انكسرت العارضة الداخلية للبوابة الرئيسية.

تراجع المدافعون إلى مدخل البرج. لم يكونوا كثيرين بما يكفي لحماية الفناء والدرج معًا. وقف القائد أمامهم، وأخذ الدرع الذي سقط من يد المصاب قرب البئر.

في الأعلى، اشتعلت حزمة الإنذار أخيرًا.

ارتفع الدخان فوق الأشجار.

وعلى مسلك ضيق بين الحقول، بقي الفتى منحنياً فوق عنق حصانه، لا يعرف أن البرج الذي تركه ما يزال يقاوم، ولا كم سيبقى كذلك.

◆

وجدت سيراي أباها واقفًا عند النافذة.

كانت فوق المائدة أوراق لم تُفتح، وإلى جانبها طعام برد دون أن يُمس. التفت حين دخلت، ثم أشار إلى المقعد القريب منه.

لم تجلس.

قالت إن لديها أمرًا يحتاج إلى أن يسمعه وحده.

نظر إلى الباب، فأغلقه الخادم من الخارج.

انتظرت حتى ابتعد وقع خطواته.

كانت قد رتبت ما ستقوله بطريقة تبدأ بطلب لقاء، وتؤخر الاسم إلى اللحظة التي تعرف فيها أن أباها سيستمع. لكن الكلمات التي بدت ممكنة في غرفتها صارت أثقل أمامه.

قال أردان:

— أيتعلق بدار السرو؟

رفعت عينيها.

— جزئيًا.

أومأ، وانتظر.

مدت يدها إلى ظهر المقعد.

— هناك رجل…

طرق الباب.

لم يكن طرق خادم يستأذن في إدخال الطعام.

دخل قائد الحرس قبل أن يأذن الملك، وتوقف عند العتبة حين رأى سيراي. كانت في يده رقعة طُويت أكثر من مرة، وقد ابتل طرفها حتى انتشر الحبر عند الحافة.

قال:

— من الشرق، مولاي.

أخذها أردان.

قرأها واقفًا.

راقبت سيراي وجهه، ثم اليد التي خفضت الرقعة إلى جانبه.

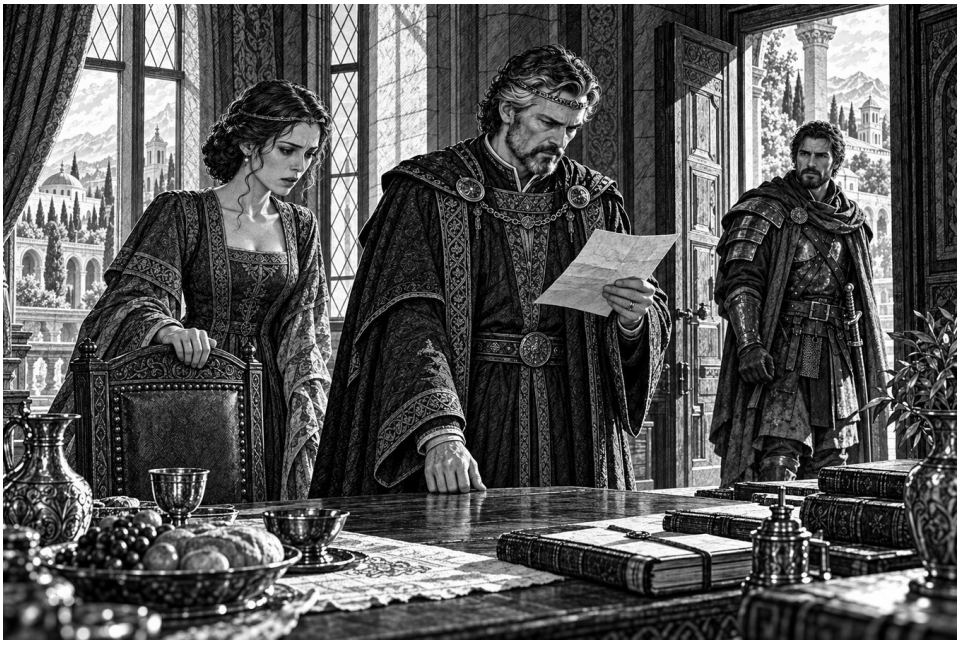

سأل عن حاملها.

أخبره القائد أن الإنذار نُقل بين محطات السعاة، وأن آخر رجل وصل ترك حصانه عند البوابة الخارجية لأنه لم يعد يستطيع صعود المنحدر.

تحرك الملك نحو المائدة.

— استدعوا المجلس. وقائد حرس العاصمة. ومن بقي من مسؤولي الحصون الشرقية.

تراجع الرجل.

أضاف أردان:

— وأحضروا خرائط الطرق، لا خريطة الحدود وحدها.

خرج قائد الحرس.

بقيت سيراي قرب المقعد.

قال لها أبوها:

— سنتحدث لاحقًا.

لم تسأله عمّا في الورقة.

رأت اسم زافرين حين وضعها تحت الضوء.

بعد أقل من ساعة، امتلأت الغرفة برجال لم يكمل بعضهم ارتداء ملابسه. فُتحت الخرائط، وحُملت السجلات من الديوان العسكري، ووقف الكاتب عند طرف المائدة بقلمين لأنه نسي أن يترك أحدهما.

لم تصل أخبار تكفي لمعرفة حجم الهجوم.

كان لديهم برج لا يجيب، ومعبر تعرض لهجوم، وشهادة عن رايات زافرين خلف الجسر. لم يعرفوا إن كانت القوة التي ظهرت مقدمة جيش أو حملة محدودة تريد احتلال موضع ثم فرض شروط.

قال أحد القادة إن عليهم استعادة المعبر قبل أن تتجمع القوات خلفه.

سأله أردان عمّن بقي داخله.

لم يعرف.

وعن العربات التي رآها الحارس.

لم يعرف عددها.

وضع الملك إصبعه على الطريق.

— نرسل من يعرف، ونحمي ما يمكن حمايته الآن.

أمر باستدعاء الاحتياط القريب من العاصمة، وإرسال إنذار إلى القرى الواقعة على الطرق الشرقية. تُفتح المخازن للحاميات التي لا تكفيها مؤنها، وتتحرك وحدتان إلى المعابر الداخلية قبل أن تصل إليها طلائع العدو.

لم يسمح بسحب الحرس من جميع الجهات.

كان دارن في الغرب، ولم يعد بتقريره بعد.

وصل مهراز أثناء إعداد الأوامر.

لم يحمل لفافة الترميم هذه المرة.

وقف قرب الباب، وأصغى إلى ما عرفوه. حين انتهى الكاتب من قراءة أسماء الوحدات، سأله أردان عمّن يستطيع إبقاءه في الأرشيف.

ذكر الموظفين والعمال المسؤولين عن موضع الفحص.

قال الملك:

— تُحفظ السجلات التي لا نسخة لها في الغرف الداخلية. وتُراجع المفاتيح بحضورك.

— والعمل في الجدار؟

نظر أردان إلى الرقعة المبتلة.

— يبقى من تحتاج إليه. أما الفضوليون، فلا مكان لهم اليوم.

قبل الظهر، وصل رسول زافرين.

دخل يحمل غلافًا نظيفًا، لم تصبه وحول الطريق الذي خرج منه الإنذار. جاء في الرسالة حديث طويل عن الحقوق، وعن منع المعاينة، وعن إجراءات اتخذها جروان لحماية مصالح مملكته بعد تعذر الوصول إلى تفاهم.

قرأ الكاتب حتى النهاية.

لم يُسمع في الغرفة إلا احتكاك الورقة بين أصابعه.

طلب أردان معرفة اليوم الذي سُلّمت فيه الرسالة إلى الرسول.

أجاب الرجل.

كان جروان قد أرسلها قبل أن يهاجم البرج، لكنه لم يمنحها وقتًا يكفي لتصل قبل جنوده.

سأل الرسول إن كان الملك يريد جوابًا.

نظر أردان إليه.

— ستأخذه حين أعرف أيّ رجالنا بقي حيًّا ليحمله كلامك.

لم يأمر بإهانته.

طلب أن يُنقل إلى دار الضيافة، وأن يُمنع من مغادرتها حتى يُستكمل الحديث معه.

خرج الرسول بين حارسين.

وفي الممر، وقفت سيراي عند النافذة التي تطل على الفناء. رأت السعاة ينزلون الدرج، كل واحد يحمل طريقًا مختلفًا في حقيبته.

بقي اسم سايرن معها.

لم تنطقه لأحد.

◆

كانت نار الموقد باردة حين وصل دارن إلى محطة المراقبة.

ترجل قبل الباب، وترك لجام حصانه لأحد مرافقيه. لم تكن المحطة كبيرة؛ غرفة للحرس، وإسطبل يتسع لأربع دواب، وسقيفة ينام فيها السعاة إذا أغلق المطر الطريق.

في سجلها ستة رجال.

لم يخرج واحد منهم حين نادى.

دخل دارن.

وجد قدحًا مقلوبًا قرب الموقد، وقطعة خبز فوق المقعد، وسكينًا صغيرًا انكسر عند موضع اتصال النصل بالمقبض. على الأرض، امتد أثر جرّ حتى الباب الخلفي ثم اختفى في التراب.

انحنى عند عتبة الإسطبل.

كانت القشة المحشورة تحت المفصل قد تشربت دمًا.

رفع رأسه إلى مرافقيه.

أشار إلى أحدهما أن يبقى قرب الخيل، وإلى الآخر أن يدور من الخارج دون أن يبتعد عن الجدار.

ثم فتح باب الغرفة الثانية.

سمع الحديد قبل أن يرى صاحبه.

رجع نصف خطوة، فمرت الضربة بمحاذاة صدره وأصابت إطار الباب. دفع الخشب بكتفه، لكن الرجل من الداخل لم يترك سيفه عالقًا. سحبه بحركة قصيرة وضرب مرة أخرى من أسفل.

تراجع دارن إلى الفناء.

خرج الرجل وراءه.

كان يرتدي معطفًا بلا علامة، ودرعًا خفيفًا أخفى جزءًا منه تحت القماش. لم يندفع كما يفعل من يريد إخافة عابر. تقدم بقدم ثابتة، وأبقى سيفه منخفضًا، تاركًا كتفه مكشوفة أكثر مما ينبغي.

من خلف السقيفة، ظهر رجلان آخران.

صاح أحد مرافقي دارن.

صار للخيل صوت مرتفع، ثم وقع شيء على الأرض.

لم يلتفت دارن.

رفع سيفه إلى كتف خصمه المكشوفة.

تحرك الرجل كما لو أنه كان ينتظر ذلك بالضبط. أدار معصمه، فلامس نصله سيف دارن من الخارج، ثم انزلق تحته باتجاه الذراع.

وصلت الضربة.

قطع الحديد كم المعطف، وشعر دارن بحرارة حادة فوق ساعده.

ابتعد قبل أن تتعمق.

لم يتبع الرجل أثر الدم بعينيه. عاد إلى الوقفة نفسها، والكتف نفسها متروكة أمامه.

دارن لم يرَ هذا الأسلوب من قبل.

كانت بدايته تشبه دفاعًا مألوفًا، لكن القدم الخلفية تتحرك في آخر لحظة إلى الداخل، فيتحول صد الضربة إلى جذب لذراع الخصم. تأخرت العين عن فهمه لأن السيف بدا كأنه عاد من الجهة التي خرج منها.

جرب الرجل الحركة مرة ثانية.

هذه المرة لم يطلب دارن الكتف.

ضرب الحافة، وتراجع، وأبقى بصره على القدم.

انغرس نصل خصمه في الفراغ الذي تركه قرب فخذه.

من جهة الإسطبل، سمع رفيقه يطلب منه الانحناء.

هبط دارن، ومر سهم قصير فوق رأسه، ثم ارتطم بالجدار. تحرك الرجل المقابل ليغلق عليه طريق النهوض.

رفع دارن سيفه.

وجدت يده زاوية لم يكن يستخدمها.

أحسها غريبة في المعصم، كأن مفصلًا قد وُضع في موضعه بعد أن ظل عالقًا. انتقلت قدمه قبل أن يكتمل التفكير، وأدار النصل بالحركة التي جرحته.

لكن خصمه كان ينتظر مقاومة، لا أسلوبه نفسه.

التقى السيفان، ثم انزلقت يد الرجل إلى الخارج.



أصابه دارن عند مفصل المرفق.

سقط السيف، ولم يسقط صاحبه.

اندفع الرجل بكتفه، فارتطم دارن بالحائط. صعد الألم في ساعده، وكادت قبضته تنفتح. أخرج خصمه خنجرًا بيده الأخرى، واحتاج دارن إلى ضربة بركبته كي يبعده مقدارًا يسمح بالسيف بينهما.

انتهت الحركة عند صدر الرجل.

بقي واقفًا لحظة، ثم انثنت ركبتاه.

لم ينظر دارن إليه طويلًا.

دار نحو الإسطبل.

كان أحد مرافقيه على الأرض، وقد أمسك ساق مهاجمه ومنعه من بلوغ الخيل. وقف الآخر عند المدخل، يصد رجلًا يحمل سكينًا عريضة وقوسًا قصيرًا.

تقدم دارن من الجانب.

رآه صاحب القوس، فتراجع نحو الأشجار.

لم يطارده.

أصاب الرجل الذي فوق رفيقه، ثم جذبهما بعيدًا أحدهما عن الآخر. كان الجرح في فخذ الحارس ينزف بسرعة، فركع وضغط عليه بقطعة من المعطف الذي شقه السيف.

ظل معصمه يرتجف وهو يعقد الرباط.

لم تكن الحركة التي أخذها من خصمه قد صارت ملكًا له كما تصير حركة يتدرب عليها أعوامًا. عرف طريقها، لكن ذراعه دفعت ثمن الوصول إليه على عجل.

أبقوا المصاب داخل الغرفة، ثم فتشوا المحطة.

وجدوا اثنين من الحرس خلف الإسطبل.

كان أحدهما ميتًا.

أما الآخر فظل يتنفس، مربوط اليدين تحت غطاء خشن. حين رفعوه، حاول أن يقول شيئًا، لكن فمه كان متورمًا إلى حد جعل الكلمات تتداخل.

سقوه قليلًا.

قال إنهم جاءوا ليلًا من الطريق الغربي. لم يكونوا قطاع طرق؛ عرفوا عدد الحرس، وسألوا عن مواعيد السعاة، وأخذوا سجل الإشارات قبل أن يأخذوا أي شيء آخر.

في الغرفة الداخلية، وجد دارن نسخة من السجل عليها علامات جديدة، ومواعيد لم يكتبها رجال المحطة.

كان ذلك ما أراد حمله إلى الملك.

لفّه في قماش جاف، وأعطاه لمرافقه القادر على الركوب.

— إلى تيرافا. لا تستخدم المحطة التالية قبل أن تراها من الخارج.

نظر الرجل إلى ذراعه.

— وأنت؟

شد دارن الرباط بأسنانه، ثم أخذ السيف من الأرض.

— أُخرج هذين من هنا.

انطلق الحارس.

بقي دارن يستمع إلى وقع حوافره حتى ابتعد، ثم عاد إلى المصابين.

فوق السقيفة، تحرك لوح في الريح.

رفع عينيه إليه، ووضع يده على السيف قبل أن يعرف أن الصوت من الخشب.

◆

عاد سايرن في اليوم الخامس، فوجد باب الحصن مغلقًا.

لم يكن الوقت مساءً.

وقف أمامه صف من العربات الصغيرة، ونساء يحملن أغطية وأطفالًا، ورجل جاء بثور مربوط إلى عربة لا تحمل إلا صندوقًا وبابين نزعهما من بيته.

عند الخندق، جلس صبي يمسك دجاجة تحت ذراعه. كانت تنقر كمّه كلما حاول تعديل قبضته، لكنه لم يتركها.

أخرج سايرن علامة الحامية.

عرفه الحارس بعد أن قرب وجهه من الفتحة.

نادى إلى الداخل، ثم فُتح الباب مقدارًا يسمح لرجل واحد.

دخل سايرن، والتفت إلى الناس خلفه.

— منذ متى ينتظرون؟

قال الحارس إنهم يفتشون العربات، وإن الفناء لا يتسع لها كلها.

سمع هارث صوته فجاء من عند المخزن.

كان يرتدي الدرع هذه المرة.

نظر إلى حقيبته، ثم إلى وجهه.

— في اليوم الخامس.

أومأ سايرن.

— بقي من النهار ما يكفي.

— سنستخدمه.

لم يسأله عن العاصمة.

أخذه إلى الممر العلوي، وأراه الطريق تحت الحصن. خرجت منه عربات متتابعة، لم تكن تسير بالنظام الذي عرفه في أيام نقل القمح. ترك بعض أصحابها الأمتعة حين تعطلت العجلات، وصاروا يحملون ما يستطيعون على ظهورهم.

أخبره هارث أن قرى غربية رأت رجالًا مسلحين يتحركون خارج الطرق المعتادة. وصل أحد حراس المعبر مصابًا، ثم انقطع الخبر من الجهة نفسها.

لم يعرفوا لمن تتبع القوة.

وكان أمر التحذير الذي جاء من العاصمة يتحدث عن زافرين في الشرق.

بقي سايرن ينظر إلى الطريق.

لم يجمع الخبرين في جواب.

سأل عن عدد الرجال، ثم عن الماء والمؤن ومن بقي خارج الباب.

أجابه هارث دون أن يسأله لماذا يحتاج إلى ذلك كله.

نزلا معًا.

أُدخل الناس على دفعات، وفُصلت دوابهم في الفناء السفلي. طلب سايرن إخلاء الممر المؤدي إلى البئر، ونقل أدوات النجار من تحت الدرج إلى مكان لا يعترض الجنود.

حاول رجل إبقاء عربته قرب باب المخزن.

أمسك سايرن أحد طرفيها ودفعها مع عاملين حتى بلغت الحائط.

لم يرفع صوته.

لكن الرجل تركهم يفعلون.

عند الظهر، وصل آخر أفراد الدورية.

لم يحمل خوذة.

كان شعره ملتصقًا بجبهته، وفي كتفه موضع سهم نُزع على عجل. قال إن القوة اقتربت من المنعطف الكبير، وإن رجالًا منها يصعدون منحدرًا لا تستخدمه العربات.

صعد هارث إلى السور.

رأى أول الدروع بين الشجيرات.

بعد قليل، جاء سهم إلى الفناء.

سقط قرب كيس حبوب، وظل يهتز في التراب.

توقفت الأصوات حوله لحظة، ثم اندفع الناس نحو الجدران.

أمر هارث بإدخال المدنيين إلى المخزن الذي أُصلح سقفه. أخذت امرأة تجمع الأطفال بأسمائهم، بينما ساعد النجار رجلًا لا يستطيع السير دون عكازه.

أمسك سايرن الباب حتى دخل آخرهم.

في الداخل، كانت الألواح التي طلب وضعها تحت القمح قد جُمعت إلى الجوانب. جلس الناس فوقها، بعيدًا عن رطوبة الأرض.

نظر إليها لحظة، ثم أغلق الباب دون أن يضع العارضة؛ لا بد أن يبقى لهم مخرج إذا اشتعل الخشب.

جاءت الضربة الأولى إلى البوابة عند آخر الظهر.

لم تكن قوة تكفي لإسقاط حصن كبير، لكن حصن هارث لم يكن كبيرًا. اقترب المهاجمون تحت دروعهم، وبلغ آخرون الجدار عند الموضع الذي يخفيه انحدار الأرض عن الرماة.

انشغل المدافعون بالباب.

أشار سايرن إلى الطرف البعيد.

رآه هارث، ونقل إليه أربعة رجال.

وصلوا قبل أن تستقر أول سلّم.

دفعوها، فسقطت بمن عليها.

أما الثانية فوجدت موضعًا بين حجارتين بارزتين. صعد رجل خلف درعه، وأخذ الضربات على حافته حتى بلغ أعلى الجدار.

ارتد أحد المدافعين.

ثم آخر.

كان سايرن عند أسفل الدرج حين سمع هارث يأمرهم بالتراجع إلى الدعامة. صعد نصفه، فرأى رجلين من الحامية عالقين وراء المهاجم، وثالثًا سقط قرب رزم السهام.

ثبت الممر تحت أقدامهم.

الدعامة المائلة التي أضافوها لم تتحرك.

لكن الرجال فوقها لم يجدوا متسعًا للمرور.

التقط سايرن رمحًا سقط عند الدرج.

برد الخشب في راحته.

لم يحتج إلى اختبار وزنه طويلًا.

صعد، وضرب بطرفه أسفل درع المهاجم، عند الركبة التي لم تُخفها الحافة. انثنت الساق، فاندفع الرجل إلى الأمام. لم يحاول سايرن حمله أو صد وزنه؛ أدار الرمح، وتركه يسقط إلى الجهة الخالية من الممر.

ظهر رأس ثانٍ فوق السور.

ضرب أصابعه، ثم دفع السلّم بعيدًا بالحافة الخشبية للرمح.

انزلقت من موضعها مقدارًا قليلًا.

لم تسقط.

كان من تحتها يثبتها.

صاح في الجندي القريب أن يساعده، وأشار إلى الحبل الملفوف حول رزم الخشب. احتاج الرجل إلى لحظة ليفهم، ثم رماه حول أعلى السلّم.

شدّ الاثنان.

جاء سهم من الخارج، فدخل في العضد التي مدت الحبل.

أفلت الجندي.

تحرك سايرن وحده ليكمل الجذب.

شدّ الألم جنبه حتى انقطع نفسه.

بقي الرمح تحت ذراعه، والحبل في يده، ولم يعد يستطيع فعل الأمرين معًا.

وصل هارث.

أخذ الحبل، وجذب معه رجلًا آخر.

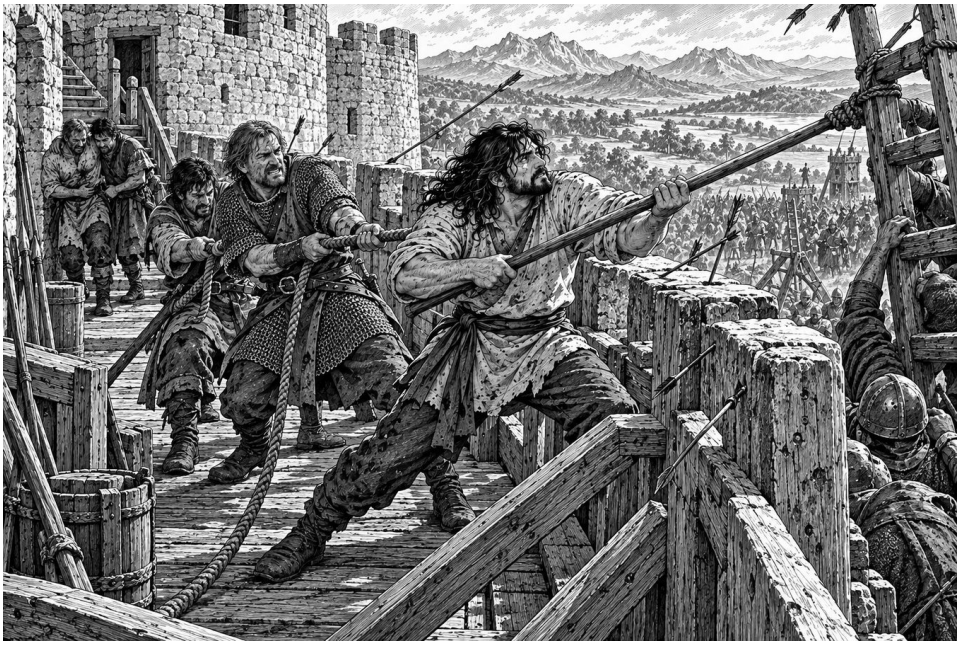

مالت السلّم وسقطت بعيدًا عن الجدار.

أشار سايرن إلى الجنديين العالقين.

— الآن.

عبرا فوق الخشب، وأمسك أحدهما بالمصاب قرب السهام. أخذ سايرن الطرف الآخر، وسحبوه إلى الدرج.

عند الدرجة الثالثة، خانته ساقه.

اصطدم كتفه بالحائط، لكنه أبقى الرجل فوقها حتى وصل من يأخذه.

لم يرَ ما حدث عند البوابة بعد ذلك.

سمع هارث يعطي الأوامر، وسمع الرجال يكررونها. جاءت ضربة أخرى، ثم خفتت الضربات وتباعدت. بقي الرماة على السور حتى اختفت آخر حركة بين الأشجار.

لم يفتحوا الباب.

لم يكن أحد يعرف إن كان المهاجمون قد انسحبوا أو ابتعدوا لينتظروا الليل.

جلس سايرن تحت الدرج.

أراد أن يضع الرمح إلى جانبه، فوجد أصابعه لا تنفتح بسهولة.

فكها بيده الأخرى.

وقف هارث أمامه بعد قليل.

كان في درعه انبعاج جديد، وعلى خده دم لم يعرف سايرن إن كان دمه.

نظر الضابط إلى الرمح.

ثم إلى الرجال الذين أُنزلوا من الممر.

قال:

— لم تتعلم هذا عند العربات.

رفع سايرن رأسه.

لم يجد جوابًا يصلح لما رآه الرجل.

انحنى هارث، ووضع بجانبه قدح ماء.

— لا أريد جوابًا الآن. أريد أن أعرف إن كنت تستطيع الوقوف إذا عادوا.

نظر سايرن إلى الباب، ثم إلى يده الموضوعة على جنبه.

— بعد قليل.

لم يعده بأكثر.

◆

كان رائف يقيس إطار نافذة حين بدأت الأجراس.

رفع رأسه، وانتظر أن يتبع الصوت نداء يعرفه.

لم يتبعه نداء.

جاءت أجراس أخرى من جهة البوابة الشرقية، ثم ظهر الجنود عند طرف الساحة، يطلبون إخلاء الطريق للعربات.

وقف نائل قرب النافورة.

رأى الناس يتقدمون نحو الأوراق المعلقة عند الجدار، ثم يتراجعون ليفسحوا لمن يقرأ. انتقلت الكلمات بينهم أسرع مما يستطيع سماعها كاملة: المعبر، زافرين، الحرس، القرى.

نزل رائف عن السقالة.

وصل صاحب الورشة يحمل أمرًا مختومًا. طلب منهما جمع الأدوات، وقال إن بعض العمال سيذهبون إلى السور، والبقية إلى مبنى قديم يُفتح لاستقبال الوافدين.

سأل نائل عمّن سيذهب إلى الشرق.

لم يجبه أحد.

عاد إلى النزل فوجد أوران يربط حقيبته الصغيرة.

كانت العصا المعدنية قرب الباب.

أخذها نائل.

نظر الشيخ إلى يده، ثم إلى وجهه.

قال الفتى إنه يستطيع القتال، وإن البقاء في المدينة لا يساعد من هوجموا.

تركه أوران يكمل.

من النافذة، عبر صوت عربة، ثم سمعا رجلًا يطلب من الناس إفساح الطريق للمصابين.

قال الشيخ:

— أين تحتاج إليك المدينة الآن؟

فتح نائل فمه.

لم يكن يعرف.

أخبره عن أمر صاحب الورشة.

أعاد أوران الحقيبة إلى كتفه، وأشار إلى الباب.

— نذهب إليه.

— وإلى الحدود؟

— تحتاج إلى جيش يعرف أين يقف. وصديقك يحتاج إلى يد أخرى قبل أن يصل الناس.

سارا إلى المبنى الذي خصصه المجلس للوافدين.

كان دارًا قديمة للتجار، لها فناء وغرف واسعة استخدمت خلال الشتاء لتخزين الأقمشة. تراكمت فيها صناديق لا تخص أصحابها الحاضرين، ورفوف أُغلقت بمفاتيح ذهب أصحابها إلى مدن أخرى.

لم ينتظر صاحب الورشة المفاتيح كلها.

بدأ بما يمكن نقله.

حمل نائل الألواح، وفتح رائف نافذتين علقتا من الرطوبة. فحص أوران موضعًا يسرب الماء قرب الحائط، ثم طلب إبعاد الفراش عنه قبل أن يوضع.

وصلت العائلات قبل أن ينتهوا.

دخل رجل يحمل طفلين؛ واحدًا نائمًا فوق كتفه، والآخر متعلقًا بحزامه. تبعته امرأة تحمل كيسًا لا تبدو فيه ملابس تكفيهم جميعًا.

سألت عن غرفة.

لم تكن هناك غرف لكل عائلة.

أشار لها نائل إلى موضع قرب النافذة التي فتحها رائف، ثم عاد يحمل لوحًا ليصنع حاجزًا بينها وبين الممر.

جاءت امرأة أخرى، فسألته لماذا أخذت الأولى ذلك الموضع.

توقف واللوح في يده.

كان الهواء يصل إلى الجهة القريبة من النافذة وحدها، وبقية الغرفة رطبة.

نظر إلى أوران.

لم يتقدم الشيخ ليجيب عنه.

أنزل نائل اللوح، وطلب من رائف مساعدته في فتح النافذة الثانية من الخارج. احتاجا إلى إزالة مسمارين صدئين، ثم دفع الإطار حتى انكسرت قطعة صغيرة من حافته.

دخل الضوء.

لم يحل ذلك كل شيء.

لكنه منحهم موضعًا آخر يصلح للفراش.

عند الباب، جلس جندي مصاب يحاول فك رباط حقيبته. كانت إحدى ذراعيه مثبتة إلى صدره، والأخرى ترتجف كلما رفعها.

جثا نائل وفك العقدة عنه.

وجد في الحقيبة حذاءً صغيرًا، ووعاءً، وقميصًا مطويًا بعناية لا تشبه بقية ما فيها.



أعاد إغلاقها دون سؤال.

طلب الجندي أن يضعها قربه حيث يستطيع رؤيتها.

فعل.

في آخر النهار، سألته طفلة عن الطريق إلى قريتها.

قالت اسمًا لم يسمعه من قبل.

نظر إلى أمها، فرأى المرأة تهز رأسها من خلفها.

خفض نائل عينيه إلى الطفلة.

— لا أعرف إن كان الطريق مفتوحًا.

— غدًا؟

لم يقل نعم.

جلس قربها حتى جاءت أمها، ثم نهض ليحمل دلوًا إلى الداخل.

كانت راحتاه تؤلمانه.

وجد أوران عند البئر، يلف قطعة قماش حول مقبض الدلو الذي شق أصابعه. أخذ منه الفتى الطرف وثبته.

قال بعد قليل:

— ليس عندنا ما يكفي.

نظر الشيخ إلى صف الأوعية.

— كم بقي في الغرفة العليا؟

— لم نعدّهم.

ناولَه أوران الدلو.

عاد نائل مع رائف.

عدّا الناس، ثم الفراش والأغطية. كتب رائف ما ينقص في ورقة، ومضى بها إلى المسؤول عند الباب. أما نائل فأخذ يضع الحصص الصغيرة حيث يسهل توزيعها، ويعيد من أخذ مرتين إلى آخر الصف.

غضب منه رجل.

شكره آخر.

لم يشعر بأنه صار يفهم كيف تُبنى مملكة.

لكنه صار يعرف أن إعطاء الجواب أسهل من إيجاد الغطاء الذي يحتاج إليه صاحبه.

حين انتهى، وجد العصا المعدنية في الزاوية التي تركها فيها صباحًا.

حملها، ثم عاد ليأخذ دلوًا نسيه قرب الباب.

◆

وصل إنذار دارن إلى القصر بعد خروج أولى الوحدات إلى الشرق.

كان وقع حوافرها ما يزال يتردد في الشوارع حين دخل مرافقه غرفة المجلس. وقف بصعوبة، ووضع القماش الملفوف فوق المائدة، ثم أخبرهم عن محطة المراقبة ورجالها.

فتح أردان السجل.

رأى مواعيد السعاة، والعلامات المضافة عند المواضع التي ينبغي أن يتوقفوا فيها.

سأل عن دارن.

— يُخرج المصابين، مولاي. أمرني أن أصل قبله.

نظر الملك إلى قائد حرس العاصمة.

لم يحتج إلى تكرار السؤال الذي طرحه في الصباح عن الغرب.

أمر بإيقاف الوحدات التي لم تغادر، ثم طلب أسماء الحصون التي تقع بين المحطة وتيرافا.

ذُكر حصن هارث بينها.

بعد ذلك بوقت قصير، وصل خبر من معبر غربي آخر.

لم يكن تقريرًا كاملًا.

كان ثلاثة رجال، أحدهم حارس حدود، والثاني سائقًا فقد عربته، والثالث جنديًا استطاع الانسحاب مع اثنين من رفاقه ثم تفرقوا في الطريق.

استُمع إلى كل واحد منهم وحده.

اختلفوا في الأعداد.

واختلفوا في الموضع الذي بدأت فيه القوة تتفرع عن الطريق.

لكنهم اتفقوا على الجهة التي جاءت منها.

أراضي رهفان.

قال الحارس إنه رأى رجال المعبر يرفعون الحاجز قبل وصول الصفوف، وإن أول من مرّ كانوا يعرفون أسماء الضباط الواقفين هناك.

أما الجندي، فذكر راية ظهرت بعد عبور القوة إلى أرض إيفارا.

طائر طويل المنقار فوق كتاب مفتوح.

سأله القائد إن كان قد رأى علامة رهفان أيضًا.

أومأ.

لم تكونا فوق الصف نفسه، لكنهما تحركتا على الطريق نفسه.

أُعيد فتح خريطة الغرب.

أزاح الكاتب أوراقًا وُضعت عليها منذ الصباح، فظهرت الطرق التي ظلت طوال المجلس خارج موضع الأثقال.

وقف أردان أمامها.

الجيش الذي أرسله إلى الشرق كان يواجه زافرين.

والقوة التي خرجت من رهفان تحمل رجال زافرين معها.

لم يعد الأمر خلافًا على غرفة مغلقة في الأرشيف.

في هاروك، قبل ذلك بأيام، كانت مخازن قد أُفرغت، وطرق أُغلقت، وقوائم وصلت منفصلة حتى لا يرى من ينفذ واحدة منها ما تحمله الأخرى. الجنود الذين غادروا زافرين دون رايات لم يكونوا متجهين إلى الجبهة التي ينتظرهم عندها رجال إيفارا.

كان هذا هو النصف الآخر من المعاهدة.

ما منحته رهفان لجروان لم يكن وعدًا بالوقوف إلى جانبه حين تبدأ الحرب.

منحته طريقًا يدخل منه إلى الجهة الأخرى من المملكة.

قال أحد القادة إن عليهم إعادة الوحدة التي خرجت أخيرًا.

قال آخر إن المعابر الشرقية ستُترك دون قوة تكفي إذا فعلوا.

طلب أردان عدد الرجال القادرين على التحرك قبل الليل.

أُعطي رقمًا.

ثم سأل كم يبقى منهم بعد حماية أبواب تيرافا والمخازن والطريق إلى القرى.

صار الرقم أصغر.

عند المائدة، وضع الكاتب رقعتين جديدتين.

واحدة في الشرق.

وأخرى في الغرب.

لم يكن بينهما من الجنود ما يكفي لكل ما طُلب منهم.

مدّ أردان يده إلى أمر التعزيزات الذي لم يجف ختمه بعد.

أوقف الرسول قبل أن يأخذه.

— انتظر.

رفع الرجل رأسه.

بقي الملك ينظر إلى الطريقين، وفي الفناء تحت النافذة كانت الخيل المسرجة تضرب الحجارة بحوافرها، تنتظر أن يختار لها واحدًا.



لم يترك أردان الرسول واقفًا طويلًا.

سحب أمر التعزيزات من تحت يده، وكسر طرف الشمع الذي بدأ يتصلب عند الطية. طلب من الكاتب ورقة أخرى، ثم أعاد النظر إلى الخريطة.

كانت الوحدتان المتجهتان شرقًا قد تجاوزتا أولى القرى. إعادتهما تحتاج إلى ساعٍ يلحق بهما، ثم إلى رجال يديرون العربات في طريق ضيق، ثم إلى نهار آخر ينتهي وهم بين الجهتين.

أبقى إحداهما على أمرها. أما الثانية، فطلب أن تتوقف عند المعبر الداخلي، وألّا تتقدم حتى تعرف ما بقي من الحاميات أمامها.

بعد ذلك نقل الثقل الموضوع فوق الغرب.

لم يضعه عند الحدود.

وضعه عند جسر تعبر منه الطريق قبل أن تتسع نحو تيرافا.

اقترب قائد الحرس من المائدة.

قال إن الحصون الواقعة وراء الجسر ستبقى معزولة إن توقف الدفاع عنده.

نظر أردان إلى أسمائها. بعضها بُني لحراسة العابرين وجمع الرسوم، وبعضها اتسع حين ازدادت التجارة حتى صار أهل القرى يلجؤون إليه في الشتاء. لم تُبنَ كلها لتنتظر جيشًا يأتي من الجهة التي ظلت آمنة أعوامًا.

سأل عن أكبرها.

أجابه القائد.

وعن مقدار ما يستطيع إرساله إليه قبل الليل.

تأخر الجواب.

أزاح الملك الثقل عن الجسر، ثم أعاده.

— لا نطلب منهم أن يبقوا حتى ينقطع الطريق.

بدأ الكاتب يسجل.

تتراجع المواقع التي لا تستطيع الثبات إلى الجسر الحجري عند الطاحونة القديمة. يُنقل المصابون أولًا، وتخرج معهم المؤن التي يمكن حملها. تُترك في كل موقع قوة تكفي لحماية الانسحاب، ولا تُنتظر أوامر أخرى إذا ظهرت قوات العدو خلفه.

رفع أحد الجالسين إصبعه إلى قرى صغيرة خارج الخط.

— وهؤلاء؟

طلب أردان إرسال العربات إليهم.

قال المسؤول عن النقل إن العربات نفسها مطلوبة لحمل السهام والطعام، وإن بعض أصحابها أخذوا دوابهم إلى الريف منذ الصباح.

لم يغضب الملك.

سأل عن عربات القصر.

رفع الرجل رأسه.

— بعضها لا يصلح للمؤن.

— يصلح للناس.

شُطبت أسماء من سجل الرحلات، وأُرسلت أوامر إلى الإسطبلات. بقيت عربة واحدة لسيراي والعاملين معها، ثم طلب أردان إدراجها هي أيضًا بعد إيصال ما تحمله إلى دار الاستقبال.

عند آخر النهار، وصل رجل من مرافقي دارن يقود دابتين.

كان أحد المصابين مربوطًا فوق السرج بقماش عريض، وأُسند الآخر إلى كتف جندي يمشي إلى جانبه. سبقهم خبر المحطة، لكن رؤية الرجال جعلت بعض الحاضرين يخرجون من غرفة المجلس قبل أن يُطلب منهم ذلك.

لم يعد دارن معهم.

بقي عند موضع تلتقي فيه طريق المحطة بالمسلك المؤدي إلى الحصون الغربية، ينتظر قوة طلبها من أقرب حامية.

كتب أردان إليه أمرًا قصيرًا.

يؤمّن موضع العبور ما استطاع، ويجمع أخبار المواقع التي فقدوا الاتصال بها، ويمنع المنسحبين من التفرق قبل وصولهم إلى الجسر.

طُويت الورقة منفصلة عن أوامر الحصون.

حين خرج آخر السعاة، بقي المسؤول عن النقل قرب المائدة، يعد القرى على أصابعه ثم يعيد العد.

سأله الملك عمّا بقي.

— قريتان لن تصل إليهما العربات قبل الظلام.

نظر أردان إلى النافذة.

كان الضوء قد انخفض عن الفناء.

— يخرج إليهما رجال يعرفون الطريق. من يستطيع المشي يبدأ الآن.

أومأ الرجل، لكنه لم يغادر فورًا.

عرف الملك ما لم يقله.

لم يكن كل من في القريتين يستطيع المشي.

◆

وجدوا السهم الأخير مغروسًا في باب المخزن.

نزعه النجار بملقط، ثم بقي يفحص الخشب حوله، كأن إصلاح الثقب عمل يمكن إنجازه قبل أن تأتيهم بقية الأعمال.

في الداخل، نام بعض الأطفال رغم الأصوات. جلس رجل قرب الباب يمسك يد زوجته، بينما راحت امرأة تفرد الثياب المبتلة فوق أكياس فارغة. لم يعرفوا إن كان في الإمكان العودة إلى الفناء، ولم يرد أحد أن يكون أول من يسأل.

كان سايرن في غرفة هارث.

أُضيء مصباح واحد، ووُضع قرب الحائط حتى لا يظهر من النافذة. رفع ثوبه عن جنبه ببطء، ونظر إلى البقعة التي اتسعت فوق الضماد.

لم ينفتح الجرح كما خاف.

لكن موضعه انتفخ، وصارت كل حركة تمتد منه إلى أسفل ظهره.

غسل يديه، ثم أخذ القماش الذي تركه له هارث. حاول لفه وحده، فاضطر إلى الجلوس. عند اللفة الثانية دخل الضابط، ووضع على المائدة سجلًا صغيرًا وقطعة خبز.

رأى القماش في يده.

اقترب دون سؤال، وأمسك الطرف حتى استطاع سايرن شده.

قال:

— لو كنت أعرف أنك ستعود لتفسد ما أصلحه غيري فيك، لأعطيتك يومًا سادسًا.

حبس سايرن نفسه حتى استقرت العقدة.

— كان سيضيع عليك عامل جيد.

نظر هارث إلى الدم، ثم إلى وجهه.

— ما زلت أحاول أن أعرف أيّ عمل تجيده أكثر.

تركه يرتدي ثوبه، وجلس عند المائدة.

فتح السجل.

كان يعد رجاله منذ انحسار الهجوم. بعضهم يستطيع الوقوف ولا يستطيع شد القوس، وبعضهم يقول إن جرحه صغير ثم يعجز عن رفع الذراع حين يُطلب منه ذلك. لم يكتب هارث ما قالوه عن أنفسهم. كتب ما رآه.

دفع السجل نحو سايرن.

لم يلمسه الأخير فورًا.

كانت الأسماء مكتوبة بخط غير منتظم، وإلى جانب كل اسم علامة أو كلمتان. عرف الرجال الذين عمل معهم عند المخزن. وجد اسم النجار في آخر الصفحة، مع أنه لم يكن من الحامية.

قال هارث:

— يستطيع حمل رمح.

— ويستطيع إصلاح عربة.

أعاد سايرن السجل.

— سنحتاج إليه في الأمرين.

وصل الأمر بعد ذلك بقليل.

جاء به فارس ترك الطريق قبل الحصن، وأكمل بين الحقول حين رأى حركة عند المنعطف. صعد من الباب الصغير بمساعدة حبل، ودخل الغرفة وهو يحمل حذاءه في يده؛ غاصت قدمه في ساقية، وخاف أن يتركه الوحل هناك.

قرأ هارث الرسالة تحت المصباح.

ثم قرأها مرة أخرى.

مدها إلى سايرن.

لم يكن فيها وعد بنجدة.

نظر سايرن إلى اسم الجسر، ثم إلى آخر سطر.

من يخرج بعد انقطاع الطريق لن يجد قوة تُرسل لإخراجه.

نهض هارث واتجه إلى النافذة. أبعد القماش الذي غطاها مقدار إصبع، ورأى جزءًا من الفناء.

كانت فيه العربات التي سمح بدخولها، والدواب التي أُبعدت عن البئر، وأناس ينتظرون الصباح داخل مبنى دخلوا إليه لأنهم ظنوا أن الجدران ستبقى حولهم.

قال:

— إذا بدأنا بهم، سمعهم من عند المنعطف.

وقف سايرن إلى جانبه.

لم ينظر إلى الطريق الرئيسي.

سأله عن الممر الذي تصل منه عربات الحطب إلى الفناء السفلي. عرفه من عمله، لكنه لم يسر فيه إلى نهايته.

أخبره هارث أنه يلتقي بالطريق قرب بستان مهجور، وأن العربة الكبيرة لا تستطيع اجتياز دورانه الأخير.

— والصغيرة؟

— إن لم تحمل فوق طاقتها.

عادت عيناهما إلى الفناء.

لم تكن العربات متشابهة. بعضها يصلح لحمل جريح ممدد، وبعضها لا يملك إلا لوحين وعجلتين متعبتين.

طلب سايرن إخراجها من الصف، واحدة بعد أخرى.

يبدأ النجار بفحص المحاور. يُحمّل من لا يستطيع المشي قبل الفجر، وتُنزع الأجراس من أعناق الدواب. تبقى النار التي يراها العدو فوق السور، ويتبدل الحراس في مواضعهم حتى يغادر آخر المدنيين.

أصغى هارث حتى انتهى.

— وتبقى معنا؟

رفع سايرن رأسه.

— إلى أن يخرجوا.

ظل الضابط ينظر إليه، ثم سحب المقعد وجلس.

كانت الأسئلة التي تركها بعد القتال قد عادت معه إلى الغرفة.

قال:

— لا أسألك الآن عن الاسم الذي لم تخبرني به. أريد أن أعرف إن كنت قد أخرجت رجالًا من موضع كهذا من قبل.

نظر سايرن إلى المصباح.

تذكر رجالًا لم يستطع إخراجهم.

قال:

— أخرجت بعضهم.

انتظر هارث.

لم يضف سايرن شيئًا.

بعد قليل، نهض الضابط وأخذ السجل.

— إذن نبدأ بمن لا يستطيعون الخروج وحدهم.

◆

بلغ خبر الهجوم دمهار في رسالة لم تتسع لكل ما أراد أصحابها قوله.

حملت ختمًا من إحدى نقاط الاتصال الباقية، وذكرت معابر شرقية تعرضت للهجوم، وتحركًا غرب إيفارا لم تتضح قوته بعد. أُضيفت أسماء زافرين ورهفان في سطرين مختلفين.

طلبت ميرافا إحضار خريطة أوسع من خريطة قاسران.

حين فُتحت فوق المائدة، اضطرت إلى إبعاد التقارير التي كانت تعمل عليها. ظهرت الممالك التي اعتادت النظر إليها من جهة الرسائل والزواج والتجارة، ثم صار عليها أن تتخيل الطرق التي تصل جيوشها بعضها ببعض.

وقف إيلدار قربها.

لم يزعم أن الأخبار مكتملة.

قرأ عليها ما تأكد، ثم وضع جانبًا ما جاء من أفواه التجار. بقيت أوراق قليلة في وسط المائدة.

كانت كافية.

دخل قرهان بعدما أُرسل إليه.

رأى الخريطة قبل الرسالة، وتوقف عند الموضع الذي وضعت ميرافا إصبعها عليه. لم يسأل عن سبب استدعائه.

قرأ.

ثم انتقل إلى حدود قاسران.

كانت بعض حاميات رهفان القريبة قد خففت دورياتها خلال الأيام الماضية. ظن المسؤولون عن الطرق أن ذلك بسبب المطر أو تبديل الرجال. لم يعد قرهان ينظر إلى الأمر بالطريقة نفسها.

طلب تقريرًا عن المعبر الذي خسرته قاسران قرب مخازن الشعير.

جاءه الكاتب به.

قارن بين عدد الحرس المذكور في آخر خبر وما ورد قبل أسبوع، ثم وضع الورقتين أمام الملكة.

قال:

— هذا يمكن أخذه.

لم تسأله ماذا سيعطيه أخذه.

كانت المخازن تقع وراء المعبر، والطريق الذي يمر به أقصر من الطريق الذي تسلكه قوافلهم الآن.

سألته عمّن سيبقى لحمايته بعد الاستيلاء عليه.

أجاب بأسماء وحدتين.

عرفت أنه لم يخترهما وهو واقف هناك.

— ومن يحمي موضعهما؟

أشار إلى الخريطة، وشرح كيف يعيد توزيع الحرس.

أصغت حتى انتهى. كان في اقتراحه ما يغري؛ طريق أقصر، ومؤن أقرب، وخبر تستطيع أن تعطيه لمدينة اعتادت انتظار أخبار الخسارة.

لكن الرجال الذين أشار إليهم لم يكتمل تسليحهم، ولم يكن أحد يعرف إن كان انخفاض الدوريات يعني خلو المعبر أو اقتراب قوة لا تظهر في التقارير.

قالت:

— تستطلع أولًا.

أبقى يده على الورقة.

— إن انتظرنا حتى يعودوا إلى مواضعهم…

— نعرف مواضعهم قبل أن نذهب إليها.

طلبت إرسال رجال يعرفون القرى، وإحضار خبر مستقل عن الحامية والمخازن. يستطيع إعداد العربات والمؤن، لكنه لا يحرك الوحدتين ولا يرسل أمر هجوم.

نظر إلى إيلدار.

لم يجد عنده اعتراضًا على ما قالت.

جمع الأوراق التي سمحت له بأخذها، ثم خرج.

في الممر، لحق به ضابط كان ينتظره منذ الصباح. سأله إن كانوا سيستعيدون المعبر.

توقف قرهان قرب النافذة.

في الأسفل، كانت عربات الحبوب تدخل الفناء بعد عودتها من الحصن الشرقي. تعرف إلى السائق الأول، وإلى العجلة التي أمر بتبديلها قبل خروج القافلة السابقة.

قال:

— نعرف أولًا من بقي فيه.

أعطاه أسماء ثلاثة رجال، وطلب إحضارهم بعد المساء.

ثم سأله عن الخيول.

داخل الغرفة، ظلت ميرافا تنظر إلى إيفارا.

أعادت الرسالة إلى غلافها، ووضعتها قرب التقارير التي كانت تحمل قبل أشهر اسم سايرن.

◆

وجدت سيراي اسم حصن هارث في القائمة الثانية.

كانت الأولى تضم المواضع التي وصل منها مصابون، أما الثانية فالمواقع التي أُرسلت إليها أوامر بالتراجع عند الضرورة. لم يكن بجانب الاسم خبر عن وصول الرسالة أو خروج الحامية.

أعادت قراءة السطر.

وقفت مشرفة الدار أمامها تنتظر توقيعًا على شراء أغطية. ذكرت أن الأسعار ارتفعت منذ الصباح، وأن التاجر لا يستطيع الاحتفاظ بالحمولة إن تأخر الجواب.

وقعت سيراي.

سألت عن عدد من وصلوا إلى المبنى الجديد، ثم طلبت إحضار الحصر الموجودة في المخزن الجنوبي. حين خرجت المرأة، نادت موظف المراسلات.

لم تسأله عن سارن.

سألته عن آخر خبر من حصن هارث.

وجد الرسالة في سجل الأمس. كانت تتحدث عن اقتراب قوة من القرى، وعن إدخال المدنيين إلى الحصن.

هذا كل ما لديهم.

أعاد الموظف السجل إلى صدره، وانتظر إن كانت تريد إرسال شيء.

كادت تطلب ذلك.

تخيلت ساعيًا يحمل سؤالها على طريق يخرج منه الناس، ويبحث داخل حصن مهدد عن رجل لا يعرفه باسمه الحقيقي.

قالت:

— إن وصل خبر آخر، أريد رؤيته.

انحنى.

بقيت عند المائدة بعد خروجه. كان في درجها غلافان يحملان خط سايرن، وفي السجل أمامها اسم الحصن الذي عاد إليه.

حين عرف أبوها بزيارتها لدار السرو، أجابته بأن الأمر الذي تريد الحديث عنه يتعلق بها جزئيًا.

لم تكن تلك كذبة كاملة.

لكنها أخذت الآن تسمعها كما قد يسمعها هو.

أغلقت الدرج، ونهضت.

في الممر المؤدي إلى غرفة المجلس، وقف رجال ينتظرون أختامًا وخرائط وأوامر. لم تحاول المرور بينهم. استدعت حاجب أبيها، وطلبت أن يخبره بأنها تحتاج إلى لقاء منفرد حين يخلو من القادة.

سأل إن كان الأمر يستطيع الانتظار إلى الصباح.

نظرت إلى الباب المغلق.

— لا.

ثم عادت إلى دار الاستقبال، حيث كانت العربة الأخيرة تفرغ ما حملته من فراش القصر.

◆

لم يعرف نائل الابن الأصغر إلا حين ناداه رائف.

كان واقفًا عند مدخل دار التجار، وثوبه مبتل حتى الركبتين. حمل كيسًا صغيرًا، وفي يده الأخرى لجامًا مقطوعًا، كأنه لم ينتبه إلى أنه ما يزال يمسكه.

اقترب رائف وسأله عن البستان.

قال الفتى إن أباه وأخاه بقيا فيه.

وصلهم التحذير متأخرًا، ولم تكن عندهم عربة. خرج هو إلى جار يملك واحدة، فوجد البيت خاليًا، ثم تابع إلى الطريق حيث رأى الناس يتحركون نحو المدينة. حاول العودة، لكن جنودًا أغلقوا المسلك وأمروه بالابتعاد عن التلال.

سأله رائف عن أبيه.

كان قد سقط قبل يومين وهو ينقل حجرًا قرب المخزن. تورمت قدمه، وصار يحتاج إلى من يسنده حتى يبلغ الباب.

نظر نائل إلى أوران.

لم يحتج الشيخ إلى أن يسمع الطلب.

سأل الفتى عمّن أغلق الطريق، وعن الموضع الذي توقف عنده، وعن الوقت الذي مضى منذ ترك أخاه.

أجاب بما عرفه.

حين بلغ السؤال عن الجنود، تردد. لم يرَ الرايات، وكان خائفًا أكثر مما يسمح له بحفظ وجوه الغرباء.

أرسل أوران رائف إلى صاحب الورشة ليسأل عن الطريق الذي ما زالت عربات الإخلاء تستخدمه. أما هو فعاد مع نائل إلى النزل.

أخرج الرسم من حقيبته.

فرده فوق السرير لأن المائدة امتلأت بما حمله صاحب النزل من الغرفة المجاورة. وقف نائل عند الطرف، ورأى الخط الذي وضعه الشيخ عند آخر موضع رآه بعينيه.

ما بعد العلامة بقي كما رسمه.

قال أوران:

— أين قال إنهم منعوه؟

وضع نائل إصبعه قرب الطريق الرئيسي، ثم سحبه.

لم يكن متأكدًا.

عادا إلى الفتى بالرسم.

تعرف إلى المخزن والجسر الصغير، لكنه احتاج إلى وقت ليجد موضع الطريق. حين رآه، أشار إلى جزء يسبق البستان من جهة المدينة.

كان عليهم المرور من هناك إن عادوا بالطريقة التي سلكها نائل ورائف.

وصل رائف بصاحب الورشة.

قال الرجل إن العربات لم تعد تتجاوز ذلك الموضع. أُرسلت واحدة إلى المزارع القريبة ثم عادت قبل بلوغها، بعد أن رأى سائقها دخانًا عند التلة.

وضع دفتره قرب رسم نائل.

لم يتطابق الرسمان تمامًا.

كانت في دفتر رائف قياسات ومواضع فواصل، وفي ورقة نائل طريق أوسع وبستان أصغر مما ينبغي. لكن الانحناءة التي لم يعرف الفتى لماذا رسمها امتدت في الاتجاه الذي تركه رائف فارغًا وراء المخزن.

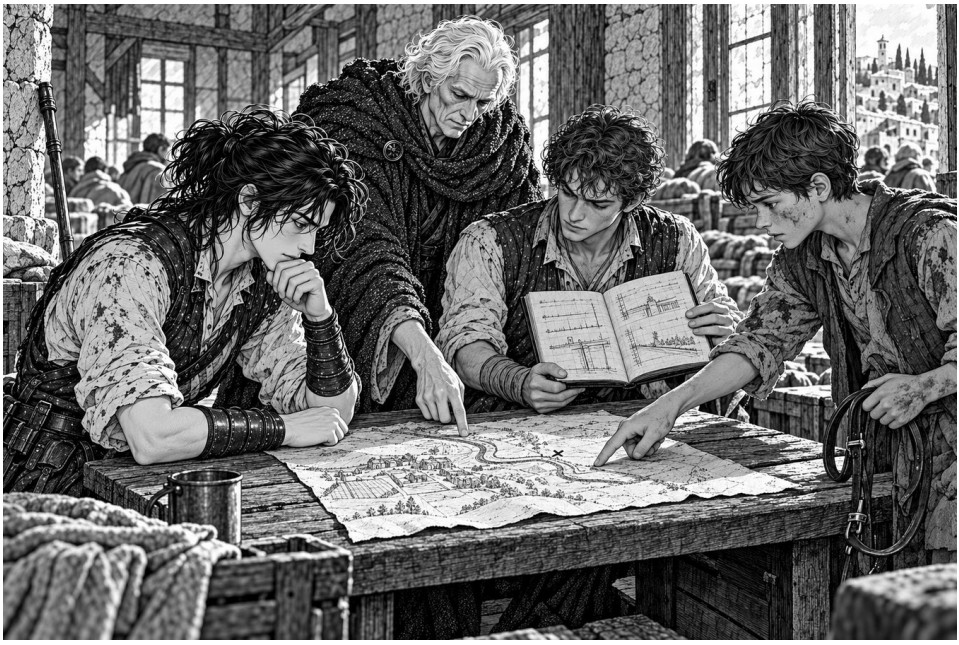

اقترب ابن صاحب البستان.

قال إن أباه كان يذكر درجًا قديمًا عند القناة، يستخدمه من ينظفونها قبل أن يُبنى الطريق الجديد. لم يصعده منذ طفولته، ولم يعرف إن كان آخره مفتوحًا.

رفع نائل رأسه.

— يمكن أن نصل من هناك.

لم يرفع أوران عينيه عن الورقة.

— يمكن أن نبحث عن بدايته.

أراد الفتى أن يعترض، لكنه نظر إلى العلامة التي وضعها الشيخ عند آخر ما يعرفه.

بقي نصف الانحناءة وراءها.

طلب صاحب الورشة أن يريه رائف القياسات. تتبع المسافة، ثم سأل عن عربة يد وحبلين. إن أمكن بلوغ الرجل، فلن يستطيعوا حمله طوال الطريق على أكتافهم.

خرج ليبحث عمّا يحتاجون إليه.

جمع أوران الورقتين، وأعطى نائل رسمه.

— يبقى معك.

طواه الفتى بعناية.

حين عاد إلى النافذة، رأى عربة صغيرة تمر في الشارع. جلس فوقها مصاب بين كيسين، بينما مشى رجل إلى جانبه واضعًا يده على العجلة كلما اقتربت من حجر.

نظر إلى الانحناءة المطوية داخل كفه.

للمرة الأولى، تمنى أن يكون الخط صحيحًا أكثر مما تمنى أن يعرف كيف رسمه.

◆

وصل أمر أردان إلى دارن عند سقيفة الطاحونة القديمة.

كان قد جمع الرجال الذين أرسلتهم الحامية القريبة، ووضع مصابي المحطة في غرفة صاحب الطاحونة حتى تأتي عربة تحملهم إلى المدينة. طلب صاحب البيت ألا يدخل الجنود إلى غرفة الدقيق بأحذيتهم، ثم اعتذر حين رأى الدم على ثوب أحدهم.

خلع دارن حذاءه عند الباب.

لم يكن يستطيع شد الرباط حول ساعده أكثر مما شده. صار المعصم ينتفخ قليلًا، وأخذ يحرك أصابعه بين وقت وآخر ليتأكد من أنها تستجيب.

قرأ الأمر، ثم خرج إلى الجسر.

لم يكن واسعًا بما يكفي لعربتين.

في وسطه هبط حجر قديم عن مستوى الحجارة المجاورة، فصارت العجلات تنحرف عنده نحو الحافة. على الضفة القريبة، امتد مكان يصلح لتجميع الخارجين قبل مواصلة الطريق. أما الضفة الأخرى، فصعدت منها الأرض إلى شجر كثيف يخفي المنعطف.

سأل صاحب الطاحونة عن المسلك الذي يأتي من حصن هارث.

أشار إلى الشجر.

ثم إلى طريق أضيق بمحاذاة الماء.

لا تصلح الثانية إلا للمشاة والدواب الخفيفة.

وزع دارن رجاله.

أبقى عند الجسر من ينظم مرور العربات، وأرسل اثنين لرؤية الطريق دون الاقتراب من الحصن. أمر بنقل أكياس الدقيق التي أعاقت المدخل، ووضع ألواحًا فوق الحجر المنخفض حتى لا تتوقف عنده أول عربة.

لم يطلب تحصين الطاحونة كلها.

كان يحتاج إلى طريق يدخل منه الناس ويخرجون، وإلى موضع يستطيع فيه عدد قليل من الرجال منع المطاردين من بلوغ ظهورهم.

عاد المستطلعان قبل الفجر بقليل.

رأيا نارًا عند الحصن، وحركة متفرقة قرب الطريق الرئيسي. لم يقتربا بما يكفي لعد الرجال، لكن أحدهما سمع ضرب معدن يشبه ما يصدر عن إصلاح حزام أو تثبيت نصل.

كان المهاجمون ما يزالون هناك.

وقف دارن تحت حافة السقيفة، يصغي إلى الماء.

مد يده إلى سيفه، ثم تركه.

الضربة التي أخذها في المحطة جعلت إغلاق قبضته أبطأ.

طلب من أحد رجاله إحضار درع خفيف.

حين ناوله إياه، اختبره بيسراه، ثم وقف عند رأس الجسر ينتظر.

◆

أيقظوا الأطفال قبل أن يوقظوا النار في الموقد.

تولت المرأة التي جمعتهم عند الهجوم إخراجهم من المخزن واحدًا بعد آخر. أعطت كل طفل شيئًا يحمله كي تبقى يداه مشغولتين، ثم عادت تبحث عن صغير نام تحت غطاء لا يخص أسرته.

لم يُسمح بإشعال مصابيح في الفناء السفلي.

تحرك الرجال على ضوء يأتي من النوافذ، ولف النجار قطعة قماش حول محور عربة ظل يصر كلما دارت عجلته. لم يوقف الصوت تمامًا، لكنه خفّفه بما يكفي ليسمعوا تعليمات هارث.

وقف سايرن عند الباب الصغير.

كلما خرجت عربة، وضع كفه على جانبها عند الدوران، وأشار إلى السائق متى يتوقف ومتى يتقدم. لم يحاول رفع شيء ثقيل. أبقى جنبه بعيدًا عن الخشب، وترك للرجال ما يحتاج إلى قوة.

في العربة الثالثة، رأى الصبي الذي حمل الدجاجة.

كانت تحت ردائه الآن.

تحركت عند صدره، فشد عليها بيديه.

أشار إليه سايرن أن يخفف قبضته، ثم دفع العربة مع الآخرين حتى استقامت في الممر.



خرج المصابون أولًا، وبعدهم من لا يستطيع المشي طويلًا. حمل الباقون المؤن في أكياس صغيرة، وتركوا وراءهم ما لم يستطيعوا تقسيمه.

ظل رجل يجادل عند صندوقه حتى جاء هارث.

فتح الغطاء، فرأى أواني نحاسية وقطعة قماش مطرزة وأدوات حديد. أخذ الرجل المطرقة، ثم تردد بين الوعاء والقماش.

لم يستعجله هارث بالكلام.

أبقى يده فوق الغطاء.

اختار الرجل القماش.

أُغلق الصندوق.

حين بدأت السماء تخف، بقي في الحصن عدد قليل من الرجال.

كانت النار فوق السور ما تزال مشتعلة، وظلت خوذتان تظهران عند الحافة كلما تحرك الحارسان بين موضعيهما. لم يرفعا رأسيهما أكثر مما ينبغي؛ كان المطلوب أن يراهما من ينتظر، لا أن يعرف كم بقي معهما.

جاء هارث إلى سايرن ومعه آخر كيس من الرقاع والسجلات.

نظر إلى الفناء.

رأى باب المخزن الذي أصلحوه، والعارضة التي بقيت تستند إلى الجدار، والمقعد الذي جلس عليه مع النجار حين أخبره عن ابنه.

لم يكن في المكان ما يستطيع أخذه كله.

أمر الحارسين بالنزول.

خرجوا من الباب الصغير، وسحبوه خلفهم. أدخل النجار وتدًا في المفصل الخارجي، ثم ضربه مرتين بمطرقة غطاها بالقماش.

مضوا.

لم يعرف سايرن متى اكتشف المهاجمون خلو السور.

سمع الصيحة بعد أن بلغوا البستان المهجور.

لم تأتِ من قريب، لكن هارث رفع يده فورًا، وطلب من الرجال الإسراع إلى مقدمة الصف.

كان الدوران الأخير أمامهم.

اجتازته العربتان الأوليان، ثم توقفت الثالثة.

مالت عجلتها إلى منخفض أخفاه العشب، واستقر طرف المحور فوق حجر. تحركت الدابة ولم تتحرك العربة، فبدأت الأحزمة تضغط على صدرها.

ركض النجار نحوها.

كان عليها مصاب لا يستطيع الجلوس.

حاول الرجل الذي يقودها ضرب الدابة، فأمسك سايرن بذراعه.

أمر بفك جزء من الحمل، ووضع لوح تحت العجلة. لم يكن لديهم وقت لإخراج المصاب ثم إعادته، ولا قوة تكفي لرفع العربة كاملة.

من وراء الأشجار، ظهر أول رجل يحمل درعًا.

تبعه آخر.

ترك هارث عند العربة جنديين، وعاد بالبقية إلى موضع يضيق فيه المسلك بين سور البستان وساقية جافة.

وجد سايرن الرمح الذي حمله أحد العمال، وأخذه منه.

نظر الرجل إلى يده.

— سأعيده.

لم يعرف إن كان يعده بالرمح أو بعودة صاحبه إلى القافلة.

وقف إلى جانب هارث.

لم يكن عدد المطاردين واضحًا. اقترب أولهم بسرعة، ثم أبطأ حين رأى الدروع عند الممر. رفع أحدهم قوسه، فطلب سايرن من الرجال خفض الرؤوس قبل أن ينطلق السهم.

أصاب السور خلفهم.

لم ينتظر هارث هجومًا كاملًا.

تراجع بهم مقدار خطوات، وأبقى المسافة بينهم ضيقة. كلما تحرك أحد المدافعين أسرع مما ينبغي، أشار سايرن إليه بطرف الرمح حتى يعود إلى موضعه.

سمعوا العربة تتحرر.

صرخت الدابة، ثم دارت العجلة فوق اللوح.

نادى النجار من الأمام.

كان عليهم الانسحاب الآن.

أخذوا يتراجعون، اثنين بعد اثنين، حتى بلغوا أول الأشجار. حاول أحد المطاردين الاقتراب من الجانب، فضرب هارث درعه وأعاده إلى الساقية.

تحرك سايرن ليسد الفراغ.

لم يحتج إلى ضربة واسعة. مد الرمح إلى موضع القدم، ثم أعاده قبل أن يستطيع الرجل الإمساك به.

لكن جنبه شدّه حين استدار.

تأخر نصف خطوة.

أمسك أحد الجنود بحزامه وجذبه خلف السور.

كان الرجل نفسه الذي عبر فوق الممر بعدما سقطت السلّم.

قال سايرن:

— تابع.

لم يتركه الجندي حتى استقام.

من الطريق الأمامي وصل صوت قرن قصير.

توقف هارث لحظة.

لم يعرف الإشارة.

ثم رأى رجالًا يخرجون عند موضع انكشاف الشجر، يحملون دروع إيفارا.

أشار أحدهم إلى الجسر.

كانت العربات قد بدأت تعبر.

◆

لم يترك دارن القافلة تتوقف عند الطاحونة.

أرسل من يستطيع المشي إلى الطريق المؤدي للمدينة، وأبقى المصابين في عرباتهم حتى يصل دور كل واحدة. وقف جندي عند الحجر المغطى بالألواح، يوجه العجلة بيديه ويمنع السائقين من الاقتراب من الحافة.

وصل هارث مع المؤخرة.

عرفه دارن، وسأله عن عدد من بقي خلفه.

أشار الضابط إلى الرجال الخارجين من بين الأشجار.

— هؤلاء آخرهم.

لم تكن الإجابة مطمئنة بما يكفي.

كانت في الشجر حركة أخرى.

تقدم دارن إلى رأس الجسر، ورفع درعه. تلقى أول سهم على حافته، ثم أمر الرماة القريبين من الطاحونة بإطلاق دفعة إلى الطريق.

تراجع المطاردون إلى الغطاء.

كسبوا وقتًا قصيرًا.

عند العربة الأخيرة، انقطع رباط ثبت أحد جانبي الحمل. انزلقت لفة فراش إلى العجلة، فحبستها قبل بلوغ الألواح.

نزل الرجل الذي يجلس قرب المصاب، وحاول انتزاعها.

لم تتحرك.

جاء سايرن من خلفه، ودفع الرمح إلى الجندي الذي رافقه.

جثا عند العجلة، وأخرج سكينًا صغيرة من حزام العامل الذي وقف بجانبه. قطع القماش بدل أن يحاول سحبه كاملًا، ثم انتزع ما التف حول المحور.



سال شيء دافئ تحت ضماده.

لم ينظر إليه.

أشار إلى السائق أن يتقدم.

تحركت العربة، ومرّت بمحاذاته حتى استطاع النهوض.

من رأس الجسر، سمع هارث ينادي رجاله.

كان أحدهم قد تبع المطاردين خطوتين إلى خارج الغطاء، وأخذ يرفع سيفه كأنه يريد أن يعيدهم إلى الحصن كله.

أمسك سايرن بكتفه.

— خلف الدرع. اترك له الطريق إلينا.

عاد الرجل إلى موضعه.

سمع دارن الأمر.

لم يكن مرتفعًا، لكن الجندي نفذه فورًا، ثم تحرك الرجل الذي أصدره ليغطي انسحاب رفيقه دون أن يعترض مجال الرماة.

نظر دارن إليه من الجانب.

رأى ثوب العامل، والشعر الذي التصق عند رقبته، واليد الموضوعة لحظة على الجنب.

لم يرَ الوجه كاملًا.

تقدم المطاردون مرة أخرى، فأعاد بصره إليهم.

أمر بإغلاق رأس الجسر بالدروع إلى أن تعبر آخر الدواب. لم يطل الاشتباك؛ وجد القادمون رجالًا ينتظرونهم، وطريقًا مكشوفًا يحتاجون إلى عبوره قبل بلوغ القافلة. تبادلوا السهام من وراء الأشجار، ثم تراجع أولهم إلى المنعطف.

لم يسمح دارن لأحد بملاحقتهم.

ظل واقفًا حتى عبر هارث.

بعد ذلك تراجع برجاله إلى الضفة القريبة.

كان الماء يجري تحت الجسر كما جرى قبل وصولهم، لكن حافته امتلأت بما سقط من العربات: قطعة حبل، وغطاء، وحذاء لم يعد أحد للبحث عنه.

عند جدار الطاحونة، جلس سايرن على حجر منخفض.

أعاد السكين إلى العامل، ثم تناول الرمح من الجندي الذي احتفظ به. نظر إلى الخدش الذي أصاب الخشب، وسلمه إلى صاحبه.

مد يده إلى قدح ماء.

لم يستطع رفعه من المرة الأولى.

وقف هارث إلى جانبه، وطلب من رجل أن يأتي بقماش.

اقترب دارن ليسأله عمّن يحتاج إلى عربة قبل أن تواصل القافلة طريقها.

كان سايرن منحنيًا، يضغط على جنبه.

قال هارث:

— هذا الرجل يبقى جالسًا، مهما قال لك.

تحرك طرف فم سايرن.

رفع رأسه.

توقف دارن قبل أن يبلغ الحجر.

كان قد رأى ذلك الوجه قبل سنوات، في ساحة لم يكن فيها عامل يحمل رمحًا مستعارًا. يومها وقف سايرن إلى جانب وفد قاسران، وأعاد إلى دارن سيف التدريب بعدما طال بينهما تمرين لم يشأ أيّ منهما إنهاءه أولًا.

بقيت العينان كما تذكرهما.

أما الندبة واللحية والتعب، فقد احتاج إلى لحظة ليراها فوق الوجه الذي عرفه، لا بدلًا منه.

انتقلت عيناه إلى هارث، ثم عادت إلى الرجل الجالس.

لاحظ سايرن التغير.

توقفت يده عند حافة القدح.

انفتح فم دارن قليلًا، لكنه لم ينطق.

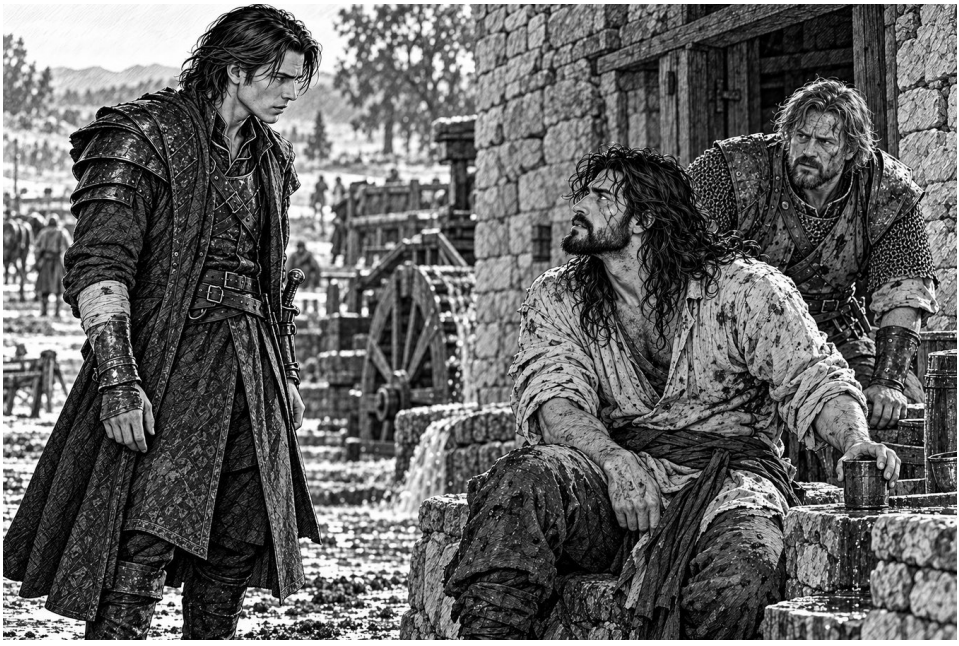

◆

دخلت سيراي بعدما خرج آخر القادة.

كان أبوها عند المائدة نفسها، وقد نقل المصباح إلى الجهة التي تزدحم فيها أسماء الحصون الغربية. لم يرفع رأسه فورًا؛ أكمل سطرًا، ووضع القلم، ثم نظر إليها.

أغلقت الباب بيدها.

رأى أنها لم تحمل سجلًا ولا طلبًا لدار الاستقبال.

قال:

— قلتِ إن الأمر لا ينتظر الصباح.

اقتربت من المقعد الذي وقفت عنده قبل وصول الإنذار الأول.

هذه المرة لم تمسك ظهره.

— الرجل الذي أردت أن أحدثك عنه قبل وصول الخبر…

انتظر أردان.

أبقت عينيها عليه.

— سايرن. إنه حي.



◆

مدّ دارن يده إلى القدح قبل أن يسقط.

لم يكن سايرن قد أفلتَه، لكن أصابعه ارتخت عند الحافة حين حاول أن يستقيم. أخذه دارن منه ووضعه فوق الحجر، ثم التفت إلى الجندي الذي جاء بالقماش.

طلب منه إحضار رجل يعرف تضميد الجروح، وإبقاء العربات المتجهة إلى المدينة في الطريق.

بعد ذلك نظر إلى هارث.

— في الداخل.

لم يسأل الضابط عمّن يقصد.

ساعد سايرن على النهوض، وأدخلاه إلى غرفة صغيرة خلف موضع طحن الحبوب. كانت فيها أكياس فارغة، وميزان عُلّق أحد طرفيه بخيط، ومقعد لا يتسع لرجل يستلقي.

جلس سايرن قرب الحائط.

أغلق دارن الباب، لكنه أبقى يده فوق المزلاج لحظة قبل أن يستدير.

قال الاسم بصوت منخفض:

— سايرن.

بقي هارث واقفًا عند المقعد.

نظر إلى دارن أولًا، كأنه لم يسمع الكلمة جيدًا، ثم إلى الرجل الذي أعطاه غرفة وأدوات وسأله قبل أيام إن كان يستطيع إصلاح باب.

لم يقف سايرن.

كان قد تعب من محاولة إخفاء ذلك.

قال:

— لم أكن أريد أن تعرف بهذه الطريقة.

اقترب دارن خطوة.

لم يمد يده إليه، ولم يسأله عن الحرب التي ظن أنها انتهت به تحت حجارة الممر.

نظر إلى ثوبه الملطخ، ثم إلى الضماد الذي ظهر عند خصره.

— ومن يعرف؟

ذكر القروي وابنته.

ثم سيراي.

تحرك وجه دارن عند اسم الأميرة، لكنه ترك السؤال الذي جاء معه، وسأل سؤالًا آخر:

— وميرافا؟

خفض سايرن عينيه.

— لا.

سُمع من الخارج احتكاك عارضة بالعربة، ثم صوت رجل يطلب من السائق أن يتقدم قليلًا.

انتظر دارن حتى ابتعد الصوت.

— هي دفنتك في أخبارها.

أومأ سايرن.

لم يحاول أن يقول إن ذلك نفعه. كان يعرف كم أخذ منه، وكم أخذ منها أكثر.

جلس هارث أخيرًا على صندوق قرب الباب.

مرر كفه فوق وجهه، ثم أبقاها عند فكه.

— كنت أرسل رسائلك.

رفع سايرن رأسه إليه.

— أعرف.

— وكنت أظن أن أسوأ ما فيها رجل يلاحقه دين، أو أهل امرأة لا يريدون رؤيته.

لم يكن ساخرًا تمامًا.

قال سايرن:

— لو أخبرتك، لم يعد يكفي أن تعطيني غرفة وتتركني أعمل.

نظر هارث إلى يديه.

بقيت تحت أحد أظافره قطعة صغيرة من الخشب الذي أصلحاه معًا.

— لم يَعُد ذلك يكفي منذ أمس.

طرق الباب.

دخل الرجل الذي استدعوه للجرح، فوقف دارن جانبًا وأعطاه مكانًا. بقي اسم سايرن داخل الغرفة، بينما عرفه القادم باسم سارن الذي ناداه به هارث.

رفع الثوب، وفحص موضع الدم، ثم طلب ماءً أنظف.

طال العمل أكثر مما أراد سايرن. حين حاول السؤال عن الرجال فوق الجسر، وضع المضمّد كفه على كتفه وأعاده إلى الحائط.

دارن لم يساعده على الاعتراض.

بعد خروج الرجل، اقترب من المقعد.

— لن أذكر اسمك أمامهم. لكن الملك يجب أن يعرف.

أجابه سايرن:

— جئت لأطلب مقابلته.

نظر دارن إلى الباب المغلق، ثم إلى الثوب الخشن الملقى فوق ركبتيه.

— قطعت طريقًا طويلًا إلى غرفة كهذه.

أخذ سايرن نفسًا قصيرًا.

— لم أختر الغرفة.

لم يبتسم دارن.

أخرج من داخل معطفه رقعة صغيرة، وبحث عن موضع يكتب عليه لا يغطيه غبار الدقيق.

◆

ظل أردان ينظر إلى ابنته حتى انخفض فتيل المصباح.

مد يده فرفعه قليلًا.

— رأيتِه؟

— نعم.

— بنفسك؟

أومأت.

لم يجلس.

سألها أين، فأخبرته عن دار السرو. وعن الرسالة الأولى، والسؤال الذي أرسلته لتتأكد، وعن هارث الذي حملت مراسلاته الورقتين دون أن يعرف الاسم المختبئ فيهما.

لم ترِوِ له ما كُتب تحت الحجر الثالث.

قالت إنها سألته عن أمر لم يكن يعرفه سواهما.

بقي أردان صامتًا عند ذلك، ثم سألها منذ متى عرفت.

أعطته الأيام كما كانت.

رآها تعدها دون محاولة تقليلها.

مشى إلى الباب، وفتحه مقدارًا صغيرًا. طلب من الحاجب ألا يدخل أحد حتى يناديه، ثم أغلقه وعاد.

— رتبتِ لقاءه خارج القصر، ولم تقولي لي.

— لم أكن أعرف إن كان سيأتي. ولا إن كان يستطيع الوصول دون أن يراه من يعرفه.

— ثم جاء.

— نعم.

انتظر.

شدّت سيراي أصابعها عند جانب ثوبها، ثم أرختها.

— وكان ينبغي أن أحدثك بعد عودتي.

لم يقل إن اعترافها أصلح ما حدث.

نظر إلى الأوراق التي غطت الغرب من الخريطة. قرأ اسم حصن هارث، ثم نقل عينيه إلى الطريق الخارج منه.

— هناك الآن؟

— عاد إليه. لا أعرف أين صار بعد أمر الانسحاب.

كان في صوتها ما جعله يعيد النظر إليها.

رأى خوفًا لم تسمح له بالظهور وهي تتحدث عن الرسائل. منذ دخلت، كانت تجيب عن أسئلته كأنها تستطيع تأجيل ما تخشاه حتى تنتهي منها.

سألها عمّا يريده سايرن.

قالت إنه جاء يبحث عن قوة تساعد قاسران، وإنه أراد أن يسمعه الملك قبل أن يُعلن خبر نجاته.

اقترب أردان من المقعد، لكنه لم يجلس.

— وإلى متى يبقى ميتًا عند أخته؟

لم تجد سيراي جوابًا تدافع به عنه.

قالت:

— سألتُه.

— وماذا قال؟

— إنه يعرف.

أدار الملك وجهه نحو النافذة.

في الفناء كانت إحدى عربات القصر تعود فارغة. نزل السائق يفحص العجلة الخلفية، ثم جلس على الدرجة بدل أن يصعد إلى الإسطبل.

بقي أردان يتابعه لحظة.

عاد إلى المائدة، وسحب ورقة.

كتب إلى دارن يطلب تأكيد الخبر، وتأمين لقاء بعيد عن المجلس إن كان الرجل الذي تبحث عنه سيراي بين المنسحبين.

قرأ ما كتب قبل أن يطويه.

قالت:

— لا أريد أن يصير اسمه حديث القصر قبل أن تسمعه.

رفع عينيه.

— لن يصير حديث القصر الليلة.

أخذت نفسًا لم تنتبه إلى أنها حبسته.

لكن أباها أبقى الورقة في يده.

— أما ما بينك وبينه، فلم ننتهِ من الحديث عنه.

لم تخفض عينيها.

— أعرف.

◆

كانت آخر العربات تعبر ساحة المخزن حين وصل قائد زافرين.

ترجل قرب الباب، وأعطى لجام حصانه لرجل لم ينتظر حتى ينظر إليه. امتد على جانب معطفه غبار فاتح، وظهرت فوق كتفه حلقة أُصلحت بحديد يختلف لونه عن بقية الدرع.

اسمه رالك.

عرفت نيرفا الاسم من القوائم قبل أن ترى وجهه. كان يوقّع استلام الرجال والمؤن في المواضع التي لا تصل إليها رايات جروان.

دخلت معه إلى المخزن.

وُضعت السجلات فوق صندوق فارغ، وبقي عند الباب كاتبان؛ واحد من رهفان، وآخر من زافرين. قرآ الأعداد، وقارنا الأختام، ثم بدأ رجلان عدّ الأحمال التي لم تخرج بعد.

أشار رالك إلى خريطة الطريق.

سأل عن الفرسان الذين رافقوا طلائعه حتى المعبر.

— يعودون معي.

رفع رأسه.

— أحتاج إليهم يومين. يعرفون الأرض، ورجالي يعرفون ما قيل لهم عنها فقط.

وضعت نيرفا إصبعها عند الحد.

— الأدلاء الذين اتفقنا عليهم ينتظرونك هنا. الفرسان لا يعبرون.

نظر إلى الكاتب الواقف عند الباب، ثم عاد إليها.

— سيقال إن رهفان دخلت الحرب سواء بقوا أم عادوا.

— وما سيُقال لا يغيّر أمري.

لم ترفع صوتها.

كانت في الساحة أصوات رجال يحاولون دفع عربة أكثر مما يحتمل محورها. التفت رالك نحو الباب، وصاح في أحد ضباطه أن يخفف عنها، ثم عاد إلى الخريطة.

طلب إمداده بخيل إضافية بدل الفرسان.

راجعته نيرفا في العدد، وسمحت بما ورد في السجل. حين أراد أن يضيف إليه دواب من القرى، أغلقت الدفتر.

— ما تحتاج إليه من أرضنا تطلبه من هاروك. لا تجمعه في الطريق.

أخذ وقته قبل أن يوافق.

ختم الكاتب النسخة الأخيرة، وانتهى التسليم.

خرجت نيرفا فوجدت رجالها قد جمعوا أمتعتهم. نُزعت راية الذئب والهلال عن موضعها عند مدخل الساحة، وبقي فوق العربات الطائر الطويل المنقار واقفًا على كتابه.



ركبت.

في الطريق إلى هاروك، مرّت بقافلة جديدة جاءت متأخرة عن موعدها. توقفت حتى فُحصت أوراقها، ثم سمحت لها بمتابعة السير إلى المخزن.

تابعت العربات بعينيها.

كانت قد أحصت كل ما دخل.

لم تعرف كم سيعود.

◆

تركوا عربة اليد عند آخر جزء يمكن دفعها فيه.

أخفاها صاحب الورشة خلف شجيرات نمت بمحاذاة الساقية، وربط إحدى عجلتيها بالجذع حتى لا تنزلق إلى الماء. بقي معها، بينما تابع أوران ونائل ورائف وابن صاحب البستان سيرهم إلى موضع الدرج.

لم يكن الفتى يعرف المكان كما ظن.

توقف مرتين، وفي الثالثة عاد إلى شجرة شقّ البرق جذعها منذ أعوام. عرفها، وبدأ يبحث عند جذورها بدل أن ينظر إلى أعلى المنحدر.

وجد رائف الدرجة الأولى تحت التراب.

كانت ملساء في الوسط، أعمق عند الجانب الذي اعتادت الأقدام أن تطأه. أزاح عنها ما استطاع، ثم أدخل طرف أداة تحت الحجر التالي.

ظهر الدرج.

فتح نائل رسمه.

التقت بدايته بما أمامهم.

صعد قبل أن يكمل رائف فحص الحافة، فقبض الشاب على حزام حقيبته وأوقفه.

تحرك حجر صغير تحت قدمه، وانحدر بين الدرجات حتى اختفى في الشجر.

انتظروا صوت سقوطه.

تأخر أكثر مما أحب نائل.

جلس على عقبيه وأعاد الورقة إلى الحقيبة.

تابعوا بحبل ثُبت حول الجذع. صعد رائف أولًا، واختبر كل موضع قبل أن يشير إليهم. عند الأعلى، ظهر جدار القناة القديمة، وخلفه فسحة ضيقة لا تتسع إلا لرجل واحد بمحاذاة الماء.

كانت الانحناءة هناك.

لكن الطريق الذي رسمه نائل لم يعد موجودًا كله.

انهار جزء من الحافة، وامتد بين موضعهم والطرف الآخر فراغ ملأته حطام الحجارة والجذور. في الأسفل جرى الماء ببطء تحت السواد.

مد نائل عنقه.

رأى طرف الممر بعد الانهيار، قريبًا بما يكفي ليغري بالقفز، وبعيدًا بما يكفي لئلا يجد المصاب الذي جاءوا من أجله وسيلة لعبوره.

قال:

— يمكن تثبيت لوحين.

نظر رائف إلى موضع السند.

— على ماذا؟

أشار نائل إلى حجر بارز.

ضربه الشاب بمقبض أداته. تحرك معه جزء من التراب، وظهر الشق خلفه.

لم يكرر السؤال.

جلس ابن صاحب البستان قرب الدرج.

كان ينظر إلى الجهة التي ينبغي أن يكون أبوه فيها، ولا يرى إلا الحائط.

اقترب نائل من الجدار الداخلي، ووضع كفه عليه.

شعر ببرودة الماء قبل أي شيء آخر. كانت تنفذ من الحجر إلى راحته المتعبة، وتستقر عند الموضع الذي شقّه حمل الدلاء.

أغلق أصابعه ثم بسطها.

جاءه الإحساس متقطعًا.

امتداد خلف الصخر، ثم انقطاع، ثم فسحة أعلى مما توقع. لم يكن الطريق أمامه. كان داخل الجدار، منحرفًا قليلًا إلى اليمين.

تحرك خطوتين.

فتح عينيه على حجر لا يختلف كثيرًا عن بقية الحجارة.

طرق عليه.

لم يتغير الصوت بما يكفي ليتأكد.

التفت إلى رائف.

— جرّب هنا.

اقترب الشاب، وجثا عند القاعدة. حك الطين المتصلب، ثم تابع فاصلًا ضيقًا بأداة حديدية حتى ظهر طرف لوح قائم.

رفع رأسه إلى أوران.

كان الشيخ واقفًا وراء نائل.

لم يقل شيئًا.

احتاج فتح الموضع إلى وقت. أزالوا التراب من الحافة، وفك رائف حجرًا أضيف فوق اللوح وثبّته مكانه. حين تحرك أخيرًا، خرج هواء بارد حمل رائحة ماء قديم.

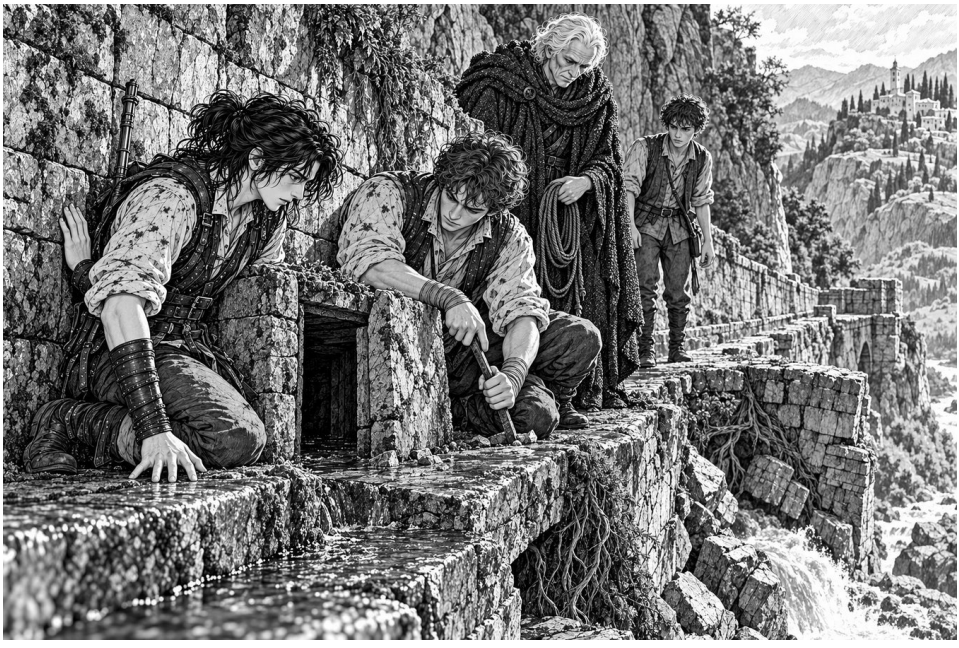

مد ابن البستان رأسه.

ظهر ممر منخفض يمتد خلف الجدار، وفي أعلاه فتحات ضيقة يصل منها الضوء.

قال رائف:

— مدخل تنظيف.

أدخل عصًا أمامه ليتحسس الأرض.

ثم التفت إلى نائل.

— كيف عرفت موضعه؟

نظر الفتى إلى يده.

كان الطين قد رسم خطوطًا داخل راحته.

— شعرت أن وراءه مكانًا.

لم يضحك رائف.

أخذ الحبل من كتفه، وربطه قبل أن يدخل.

◆

لم يأتِ أردان إلى الطاحونة بموكب.

وصل إلى دار صغيرة تستخدمها محطة تبديل الخيل، على الطريق الداخلي بعيدًا عن موضع الاشتباك. سبقته حراسة محدودة، وتبعته عربتان تحملان سهامًا وطعامًا إلى القوة التي تجمعت عند الجسر.

كان دارن قد تلقى رسالته بعدما أرسل تأكيده من الطاحونة. عرف حين قرأها أن الخبر وصل من طريق آخر.

لم يحتج إلى السؤال عن صاحبه.

أحضر سايرن في عربة مع المصابين، ثم تركه يستريح داخل الدار حتى جاء الملك.

حين دخل أردان، حاول سايرن النهوض.

أوقفه بإشارة.

لم تكن ملامحه تحمل حنان اللقاء الذي قد تخيله رجل عاد من الموت. رأى أمامه قائدًا عرفه في المجالس، ثم رأى ما بقي منه فوق المقعد.

جلس قبالته.

بقي دارن عند طرف المائدة، ووقف هارث قرب الباب بعدما أُبلغ أن ما يسمعه لا يخرج منه.

بدأ الملك بسؤال عن النجاة.

أجابه سايرن بما يكفي لفهم الأشهر التي غابها. لم يذكر كل ليلة ولا كل حمى. حين وصل إلى عبوره الحدود، سأله أردان عمّن ساعده، فذكر الرعاة والمرأة والصبي.

ثم سأله عمّا جاء يطلبه.

استقام سايرن قليلًا.

تحدث عن قاسران، وعن الطرق التي أخذتها رهفان، وعن المناجم التي ستعطي فاريك ما يعوض به خسائره. لم يقل إن إنقاذ مملكته واجب على إيفارا. شرح ما يظن أنه سيحدث إن بقيت وحدها.

أصغى أردان.

وحين انتهى، وضع أمامه تقريرين وصلا عند الفجر.

قال:

— جئت تطلب رجالًا. أنا أعدّ من أستطيع إبقاءهم عند أبوابي.

قرأ سايرن الأسماء.

كان بعضها لمواضع يعرفها، وبعضها ظهر في الرسائل التي سمعها من هارث خلال الأيام الماضية.

مد يده إلى الخريطة.

توقف قبل أن يلمسها، ثم سأل:

— هل هذه آخر مواقعهم؟

أومأ دارن.

تتبع سايرن الطريق الشرقي، ثم عاد إلى الغرب.

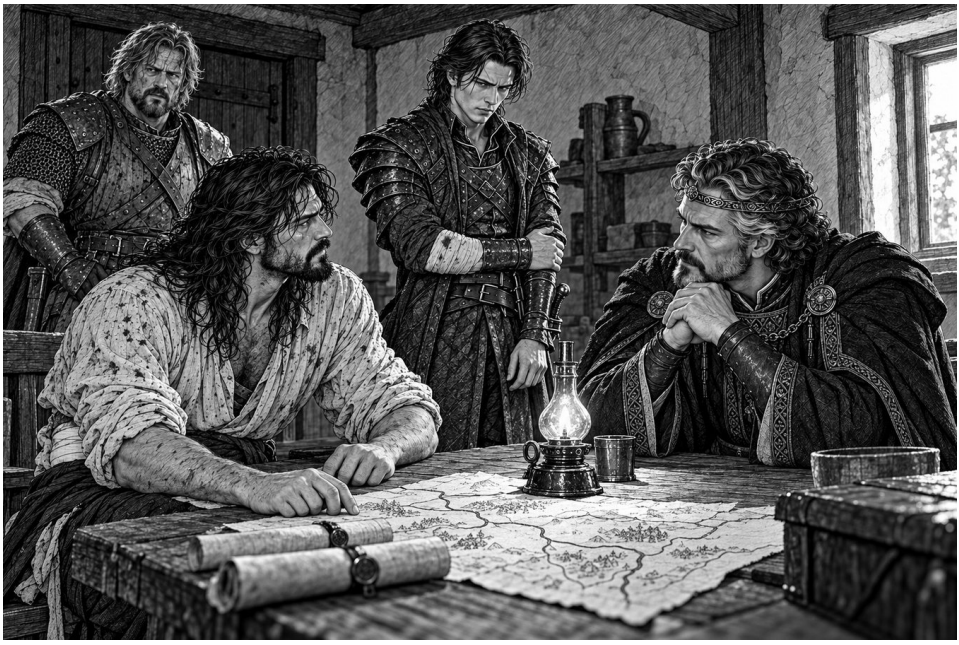

لم يتحدث عن خطة زافرين كما لو أنه رآها تُكتب. سأل عن عدد العربات، وعن سرعة تقدم المشاة، وعن المواضع التي تجنبوا مهاجمتها.

في أكثر من سؤال، لم يجدوا جوابًا.

أبقى الموضع فارغًا.

قال إن رهفان كانت تدفع قوافلها إلى الأمام قبل استقرار الحاميات، وإن قادتها يعرفون كيف يستفيدون من الطرق التي تُترك سليمة. أما زافرين، فلم يقاتل جيشها، ولا يعرف إن كانت قوتها الغربية كلها قد عبرت.

رفع أردان عينيه إليه عند الجملة الأخيرة.

بعد قليل، سأل:

— وميرافا؟

بقيت يد سايرن قرب الخريطة.

قال إنه يريد إرسال خبر إليها بطريقة لا يسبقه بها أحد إلى قاسران.

أجابه الملك:

— تختار طريقًا. لكنك تختاره قريبًا.

لم يعده سايرن بما لم يرتبه بعد.

أومأ فقط.

في الخارج، وصلت عربة أخرى. سمعوا الضابط المسؤول يسأل عمّن يستطيع النزول دون مساعدة.

نظر أردان إلى الباب، ثم إلى سايرن.

— ما يحدث هنا لا ينتظر اتفاقًا بين مملكتينا.

— أعرف.

— وما تقدمه لنا لن يكون ثمنًا أدفعه من حق أختك أو حق قومي.

رفع سايرن رأسه.

— لم أعرضه للبيع.

استقرت عينا الملك عليه.

ثم دفع الخريطة مقدارًا قليلًا إلى وسط المائدة.

◆

وجدوا صاحب البستان في الغرفة القريبة من المخزن.

كانت قدمه مرفوعة فوق كيس مطوي، وإلى جانبه وعاء ماء لم يستطع بلوغه دون أن ينحني. فتح ابنه الأصغر الباب، فحاول الرجل النهوض قبل أن يسمع ما جاءوا به.

دخل رائف وأعاده إلى مكانه.

لم يكن الأب وابنه وحدهما.

في الفناء، جلست امرأتان مع ثلاثة أطفال، ونام شيخ عند الحائط وقد وضع حذاءيه تحت رأسه. لجؤوا إلى البستان حين رأوا حركة الجنود على الطريق، وظلوا ينتظرون عربة قيل إنها ستأتي.

وصل صاحب الورشة بعد أن تبعهم بالحبل إلى الممر، وترك عربة اليد وراءه. حين رأى عدد الناس، نظر إلى رائف دون أن يتكلم.

كان عليهم إخراج الرجل محمولًا حتى يبلغ العربة.

أما البقية فيستطيعون المشي، لكن أحد الأطفال لا يستطيع الصعود وحده، والشيخ لا يرى جيدًا في المواضع المظلمة.

بدأوا يعدّون ما يمكن حمله.

اعترض صاحب البستان حين رأى ابنه يأخذ الخبز ويترك الأكياس.

أشار إلى المخزن.

فيه ما بقي من الموسم، وفي الغرفة الأخرى أدوات اشتراها على دفعات لم تنتهِ أقساط آخرها.

قال إن الجنود لا يحتاجون إلى بيته، وإنهم قد يمرون دون أن يدخلوا.

جلس رائف أمامه.

لم يقل له إن كل شيء سيبقى.

سأله عمّن سيعود لتنظيف القناة إن لم يخرج الآن.

ظل الرجل ينظر إليه.

كان الماء يُسمع من الفتحة التي أصلحوها قبل أيام.

طلب من ابنه إحضار صندوق صغير.

فتحوه، فوجدوا أوراقًا ملفوفة، وكيس بذور، ومفتاحًا لبيت لم يعد الرجل يملك سببًا لإغلاقه.

أخذها.

صنعوا محملًا من عارضتين وقماش قوي. حمل نائل أحد طرفيه، وأخذ الابن الأكبر الطرف الآخر. تقدم رائف إلى الممر ليتأكد من مواضع القدم، بينما بقي أوران في الفناء مع آخر الخارجين.

كانوا عند جدار المخزن حين سمعوا الخيل.

توقف الابن الأصغر.

أشار أوران إليه أن يواصل.

من فتحة في السور، رأى نائل رجلًا يترجل على الطريق، وآخر يرفع رمحه نحو شجرة ليدفع الأغصان عن وجهه. على صدر الأول ظهرت علامة طائر فوق كتاب.

لم يكونوا كثيرين.

لكنهم وقفوا بين البستان والطريق الذي يعرفه الناس.

دخل اثنان من الفتحة، وبقي الآخرون عند الخيل والسور.

رأى الأول المحمل.

صاح طالبًا منهم التوقف.

خفض نائل طرفه بحذر حتى أمسك به صاحب الورشة، ثم أخذ عصاه المعدنية من الحزام الذي ثبتها إلى حقيبته.

كانت يده رطبة.

مسحها في ثوبه.

اقترب الجندي، ومد رمحه ليقطع عليه الممر. دفع نائل الطرف إلى الجانب، وخطا كما علمه أوران، ثم ضرب أسفل اليد التي تمسكه.

ارتد الرجل خطوة.

شعر نائل بالمعدن يهتز في قبضته، لكنه استطاع إيقاف العصا قبل أن تكمل دورانها.

عاد الجندي من جهة أخرى.

صدّه الفتى، ثم دفعه نحو الحوض الفارغ، منشغلًا بالرمح الذي يقترب ويبتعد أمام وجهه.

لم يرَ الثاني حتى صاح رائف.

التفت متأخرًا.

كان الرجل قد تجاوز شجرة صغيرة، ورفع سيفه إلى كتف الفتى المكشوفة.

تحرك أوران من قرب الباب.

دخل إلى المسافة الضيقة قبل هبوط النصل. لامست عصاه ساعد الرجل، ثم استقر طرفها عند قدمه في اللحظة التي نقل إليها وزنه.

لم يسمع نائل ضربة قوية.

رأى كتف المهاجم ينحرف، ورأى السيف يضرب الحجر بدلًا من الثوب.

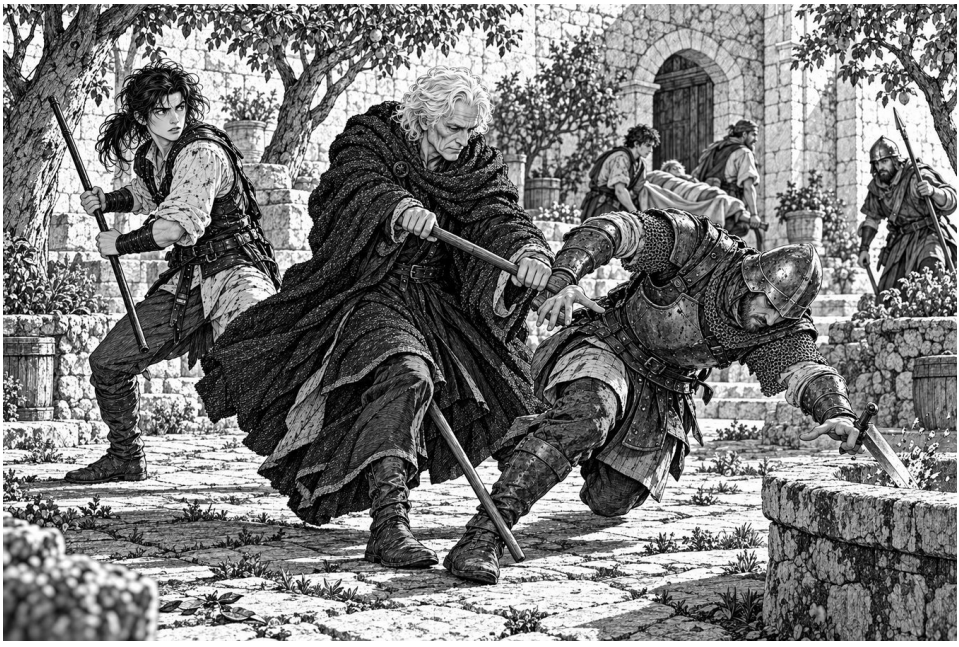

أدار الشيخ العصا مقدارًا قصيرًا.

سقط الرجل على جانبه.

حاول النهوض، فوضع أوران قدمه فوق معصمه، وانتزع السيف من متناول يده. رماه خلف الحوض، ثم رفع عينيه إلى صاحب الرمح.

كان نائل ما يزال أمامه.

قال الشيخ:

— إلى الممر.

تراجع الفتى دون أن يعطي الرجل ظهره.

وصل سهم إلى جذع الشجرة، وتناثر قشرها قرب وجه أوران. تحرك الشيخ خلف الجدار، وأغلق رائف الباب الخشبي الذي يفصل المجرى عن الفناء.

لم يكن سيمنعهم طويلًا.

دفع صاحب الورشة عارضة في موضعها، ثم أمسك بالمحمل.

دخلوا.

خلفهم، بدأ الخشب يتلقى الضربات.

◆

لم يغادر أردان الدار قبل أن يعرف مَن سيبقى في الغرب.

وصلته رسالة جديدة من الشرق أثناء اللقاء. قرأها، ثم أعطاها لدارن. كانت القوة التي أُرسلت إلى المعبر الداخلي قد طلبت قائدًا يجمع قرارات الضباط قبل أن يبدأ كل واحد منهم بالدفاع عن الطريق الذي يقف عليه وحده.

وقف دارن عند النافذة حتى انتهى من القراءة.

عاد إلى المائدة.

قال إنه يستطيع بلوغهم إن تحرك قبل المساء.

لم يعترض الملك.

لكن عينيه بقيتا على الغرب.

أشار دارن إلى سايرن.

— يعرف كيف يجمع من وصلوا إلينا. وقد فعل بعض ذلك قبل أن أعرفه.

نظر أردان إلى الضماد الذي ظهر عند خصر الرجل.

— وبأي جسد سيقاتل؟

أجاب سايرن:

— بما يسمح له الجرح. أما الرجال، فلا يحتاجون إلى أن أسبقهم في كل خطوة.

لم يبدُ ذلك وعدًا بالقوة التي عرفها الملك عنه.

لهذا أصغى.

حددوا القطاع الذي يستطيع الدفاع عنه. الجسر، والطريق المؤدي إلى المخازن الداخلية، والمواضع التي يلجأ إليها المنسحبون قبل بلوغ العاصمة.

لا مطاردة وراء التلال، ولا محاولة لاستعادة الحصن الذي خرج منه هارث، ولا نقل لوحدة إلى موضع بعيد دون خبر.

كتب أردان الأمر باسم هارث.

تُلحق به مجموعات الحاميات الغربية التي وصلت إلى الجسر، ويُعتمد في تنظيمها على الرجال الذين أوصى بهم دارن.

قرأ الضابط الورقة.

لم يكن فيها اسم سايرن.

حين رفع رأسه، قال الملك:

— الأمر يخرج منك. والخلاف الذي لا تحسمانه يعود إليّ.

أومأ هارث.

ثم نظر إلى سايرن.

كانت بينهما غرفة لم يدفع ثمنها، وسقف أصلحاه، ورجال أخرجاهم معًا. لم يكن الاسم الجديد قد محا ذلك.

قبل الرحيل، انفرد دارن بسايرن عند حافة السقيفة.

راجع معه المواضع التي رأى فيها طلائع العدو، وأسماء الضباط الذين يمكن الاعتماد عليهم، ثم أعطاه النسخة التي حملها من سجل محطة المراقبة.

قال:

— لا تفترض أن كل ساعٍ تأخر ضل الطريق.

وضع سايرن السجل داخل ثوبه.

نظر إلى رباط ساعد دارن.

— وأنت لا تستخدم الحركة نفسها بذراع لا تطيعك.

توقف دارن.

للمرة الأولى منذ الطاحونة، تحرك طرف فمه.

— ما زلت تراقب اليد أكثر من السيف.

— اليد هي التي تعيده.

جاء السائس بالحصان.

ركب دارن، واختبر اللجام بيسراه. لم يطل الوداع. خلفه رجال ينتظرون الطريق، وأمام سايرن رجال لم يعرف أسماء معظمهم بعد.

غادر نحو الشرق قبل أن ينخفض الضوء.

بقي سايرن عند السقيفة حتى غابت الخيل، ثم عاد إلى هارث.

كان الضابط قد فرش السجلات فوق صندوق.

قال:

— الآن أخبرني أيّ هذه الأسماء سيقف فعلًا حين أطلب منه ذلك.

جلس سايرن إلى جانبه.

◆

انكسرت إحدى عارضتي المحمل عند آخر درجة.

لم تسقط دفعة واحدة. سمع رائف الطقة، ثم رأى القماش يهبط عند قدم المصاب.

وضع كتفه تحته قبل أن ينقلب الرجل.

توقف الصف داخل الممر.

كان المكان ضيقًا، ولا يستطيع من في الخلف أن يرى سبب التوقف. بدأ الطفل يبكي حين ضغطته الأجساد قرب الحائط، فطلب أوران منهم التراجع خطوة، ثم أخرى.

أخرج نائل العصا المعدنية.

نظر رائف إليها، ثم إلى القماش.

فهما ما يحتاجان إليه دون كلام.

أدخلها الفتى بمحاذاة العارضة المكسورة، وثبت صاحب الورشة الخشب إليها بحبل قصير. لم تكن بطول المحمل كله، لكنها حملت موضع الكسر حين رفعوا الرجل من جديد.

ضغطت الحافة الحجرية على طرفها عند الدوران.

سمع نائل صوتًا حادًا، وظن أنها انثنت.

بعد تجاوز الدرجة، نظر إليها.

بقيت مستقيمة.

كان في الحجر أثر فاتح عند الموضع الذي احتكت به.

لم يجد وقتًا لفحصها.

واصلوا السير حتى خرجوا إلى الفسحة التي تقف عندها عربة اليد. جلس المصاب فيها، وترك أخيرًا قبضته عن القماش الذي أمسكه طوال الطريق.

لكن العودة إلى الدرج الأول لم تعد آمنة.

ظهر رجل عند أعلاه ثم اختفى. لم يعرفوا إن كان من الدورية أو من أهل المزارع، ولم ينتظر أوران حتى يروه مرة ثانية.

أشار إلى بناء منخفض وراء القناة.

كان رائف قد ظنه جزءًا من الجدار المنهار. اقترب منه فوجد بابًا أُغلق بالحجارة، وإلى جانبه شق يسمح بمرور رجل إذا أدار كتفيه.

دخل أوران أولًا.

في الداخل، استند السقف إلى قوسين قديمين. تراكم التراب حتى بلغ نصف الارتفاع، وبقيت فوقه حافة طلاء شاحب، تتكرر فيها خطوط لم يحفظ نائل مثلها.

تحرك الشيخ نحو الجدار الأيسر.

لم يفحص بقية الموضع.

أزاح لوحًا مائلًا، ثم طلب من صاحب الورشة مساعدته في رفع حجرين صغيرين عند القاعدة.

ظهر تجويف.

انحنى أوران، ومد يده داخله، ثم أخرج كتلة من الجص.

خلفها بدأت درجات تهبط إلى جهة أخرى من المنحدر.

وقف رائف عند الحافة.

لم ينظر إلى الدرج فورًا.

نظر إلى الشيخ.

قال:

— كيف عرفت أنه هنا؟

مسح أوران الغبار عن كفه.

— مررت من هذا الموضع قديمًا.

اقترب الشاب من الجدار الذي فتحوه. لمس طبقة الطلاء الممتدة فوق الحجارة، ثم نظر إلى القوس.

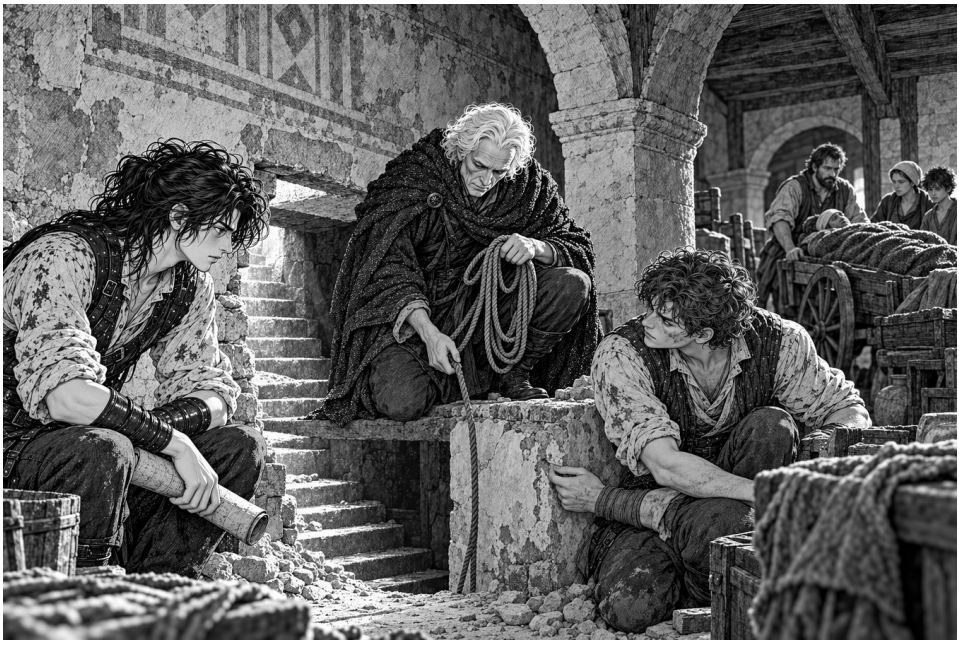

— هذا ليس إغلاقًا جديدًا.

كان يمكن أن يكتفي بذلك.

لكنه أضاف:

— البناء فوقه أقدم من بعض النسخ التي نعمل بها في الورشة.

طلب أوران الحبل.

ناوله إياه صاحب الورشة، الذي كان مشغولًا بقدم المصاب أكثر من عمر الجدار.

بدأوا النزول.

بقي رائف عند الفتحة حتى مر الجميع. مرر إبهامه فوق الجص مرة أخرى، ثم حمل أدواته ولحق بهم.

في أسفل الدرج، رأى نائل الشيخ يعيد شد حزامه.

ارتجفت يده عند العقدة.

استخدم الأخرى ليثبتها، ثم رفع رأسه كأنه شعر بنظر الفتى إليه.

سأله إن كان الحبل طويلًا بما يكفي.

قال نائل نعم.

لم يسأله عن يده.

◆

قرأ رالك تقرير الدورية واقفًا عند عربة المؤن.

عاد ثلاثة من رجالها قبل الليل، ومعهم رابع لا يستطيع الإمساك بلجامه. بقي اثنان عند البستان ينتظران من يحمل المصاب، ثم رجعا بعدما وجدا الطريق خاليًا.

لم يفهم القائد من وصفهم أين ذهب الناس.

ذكر أحدهم ممرًا خلف المخزن.

قال آخر إن الماء يخرج منه، وإن الرجل لا يستطيع أن يعبره واقفًا.

طلب رالك إحضار سائق يعرف المزارع، وسأله عن القنوات القديمة. لم يعرف السائق إلا ما تسلكه العربات.

أعاده إلى عمله.

كان أمامه تقرير آخر عن الجسر، وعن القوة التي وصلت إلى الطاحونة قبل أن يتمكن رجاله من قطع الانسحاب.

لم يأمر بمحاولة جديدة عند الحجارة نفسها.

طلب من ضباطه معرفة المواضع التي تخرج منها المؤن إلى الجسر، والطرق التي تستخدمها القرى للوصول إلى المدينة. ثم أشار إلى أرض مرتفعة تقع بعيدًا عن مجال الرماة.

تُرسل إليها مجموعة خفيفة عند الفجر.

أما العربات، فتبقى متقاربة حتى يُعرف ما وراء المنعطف التالي.

في الجهة الأخرى، وصل خبر البستان إلى سايرن بعد خبر الدورية التي رُصدت قرب طريق المؤن.

حمله جندي رافق بعض النازحين إلى نقطة جمع خلف الطاحونة. لم يعرف أسماء من ساعدوهم. قال إن بينهم بنّائين وشيخًا وفتى، وإنهم خرجوا من جهة اعتقد الحرس أنها تنتهي عند القناة.

طلب سايرن تحديد الموضع.

أشار الرجل إلى رقعة واسعة.

لم تكن إجابة تكفي لإرسال رجال إليها.

سأل هارث عن سجلات المياه والطرق القديمة.

قال الضابط إن بعضها في الديوان، وبعضها لا يُسأل عنه إلا أهل الأرض.

— نحتاج إلى الاثنين.

نظر سايرن إلى الخطوط التي رسمها فوق الورقة.

كان قد وضع رجالًا عند الطرق التي يعرفها.

بدأ يفكر في الرجال الذين يستطيعون الوصول إليهم من غيرها.

◆

عاد نائل إلى النزل بعد أن أُسكن صاحب البستان ومن معه في دار التجار.

بقي رائف هناك يصلح عربة اليد. قال إن صاحبها سيغضب إذا أعادوها بعجلة تميل، وإن إنقاذ الناس لا يعفيهم من إصلاح ما استعاروه.

أراد نائل مساعدته.

لم تستطع يداه الإمساك بالأداة طويلًا.

أرسله الشاب مع أوران.

في الغرفة، فك الفتى الحبل عن العصا المعدنية، ومسح ما علق بها من القماش والتراب. تتبع الموضع الذي سمع عنده الصوت الحاد.

لم يجد انحناءً.

وجد خدشًا صغيرًا لم يعرف إن كان جديدًا.

وضعها قرب الباب، ثم أخرج رسمه.

أضاف موضع الانهيار، ومدخل التنظيف، والبناء الذي نزلوا من خلفه. حين بلغ الدرج الأخير، توقف.

نظر إلى أوران.

كان الشيخ يجلس عند النافذة، يحاول إخراج شظية خشب من راحته. قربها من الضوء، ثم أبعدها، وطلب الإبرة.

ناوله نائل إياها.

بقي واقفًا.

قال:

— حين مررت من ذلك المكان قديمًا... هل كان الدرج مفتوحًا؟

توقفت الإبرة فوق الكف.

لم يرفع أوران رأسه فورًا.

في الأسفل، دق الخباز لوحه على حافة التنور ليسقط عنه الدقيق.

قال الشيخ:

— نعم.

عاد نائل ينظر إلى الرسم.

كان قد ترك حول الدرج مساحة بيضاء.

هذه المرة لم يعرف ما الذي ينبغي أن يكتبه فيها.

◆

وصلت رسوم القنوات ملفوفة داخل سجل للضرائب.

لم يجد موظف الديوان غلافًا آخر يحميها من المطر، فأخرج صفحات قديمة من السجل، ووضع مكانها الأوراق التي جمعها خلال يومين. حملت بعضها أختامًا باهتة، ورُسم بعضها فوق ظهور حسابات لم تعد تخص أصحاب الأرض الذين يعيشون فيها.

فتحها هارث عند الطاحونة.

كانت المائدة أضيق من أن تتسع لها، فمدّ لوحًا بين صندوقين، ووضع فوقه الأثقال التي يستخدمها صاحب المكان لوزن أكياس الدقيق.

جلس سايرن إلى الجانب الذي لا تأتيه الريح.

خفّ الانتفاخ عند جنبه، لكن النهوض بعد جلوس طويل ظل يحتاج إلى وقت. صار المضمّد يترك له الرباط الجديد دون أن يشرح كل مرة ما سيحدث إن عاد إلى شد الحبال وحمل المصابين.

قرأ أول رسمين، ثم أبعدهما.

كان أحدهما يُظهر جسرًا لم يبقَ منه غير القواعد. أما الثاني فحمل مسلكًا ينتهي عند مخزن هُدم قبل مولد هارث.

في الورقة الثالثة، توقف.

اقترب من اللوح.

امتد خط القناة خلف البستان، ثم انقطع عند علامتين صغيرتين. إلى جانبه قياسات متقاربة، وسهم يشير إلى فتحة لا تتسع لعربة، وملاحظة عن درجات تنتهي فوق مسلك سفلي.

لم تكن الكتابة كلها بيد واحدة.

رأى خطًا مرتبًا يثبت الأرقام، وآخر أسرع أضاف الانحناءة وموضع الانهيار.

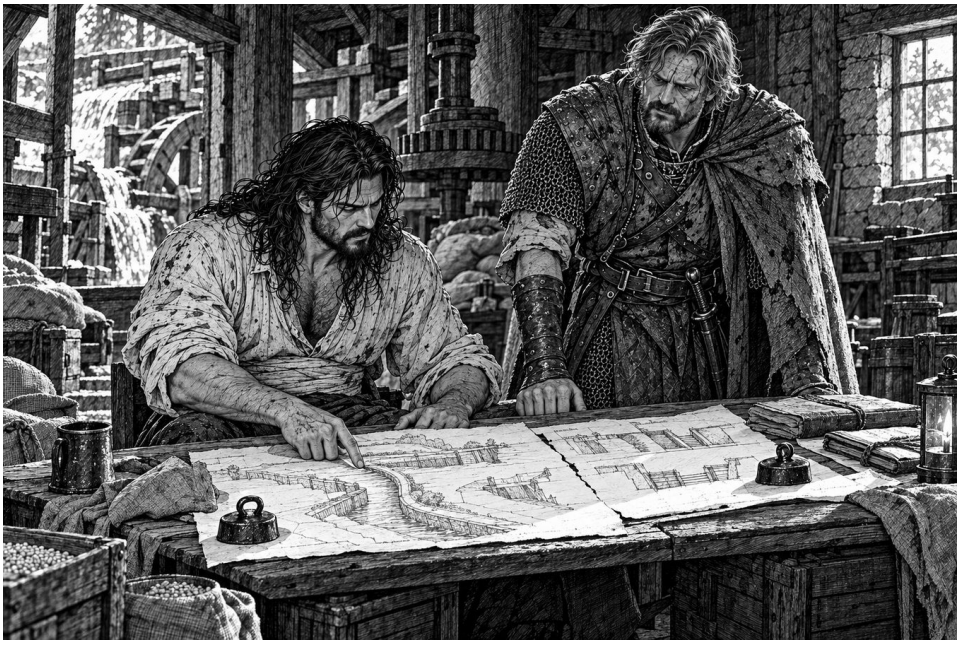

قال:

— أيّ عبقري حسب هذا؟ ومن اكتشف الممر؟

نظر هارث إلى الورقة من الجهة الأخرى.

— وصلت مع رسوم المياه. الرجل الذي جاء بها يعرف من جمعها، ولا يعرف من رسم كل واحدة.

قلبها سايرن.

على ظهرها جزء من حساب لألواح خشبية، شُطب آخره.

أعادها إلى وجهها الأول.

— ظننت هذه الحسابات من بقايا البنّائين الأوائل.

قال هارث:

— الحساب الذي خلفها جديد. صاحبه ما زال يطالب بثمن الخشب.

لم يرفع سايرن عينيه.

تتبع المسافة بين الدرج والمسلك السفلي، ثم قارنها بخريطة الطريق الذي استخدمته قوافل زافرين. إذا بقي المخرج مفتوحًا، أمكن لرجال مشاة بلوغ جانب الممر دون الصعود إلى المرتفع الذي وضع رالك عليه رماة.

وإذا كان مغلقًا، فسيجدون أنفسهم داخل قناة لا يستطيعون التراجع منها بسرعة.

أخذ قطعة فحم، ووضع دائرة حول الموضع.

— نرسل من يراه.

استدعى هارث رجلين من أهل القرى، ومعهما جندي يعرف القياس. أعطاهم الحبل، وطلب ألا يكتفوا بإيجاد الدرج؛ يريدون معرفة ما بعده، والأرض التي يستطيع رجل يحمل درعًا أن يقف فيها.

خرجوا قبل الظهر.

في الخارج، كانت عربة تُفرغ نصف حملها عند الطاحونة، ثم تعود لتأتي بالبقية. لم يعد الطريق يحتمل قافلة كبيرة؛ كلما ظهرت العربات، تحركت على المرتفع وجوه تحاول عدّها.

بقي سايرن يراقبها من الباب.

جاء ضابط من الحاميات المنسحبة، وفي يده قائمة بالرجال الذين يستطيع إخراجهم.

مدها إلى هارث، ثم رأى سايرن يأخذها.

لم يترك طرفها فورًا.

— طلب القائد أن تُعرض عليه.

رفع هارث رأسه.

— وأنا طلبت منه أن يقرأها.

تركها الضابط.

بقي واقفًا حتى انتهى سايرن من النظر في الأسماء، ثم سأله الأخير عن أربعة رجال كُتب أنهم قادرون على المسير.

قال إنهم يستطيعون.

— بالدروع؟

تردد.

خرجوا إلى الفناء.

حمل الرجال دروعهم، ومشوا حتى السور ثم عادوا. عند المرة الثالثة، بدأ أحدهم يجر قدمه. أما الثاني فسلّم درعه إلى رفيقه قبل أن يبلغ الباب.

أعاد سايرن القائمة.

— هذان يبقيان هنا.

نظر الضابط إلى هارث.

أومأ.

بعد انصرافه، قال سايرن:

— سيعود بالسؤال نفسه.

أخذ هارث الورقة ووضع عليها علامته.

— يعود إليّ.

◆

احتاج المستطلعون إلى ليلة أخرى.

عاد الأول عند الفجر ليقول إن الدرج موجود، وإن المخرج يؤدي إلى أرض يمكن عبورها. بقي الآخران ليراقبا المرتفع ويعرفا متى تتبدل الحراسة.

لم يطلب سايرن التحرك فورًا.

أرسل إلى أردان وصفًا لما يريد فعله، وحدد المواضع التي سيبقي فيها الرجال، والطريق الذي يمكن أن يعودوا منه إذا فشلوا. لم يكتب أن النصر قريب. كتب أن انتظار اكتمال مواقع رالك سيجعل إخراجه منها أصعب.

وصل الإذن في المساء.

كان محددًا بالممر والطريق المؤدي إليه.

قرأه هارث، ثم طواه.

خلال الأيام التالية، استمرت العربات الصغيرة في الوصول إلى الطاحونة. ظهر الرجال فوق الجسر في الأوقات نفسها، وتبدلت الحراسة كما كانت تتبدل. أُصلح حاجز، وأضيفت أخشاب إلى آخر، حتى ظن من يراقبهم أنهم يعدون المكان لانتظار طويل.

خلف السقيفة، تدربت المجموعة التي ستدخل القناة على السير متقاربة دون أن تصطدم الدروع بالجدران. حملوا ما يحتاجون إليه فقط، وتركوا الرماح الطويلة لمن يبقى عند الجسر.

في اليوم الرابع، خرج سايرن إلى الفسحة خلف الطاحونة.

أخذ سيفًا من الأسلحة التي جُمعت من الحاميات، واختبر قبضته. لم يكن متوازنًا كما يريد، لكنه أصلح من غيره. حرّكه ببطء، ثم أعاد الحركة أسرع.

عند الاستدارة، شدّه جنبه.

توقف.

كان هارث عند الباب.

— لهذا ظننت أنك خرجت لتختبر السيف وحده.

أعاد سايرن النصل إلى غمده.

— جيد أنك لم تأتِ لترى العرض.

اقترب الضابط.

كان سايرن قد صار يستطيع المشي إلى رأس الجسر والعودة دون أن يجلس، لكن هارث عرف الفرق بين ذلك وبين الوقوف أمام رجل يريد قتله.

قال:

— أستطيع قيادة المجموعة.

— وستقود الرجال الذين يتقدمون من الطريق.

— وأنت؟

نظر سايرن إلى المرتفع.

— أخرج من الجانب. إن بقينا جميعًا هنا، عرف أين يضع دروعه.

لم يبدُ هارث مقتنعًا.

أضاف سايرن:

— لن أصعد إلى أعلى التلة. أحتاج إلى موضع العربات فقط.

أخرج هارث الرباط الذي جاء به المضمّد، ورماه إليه.

— إذن لا تدع أحدًا ينقل العربات إلى أعلى التلة.

◆

عرف رالك أن شيئًا يتحرك عند الطاحونة قبل أن يعرف ماهيته.

وصلته التقارير في وقت متأخر من النهار. زاد الرجال عند رأس الجسر، وتقدمت أخشاب جديدة إلى الحاجز الأمامي. رأى أحد رماة المرتفع ضابطًا يشير إلى الطريق، ثم عادت الحركة إلى هدوئها.

أرسل رالك رجالًا إلى المنحدر القريب من الماء.

لم يجدوا قوة تتجمع.

وجدوا آثار دواب، وحطبًا قُطع حديثًا، وموضع نار أُطفئت قبل أيام.

عاد التقرير إليه مطمئنًا أكثر مما أراد.

خرج من خيمته الصغيرة، ومشى إلى العربات.

كان الممر وراءها يضيق بين كتف من الصخر وجدار قديم. اضطروا إلى توسيع أحد جانبيه بالحجارة كي تمر الأحمال الثقيلة، وظل على السائق أن يبطئ عند المنعطف حتى لا تصطدم العجلة بالحافة.

أمر بإبقاء عربة فارغة قرب الموضع.

إن اضطروا إلى إغلاقه، تُدفع بالعرض وتُقطع أحزمتها.

سأله ضابطه إن كان ينتظر هجومًا.

نظر رالك إلى الطريق المؤدي إلى الطاحونة.

— أنتظر أن يتوقفوا عن انتظارنا.

في الليلة نفسها، دخل رجال سايرن القناة.

لم يحملوا مصابيح إلا في الجزء الذي لا يصل إليه الضوء. تقدمهم أحد الرجلين اللذين فحصا المسلك، وخلفه النجار بحبل وأداة قصيرة. كلما ضاق الموضع، مرروا الدروع من يد إلى أخرى قبل أن يعبر أصحابها.

كان الماء باردًا عند الكاحلين.

تسرب إلى حذاء سايرن، لكنه لم يتوقف لإفراغه.

عند الدرج، رفع رأسه نحو فتحة خرج منها هواء أقل رطوبة. رأى السماء شريطًا ضيقًا، ثم كتف الرجل الذي صعد قبله.

مد يده إلى الحافة.

ساعده الجندي على الخروج دون أن ينظر إلى جنبه.

تجمعوا في منخفض خلف الصخر.

لم يكونوا كثيرين. كان العدد الذي تسمح به القناة أقل مما أراد سايرن، لكنه يكفي للاستيلاء على موضع إذا فوجئ من يحرسه، ولا يكفي للبقاء فيه طويلًا إن تأخر هارث.

انتظروا.

في الأسفل، تحرك ضوء عند أول عربة.

سمعوا رجلًا يسعل، وآخر يطلب ماءً، ثم عاد صوت الأحزمة والدواب.

عندما جاء صوت القرن من جهة الطاحونة، رفع سايرن يده.

بدأوا النزول.

◆

لم يبلغوا العربات دون أن يُرَوا.

كان أحد الحراس واقفًا قرب كيس علف، وقد ابتعد عن النار ليقضي حاجته. رأى حركة عند الصخر، وظنها أولًا من رجال المرتفع.

نادى.

لم يجبه أحد.

رفع رمحه، ثم صاح قبل أن يصل إليه الجندي الأول.

تحولت الأصوات في الأسفل.

أمر سايرن رجاله بالإسراع.

عبروا الجزء المكشوف، وبلغوا العربة الفارغة قبل أن تُدفع إلى وسط الممر. أمسك النجار بالعجلة، بينما قطع رجل آخر الحبل الذي ربطها إلى وتد.

جاءهم الحرس من خلف الأحمال.

لم يكن القتال واسعًا بما يسمح للرجال بالاصطفاف. اصطدمت الدروع بجوانب العربات، وانحشرت الرماح بين الأكياس. حاول أحد جنود زافرين صعود حمولة ليرى ما يحدث، فسحبه رجل من إيفارا قبل أن يستقر فوقها.

دخل سايرن من الجانب.

دفع نصلًا بعيدًا عن وجه النجار، ثم ضرب صاحبه بكتفه وأعاده إلى العجلة. لم يتبعه حين سقط؛ أخذ موضعه، وطلب من رجاله فتح الطريق نحو المنعطف.

من جهة الطاحونة، تقدم هارث تحت الرمي.

كان عليه عبور فسحة طويلة قبل أن يبلغ أول ساتر. توقف مرتين ليعيد جمع الرجال خلف الدروع، ثم رأى راية صغيرة ترتفع قرب العربات.

وصلت المجموعة.

رفع سيفه.

في المرتفع، حاول الرماة تغيير اتجاههم، لكنهم لم يستطيعوا إطلاق سهامهم نحو الممر دون أن تمر فوق رجالهم. أمر ضابطهم بالنزول إلى حافة أدنى.

كان ذلك ما احتاج إليه هارث.

تقدم إلى الساتر الأول.

عند العربات، أخذ رجال سايرن يدفعون العربة الفارغة نحو الفرع الذي تأتي منه تعزيزات رالك. اصطدمت عجلة بالحجر، فتوقفت.

انحنى النجار.

قبل أن يمس المحور، اخترق سهم الخشب قرب يده.

رجع إلى الغطاء.

ظهر رالك عند أول المنعطف.

لم يكن يحمل خوذته. وضعها أحد رجاله في يده وهو يسير، فارتداها دون أن يتوقف، ثم أمر بإبعاد المصابين عن وسط الطريق. جمع حوله رجالًا تفرقوا بين العربات، وأعادهم إلى صف قصير.

تحرك بهم نحو العربة.

رأى سايرن الصف يقترب، وعرف أن رجاله لن يستطيعوا دفعها والقتال معًا.

أمر اثنين بالبقاء عند العجلة، ثم تقدم بالبقية.

التقى الصفان بين حمولة حبوب وجدار القناة القديم.

اهتزت الأكياس حين اصطدم بها رجل.

انفرط أحدها.

صار القمح تحت الأقدام.

◆

وصلت ضربة رالك إلى درع الرجل الذي يقف أمام سايرن.

هبطت بقوة جعلت الجندي ينحني، ثم جاءت الثانية إلى جانب رأسه. أمسك سايرن بحزامه وجذبه، وأدخل سيفه بين النصل والكتف قبل أن تستقر الضربة.

التفت رالك إليه.

لم يمنحه وقتًا ليعتدل.

تقدم بسيفه ودرعه، وضربه إلى الجهة التي لا يستطيع التراجع فيها إلا نحو العربة. تلقى سايرن الضربة على حافة النصل، ثم انزلق إلى الجانب.

لامس ظهره الخشب.

رأى رالك الثوب الخشن تحت الدرع، ورباطًا ظهر عند الخصر.

ضرب نحو ذلك الموضع.

أبعد سايرن السيف، لكنه احتاج إلى حركة أوسع مما أراد. امتد الألم من جنبه إلى ظهره، وتأخر انتقال وزنه.

أصابه الدرع عند الكتف.

ارتطم بالعربة.

لم يسقط.

أدخل قدمه بين قائمتيها، ودفع نفسه خارج الزاوية قبل أن يصل النصل إلى عنقه.

من حولهما، استمر الرجال في القتال. حاول أحد جنود إيفارا الاقتراب، فاعترضه رجل من زافرين. لم تتسع الفسحة إلا لأن كل طرف صار يقاتل ليبقي الجانب القريب من قائده مفتوحًا.

عاد رالك يتقدم.

كان أثقل من سايرن في الدرع، وأقل استعجالًا مما توقع. لم يكرر الضربة التي أخفق بها. أبقى نصل سيفه أمامه، ودفعه إلى حركات قصيرة تجبره على الصد، ثم حاول بلوغ الجنب من الأسفل.

تراجع سايرن خطوة.

ثم أخرى.

عند الثالثة، وجد تحت قدمه الحبوب المنثورة.

كاد ينزلق.

رآها رالك.

اندفع.

خفض سايرن مركز جسده بدل أن يحاول الفرار من الضربة. مر النصل فوق كتفه، وأخذ من الثوب والجلد خطًا قصيرًا. في اللحظة نفسها، ضرب بمقبض سيفه حافة خوذة رالك.

مال رأس الرجل.

لكنه بقي واقفًا.

رد بدرعه، فابتعد سايرن قبل أن تصيبه الحافة كاملة.

صار بينهما مقدار ذراع.

سمع سايرن أنفاسه أوضح من أصوات الرجال.

رفع رالك سيفه مرة أخرى.

كانت له طريقة في إعادة القدم الخلفية قبل الهجوم، تُبقي الدرع ثابتًا حتى اللحظة التي يخرج فيها النصل من جانبه. راقب سايرن القدم، ثم اليد، ثم الفراغ الذي يظهر تحت الحافة.

لم يحتج إلى ضربة طويلة.

احتاج إلى أن يجعله يفتح الموضع مرة واحدة.

ترك كتفه تهبط قليلًا.

لم تكن الحركة تمثيلًا كاملًا؛ كان التعب قد بدأ يأخذها فعلًا.

تقدم رالك نحو الجانب المصاب.

استقبله سايرن بسيف منخفض، ثم دخل إلى المسافة التي لا يستطيع فيها الرجل استخدام طول نصله. ارتفع الحديد بينهما بصوت قصير، والتصقت قبضتاهما لحظة.

دفع رالك.

هذه المرة لم يتراجع سايرن.

ثبتت قدمه فوق الحجر، واشتد ساعده تحت الجلد حتى برزت عروقه. أحس الجندي الأقرب إليه باهتزاز العربة حين اصطدم بها درع رالك.



انفتح الصف مقدار خطوة.

رفع رالك رأسه.

صار الوجه قريبًا، تحت حافة الخوذة، بما لا يسمح للغبار واللحية أن يخفياه.

تحركت عيناه.

— سايرن؟

لم يسمعه غير الرجل الذي أمامه.

لم يجبه.

حاول رالك الفصل بينهما بدرعه. رفعه ليحمي عنقه، وحوّل سيفه إلى طعنة قصيرة باتجاه الجرح.

ترك سايرن النصل يمر بمحاذاة ثوبه.

دخل الألم مع الحركة، لكنه كان قد اختارها.

دار إلى خارج الذراع، ودفع سيفه تحت حافة الدرع عند الموضع الذي انكشف.

توقف رالك.

بقيت يده على المقبض.

نظر إلى سايرن مرة أخيرة، كأنه يريد أن يكمل الاسم، ثم ارتخت ركبتاه.

سحب سايرن سيفه، وتراجع خطوة حتى لا يسقط الرجل فوقه.

في الجهة الأخرى من العربات، ارتفع صوت هارث.

بلغ رجاله الممر.

دُفعت العربة الفارغة أخيرًا، واستقرت بالعرض عند الفرع الذي حاولت منه قوة زافرين الوصول. صعد رماة إيفارا إلى الحافة التي تركها خصومهم، وصارت رؤوس المهاجمين مكشوفة عند المنعطف.

لم يتوقف القتال حين سقط رالك.

قاتل بعض رجاله ليبلغوه. حاول آخرون سحب العربة من وسط الطريق، ثم تركوها حين بدأت السهام تصل إلى العجلات.

أخذ أحد الضباط يصرخ بأمر التراجع.

انتقل الأمر بصعوبة.

في آخر الممر، تجمعت القوة المنسحبة خلف دروعها، ثم بدأت تبتعد نحو الطريق الذي جاءت منه.

رفع جندي من إيفارا سيفه ليتبعها.

أوقفه سايرن.

— ابقَ عند الحجارة.

لم يسمعه الأول.

كرر هارث الأمر بصوت أعلى.

توقفت المطاردة قبل أن تبدأ.

وقف سايرن قرب الجدار، ووضع يده عليه.

كانت في أسفل ثوبه بقعة جديدة، لكنها لم تتسع سريعًا. أغلق عينيه لحظة، ثم فتحهما حين وصل هارث.

نظر الضابط إلى رالك.

ثم إلى وجه سايرن.

لم يسأل ماذا قال الرجل قبل سقوطه.

قال:

— الممر لنا.

أومأ سايرن نحو المرتفع.

— حين يصل رجالنا إلى آخره.

أرسل هارث القوة التي احتفظ بها.

بعد قليل، ظهرت دروع إيفارا فوق الحافة.

عندها فقط جلس سايرن.

◆

وصل خبر الغرب إلى دارن عند فجر يوم كان ينتظر فيه هجومًا.

قرأه قرب نار صغيرة، ثم أعطاه للضابط الذي بقي إلى جانبه طوال الليل. ورد اسم هارث في الأمر، وعدد العربات المستعادة، ومقتل قائد القوة الغربية. لم يرد اسم الرجل الذي قاتله.

طوى دارن الورقة.

في الأسفل، امتدت أرض منخفضة بين تلين، يعبرها طريق يصل إلى المعبر الداخلي. إذا أخذتها زافرين، استطاعت فصل وحدتين من جيش إيفارا عن المخازن القريبة.

كان دارن قد أمر بالتراجع عن سور حقل مهجور قبل ساعات.

اعترض عليه قائده؛ الرجال قاتلوا يومين ليبقوا خلفه.

أراه الأرض التي وراء السور.

لا موضع فيه يسمح بإخراج المصابين، ولا طريق تصل منه الدروع البديلة دون أن يراها الرماة.

تركوا عنده حرسًا قليلًا، وانتقل الباقون إلى خط أقصر.

عند ارتفاع الضوء، ظهرت قوات زافرين.

تقدمت نحو السور أولًا، ثم توقفت حين لم تجد فيه القوة التي توقعتها. انحرفت مجموعة إلى الطريق، وتبعتها أخرى تحمل دروعًا أعرض.

في وسطها، سارت امرأة تحمل سيفًا رفيعًا إلى جانب ساقها.

عرفها أحد ضباط دارن قبل أن تتضح ملامحها.

— الأميرة أزال.

رفعت فارسة الطائر الذهبي يدها، فتوقف الرجال عند طرف السور.

وضعت قدمًا على حجر بارز، ثم ارتفعت إلى الحافة بحركة لم تثنِ ركبتها إلا قليلًا. شدّت الريح معطفها إلى الجانب، وبقيت فوق الحجر تنظر إلى الأرض التي انسحب إليها رجال إيفارا.

تحرك جيش زافرين نحو الأرض المنخفضة.

انتظر دارن حتى تجاوزت مقدمته السور المهجور، ثم أرسل رجاله إلى جانبيه.

ضاقت المسافة.

بدأ الاشتباك عند طرف الطريق، وانتقل سريعًا إلى الأرض التي قطعها السيل في الشتاء. تعثرت أقدام، وانزلقت دروع عن الأكتاف، وصار على الرجال أن ينظروا إلى ما تحتهم بقدر ما ينظرون إلى خصومهم.

رأت أزال ما يحدث.

دفعت بقوة صغيرة إلى الجانب الذي لم يكتمل إغلاقه، ثم انزلقت عن السور وسبقتهم إلى الطريق.

كان دارن هناك.

التقى السيفان قرب جذع شجرة اقتُلعت ولم يُنقل خشبها.

ضربت أزال من جهة، ثم خفّ جسدها فوق الخشب. حملتها دفعة من الريح إلى الجانب الآخر قبل أن يستقر صد دارن، فاضطر إلى الدوران كي يبقيها أمامه.

لم تغص قدمها في الوحل حين هبطت.

لامست الأرض بطرف الحذاء، ثم دفعتها الريح نحو الجذع.

بلغته بخطوة لا تكفي رجلًا لعبور نصف المسافة.

ثبت دارن قدميه. كان يستطيع قراءة السيف، لكن المسافة التي يحسبها بين ضربتين تتغير كلما خفّ وزنها. انتظر أن تستقر فوق الخشب، وأبقى نصلَه قريبًا من صدره.

راقب دارن كتفها.

ثم القدم التي تلامس الخشب.

مدّت أزال سيفها كأنها تريد الصد، ثم قلبت القبضة في منتصف اللقاء وحوّلت نصله إلى الخارج. حملتها الريح مع الحركة، فبلغت جانبه قبل أن يغلقه.

انكشف صدره مقدار لحظة.

انسحب قبل أن تكتمل الطعنة، لكنها شقت جلد الدرع فوق أضلعه.

عادت أزال إلى طرف الجذع.

لم تتكلم.

جاءت حركة المعصم ثانية بعد ثلاث ضربات مختلفة.

هذه المرة وجد دارن معصمه يعرف الطريق.

أدار النصل بالزاوية نفسها.

التقى الحديد بالحديد، وانحرف نصلها. لكن قدمه بقيت في الطين حين ارتفعت هي؛ حفظ جسده حركة السيف، ولم يجد ما يحمل وزنه معها. ثم صعد الألم في ساعده المصاب.

رأت أزال قبضته تهتز.

غيّرت اتجاهها في الهواء، وهبطت إلى جانبه.

انحنى دارن تحت الضربة، وترك درعه يتلقى ما بقي منها. انقطع أحد أربطته، فتدلى عند ذراعه.

ابتعدا مقدار خطوات.

قالت أزال:

— تعرف الحركة.

رفع دارن السيف.

— الآن.

ارتفعت أزال عن الأرض قبل أن ينتهي صوته.

لم يحاول دارن اللحاق بها. تراجع نحو الجذع، حيث تضيق مواضع الهبوط، وأبقى يده أقرب إلى جسده. راقب الحافة التي تقصدها قدمها بدل أن يتبع معطفها في الريح.

ضغطت أزال عليه بسيفها الرفيع.

خلفهما، ارتفع قرن إيفارا.

اكتمل تحرك الرجال إلى جانب القوة المتقدمة.

سمعته أزال، ورأت صفها ينحني من الجانب. انزلقت نحو دارن لتفتح لرجالها منفذًا، ومدّت سيفها إلى الفراغ فوق درعه المتدلي.

رأى قدمها تتجه إلى الطرف المكسور من الجذع.

ترك الدرع المقطوع يسقط.

أخذ السيف بكلتا يديه، ورفع نصلها عن صدره. ثم تقدم إلى موضع هبوطها بدل أن يتراجع عن الطعنة.



أدارت أزال جسدها في الهواء، فابتعدت عن سنّه.

لكن قدمها لم تجد على الخشب إلا الحافة.

مالت لتستعيد توازنها، وانكشفت وصلة الدرع عند كتفها.

وصل إليها نصل دارن قبل أن تحملها الريح بعيدًا.

هبطت أزال وراء الجذع، والسيف أمامها. ظهر الدم عند كتفها، ولم يرتفع ذراعها بالسرعة نفسها حين أعادت الحراسة.

لم يندفع دارن وراءها.

كان أحد جنوده قد سقط إلى اليمين، وكاد الفراغ يسمح لرجال زافرين بالمرور. انتقل إليه وسد الموضع، وأمر الصف بالتقدم خطوة واحدة.

وجدت أزال رجالها يتراجعون من الجهة الأخرى.

رفعت سيفها وأشارت إلى السور المهجور.

أخذ الانسحاب شكلًا منظمًا قبل أن يتحول إلى هرب.

بقيت في المؤخرة، تتنقل بين مواضع الخلل، حتى صار بينها وبين دارن صف يحمل الدروع. لم تترك أحدًا ينفصل عنه ليعود إليها.

لم يُحسم كل ما بينهما عند الجذع.

لكن الطريق خلف دارن بقي مفتوحًا.

حين انتهى الهجوم، حاول أحد الجنود أن يأخذ سيفه لينظفه.

لم تستطع أصابع دارن تركه فورًا.

انتظر الرجل حتى فتحها بيده الأخرى.

◆

دخل قرهان المعبر قبل أن يصل خبره إلى دمهار.

لم يجد المخازن خالية كما قال بعض من جاءوا بالأخبار. بقيت فيها حامية صغيرة، وعربتان محملتان بالشعير، وضابط أغلق الباب حين رأى رجال قاسران عند الطرف الآخر.

استمر القتال إلى ما بعد الظهر.

أُخذ المعبر، لكن البرج القريب ظل يرمي الطريق حتى دفع قرهان رجاله إلى موضع لا يستطيع رُماته بلوغه من فتحاته. عند المساء، خرج من بقي داخله بعد أن أُلقيت الأسلحة إلى أسفل.

وقف قرهان فوق الدرج، ينظر إلى الطريق الممتد وراء المخازن.

قال ضابطه إن حامية أخرى تنسحب إلى الشمال، وإنهم يستطيعون اللحاق بها قبل الظلام.

كان الطريق ظاهرًا.

ورجاله ما يزالون قادرين على السير.

سأل قرهان عن عدد المصابين.

ثم عن العربات التي وصلت.

أُعطي رقمين لم يتساويا.

بقي ينظر إلى الغبار البعيد، ثم أمر بفتح المخزن وإخراج ما يصلح للفراش.

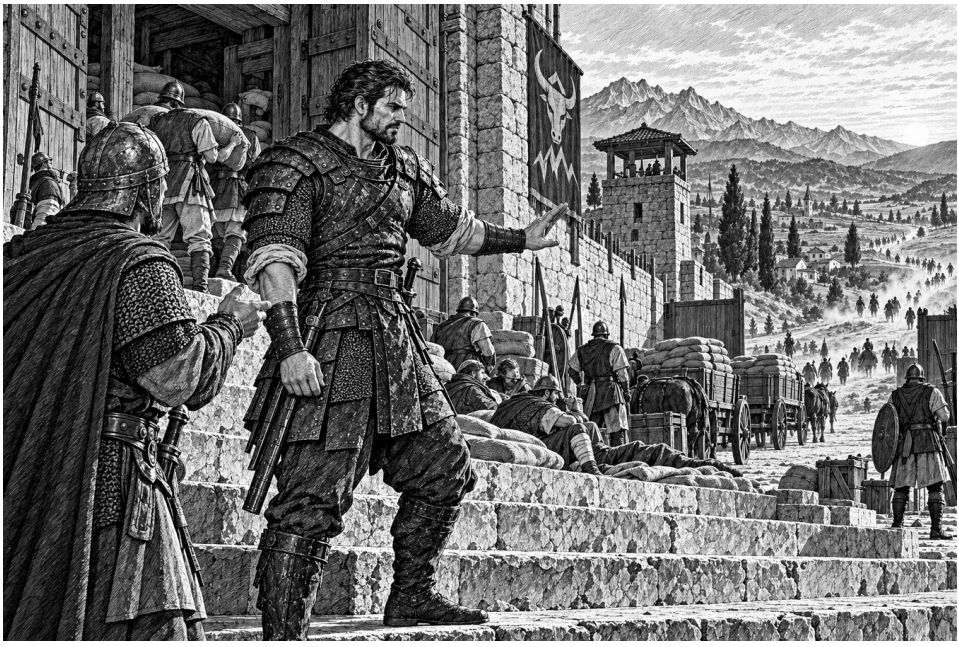

قال الضابط:

— سيعيدون جمع أنفسهم.

— ونحن أيضًا.

لم يبدُ راضيًا وهو يقولها.

لكنه لم يتجاوز الموضع الذي وافقت عليه ميرافا.

وصل تقريره إلى الملكة مختصرًا، ومعه قائمة بما وجدوه داخل المخازن، وأسماء من سقطوا قبل أن تُفتح.

قرأت ميرافا الأسماء قبل الأعداد.

ثم سألت إيلدار إن كانت القوة قد توقفت عند المعبر.

أجاب بالإيجاب.

أعادت التقرير إلى المائدة.

— تُرسل إليه العربات التي طلبها.

في هاروك، وصل الخبر في اليوم التالي.

كانت نيرفا قد عادت إلى العاصمة، وانتهت من مراجعة آخر سجلات التسليم. دخلت على فاريك فوجد أمامه رسالة من زافرين تطلب مزيدًا من الدواب والمؤن، وخبرًا عن مقتل رالك لم يتضمن تفسيرًا واضحًا لكيفية ضياع الممر.

وضع الملك إصبعه على طلب جروان.

— كم يمكن أن نرسل؟

قرأته.

ثم وضعت إلى جانبه تقرير المعبر الذي أخذه قرهان.

— أقل مما يطلب. وأكثر مما أريد أن نخرجه الآن.

طلب فاريك الأعداد.

أعطته ما يمكن نقله دون إفراغ الحاميات، ثم ما سيبقى إذا عادت قاسران إلى الضغط على طريق آخر.

طال نظره إلى الرقم الثاني.

لم يلغِ ما التزم بإيصاله من قبل.

لكنه لم يوافق على الزيادة.

خرجت إلى جروان رسالة تحمل الأختام نفسها التي فتحت له الطريق، وتخبره هذه المرة بما لن يسلكه.

◆

لم تتوقف الحرب في يوم واحد.

بقيت السهام تصل إلى المواضع الأمامية بعد أن بدأ الحديث عن وقف القتال. هاجمت دورية عربة ظنت أنها تحمل رجالًا، ثم وجدت فيها أكياسًا فارغة. وفي الشرق، تأخر أمر الانسحاب عن مجموعة بقيت قرب سور الحقل حتى خرج إليها ضابط تحت قطعة قماش بيضاء.

وصل أول طلب للتفاوض إلى أردان بصيغة لا تذكر الهزيمة.

تحدث جروان عن منع اتساع الخلاف، وعن استعداد مملكته لترتيب توقف متبادل، شرط ألا تتعرض قواته للهجوم أثناء انتقالها من المواضع الحالية.

قرأ أردان الرسالة، ثم وضعها إلى جانب تقارير الحاميات.

لم يكن لديه جيش يستطيع دفع زافرين بعيدًا ثم البقاء عند حدودها. كانت بعض الوحدات تقف بنصف رجالها، والعربات التي حملت المؤن صارت تعود بالمصابين، والقرى تنتظر من يخبرها أي الطرق يمكن فتحها.

لكنه لم يقبل أن تتوقف القوات حيث وصلت.

طلب الانسحاب إلى ما وراء حدود إيفارا، وإعادة الحرس الذين أُسروا في الأيام الأولى، وتسليم المواقع دون إحراق مخازنها أو هدم جسورها.

أما الأرشيف، فلم يسمح بإدخاله ضمن شروط المرور.

عادت الرسائل.

تغيرت عبارات، وبقيت أخرى.

في الغرب، أبقى سايرن رجاله عند الممر حتى رأوا آخر العربات تعبر إلى الجهة الأخرى. أُحصيت الوحدات بما يستطيع الرماة رؤيته، ثم أُرسل رجال للتأكد من خلو الطرق الجانبية.

لم يصدقوا الأختام وحدها.

وفي الشرق، وقف دارن قرب السور الذي تُرك ثم استُعيد، يراقب انسحاب قوات أزال.

ظهرت فارسة زافرين على حصانها في آخر الصفوف.

كانت ذراعها مثبتة قرب جسدها.

لم تقترب.

توقفت عيناها لحظة عند رجال إيفارا، ثم تابعت الطريق.

عند المعبر الذي هوجم أول الحرب، أُعيد ثلاثة أسرى.

كان بينهم قائد الموقع.

لم يستطع السير حتى البرج، فأجلسوه فوق حجر، وأخبروه أن الجندي الذي أرسله وصل إلى المحطة التالية.

طلب أن يرى الباب.

لم يبقَ منه إلا جزء معلق بالمفصل.

ظل ينظر إليه طويلًا.

حين أُعلن وقف القتال في تيرافا، خرج الناس إلى الشوارع قبل أن يفهموا شروطه. سأل بعضهم متى تعود العربات إلى القرى، وسأل آخرون عن الرجال الذين لم ترد أسماؤهم في قوائم المصابين.

لم تجد كل الأسئلة جوابًا.

في غرفة المجلس، طُويت خريطة المعارك وبقيت تحتها خريطة الطرق.

وعند الأرشيف، ظل الباب الداخلي مغلقًا.

◆

احتاج سايرن إلى ثلاثة أيام أخرى قبل أن يترك الطاحونة.

جاءه استدعاء أردان في غلاف صغير، يطلب حضوره دون المرور بقاعة المجلس. يصل أولًا إلى تيرافا باسم سارن، وينتظر في نزل حُدد له قرب حي الصناع حتى يأتي من يصطحبه.

قرأ هارث اسم النزل.

— أعرف صاحبه. لن يسمح لك بالنوم إن ظن أن فراشك يحتاج إلى إصلاح.

طوى سايرن الرسالة.

— أدفع له هذه المرة.

بقيت عندهما أعمال لم تنتهِ بانسحاب العدو. رجال يريدون العودة إلى حصونهم، ومؤن ينبغي نقلها، وأسماء كُتبت مرتين وأخرى لم تُكتب في أي سجل.

جلسا إلى الصندوق الذي استخدماه مائدة.

راجع سايرن توزيع الحرس، ثم دفع آخر ورقة إلى هارث.

كانت رسوم القناة تحتها.

سحبها قبل أن يجمع الضابط الأوراق.

نظر إلى الانحناءة، وإلى القياسات المكتوبة عند المخرج.

— إن عرفت من أعدّ هذه، احتفظ باسمه.

قال هارث:

— لأعطيه عملًا؟

— لأعرف كيف رأى ما فات السجلات.

وضع الرسم داخل حقيبته.

عند الرحيل، أعاد إلى هارث علامة الحامية.

لم يأخذها الضابط.

— ما زلت ذاهبًا لمعاينة إصلاح.

نظر سايرن إليه.

— في القصر؟

— يبدو أن العمل تحسن.

ركب العربة مع رجلين يعودان إلى المدينة.

لم يخرج هارث خلفه إلى الطريق. بقي عند الباب يعطي تعليمات للسائق التالي، لكن سايرن رآه يرفع يده قبل أن تحجبه الأحمال.

وصل إلى تيرافا بعد الظهر.

كان الدخول أبطأ مما تذكر. فُتحت الحقائب عند البوابة، ووقف كاتب يراجع أسماء من يحملون أذونات من الحاميات. أخرج سايرن علامة هارث، وانتظر حتى كُتب الاسم الذي صار يلتفت إليه.

سارن.

عند النزل، أعطاه صاحبه غرفة في الطابق الأول، ثم سأله إن كان يريد الطعام قبل أن يصعد.

اختار المقعد القريب من الحائط.

وضع حقيبته تحت قدميه، وأخذ يفك رباط معصمه الذي ضاق بعد طول الطريق.

من الفناء الخلفي، وصل صوت معدن يلامس الخشب.

ثم صوت شاب يحتج:

— قلت إنني سأصلحه.

أجابه رجل آخر:

— قلت ذلك قبل أن تسقطه مرة ثانية.

رفع سايرن رأسه.

دخل فتى يحمل عصا معدنية، وفي يده الأخرى مقعد قصير انفصل أحد قوائمه. وضعه قرب الباب، ثم التفت إلى صاحب النزل.

— رائف يأتي بالأداة.

أشار الرجل إلى الطعام.

— كل قبل أن تجد شيئًا آخر تكسره.

جلس الفتى عند الطرف الآخر من المائدة.

رأى رباط سايرن، ثم أبعد عينيه عنه بسرعة.

أخذ الخبز، وقطعه بيدين تحملان خدوشًا صغيرة.

قال سايرن:

— المقعد خصم صعب؟

نظر الفتى إليه، ثم إلى الباب.

— كان واقفًا في الموضع الخطأ.

— يحدث هذا لكثيرين.

ابتسم الفتى، وبدأ يأكل.

◆

لم يتحدثا عن الحرب أولًا.

سأل سايرن عن العصا، فأخبره الفتى أنه يتعلم استعمالها، وإنها أثقل مما تبدو. حركها عن الممر حين دخل رجل يحمل صينية، ثم أعادها إلى الحائط بعيدًا عن الأقدام.

لاحظ سايرن الحركة.

— ومن يعلمك؟

— أوران.

انتظر الفتى قليلًا، ثم أضاف:

— رجل يستطيع أن يجعل حمل دلو جزءًا من التدريب.

رفع سايرن القدح.

— وهل نفع؟

نظر الشاب إلى راحتيه.

— صرت أحمل دلاء أكثر.

وصل الطعام.

أكل سايرن ببطء. كان قد اعتاد خلال الأيام الماضية أن يرفع رأسه عند كل صوت يصل إلى الباب، ولم يتركه الاعتياد لمجرد أنه جلس في نزل.

سأله الفتى إن كان جاء من الغرب.

أومأ.

— انتهى القتال هناك؟

— توقف.

تأمل الفتى الفرق، لكنه لم يسأل عنه.

قال إنهم عادوا إلى البستان بعد أن سُمح للناس بالمرور. بقيت الأشجار، وكُسر الباب، واختفت أدوات من المخزن. أما الماء فما يزال يصل إلى الحافة التي نظفوها.

رفع سايرن عينيه.

— أي بستان؟

ذكر له موضعه قرب القناة.

سأله عن صاحبه، فأخبره عن القدم المصابة، والمحمل الذي انكسر، وعربة اليد التي أعادوها بعدما أصلح رائف عجلتها.

أبطأ سايرن وضع القدح.

— أنتم خرجتم من خلف المجرى؟

أومأ الفتى.

— من طريق آخر. الأول كان منهارًا.

بقي سايرن ينظر إليه لحظة.

كان الفتى يتحدث كما لو أنه يشرح لماذا تأخر عن الطعام يومها.

سأله:

— وماذا تريد أن تفعل الآن؟

— أصلح المقعد قبل أن يعود صاحبه.

تحرك طرف فم سايرن.

— وبعد المقعد؟

مسح الفتى فتات الخبز عن يده.

— أخرج من تيرافا حين نستطيع. أريد أن أرى ما وراء الطرق التي أعرفها.

— يبدو أنك تحب العثور على الطرق.

رفع الفتى كتفه.

— أحب أن أعرف أن هناك طريقًا آخر.

قالها، ثم مد يده إلى الإناء ووجد أنه فرغ.

قرّب سايرن إناءه إليه.

عاد يسأله عن القناة.

أزاح الفتى القدحين إلى الجانب، ومرر إصبعه فوق طبقة خفيفة من غبار الدقيق وصلت إلى المائدة من كيس فُتح قربها.

رسم الجدار.

ثم الانحناءة.

ثم وضع خطين عند موضع الانهيار.

توقفت يد سايرن فوق الخبز.

كان الرسم أصغر وأقل انتظامًا، لكنه عرف الزاوية قبل أن يضيف الفتى الدرج.

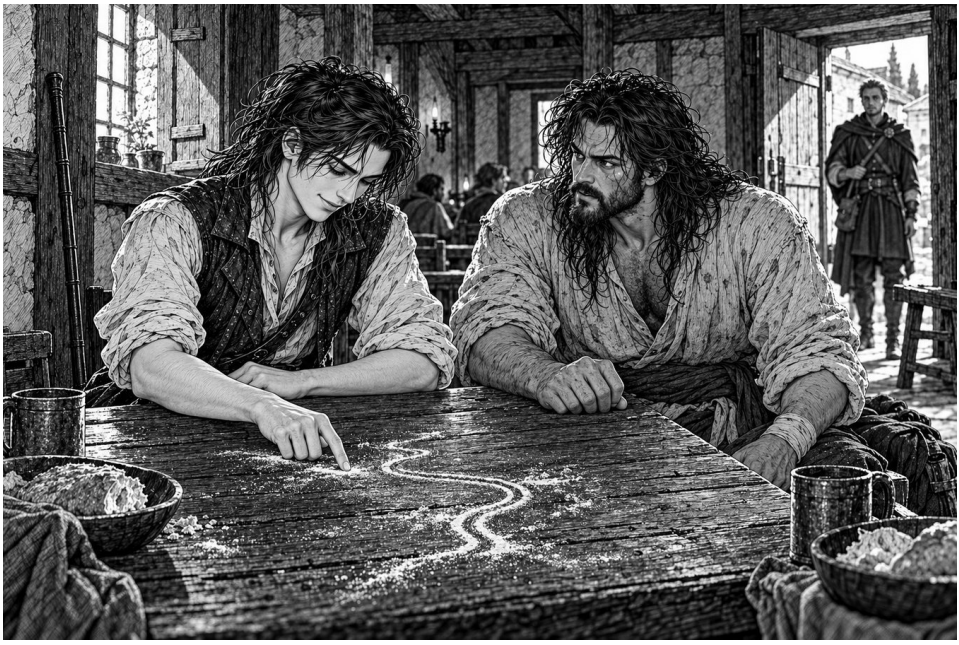

— أنت رسمت هذا؟

رفع الفتى رأسه.

— بعضه. رائف أخذ القياسات.

أشار إلى الفراغ خلف الجدار.

— لو اعتمدوا على رسمي وحده، ربما أرسلنا عربة إلى داخل الحائط.

لم يبتسم سايرن هذه المرة إلا بعد لحظة.

سحب حقيبته بقدمه، ثم تركها مكانها.

— وأنت من أضاف هذا الامتداد؟

تتبع الانحناءة دون أن يمحوها.

أومأ الفتى.

— كيف عرفت أنه يستمر خلف البناء؟

نظر إلى إصبعه المغطى بالدقيق.

ذكر اختلاف صفوف الحجر، ثم توقف، كأنه وجد أن ذلك لا يكفي لشرح ما سأله عنه.

— رأيت شيئًا جعلني أبحث هناك. بعد ذلك فتحنا الموضع.

— قبل أن تقيسوه؟

— لم أقسه أنا.

كان الجواب بسيطًا إلى حد جعل سايرن يعود بعينيه إلى الرسم.

في القناة، لم يكن يستطيع رؤية الأرض التي تقوده إليها الدرجات. سار اعتمادًا على رجال فحصوها، وهؤلاء وجدوا بدايتها في ورقة رسمها فتى لا يبدو أنه يدرك أين انتهى بها الطريق.

أراد أن يسأله عمّا رآه بالضبط.

فتح الباب.

دخل رجل يرتدي معطفًا عاديًا، لكنه وقف عند العتبة بالطريقة التي يقف بها من ينتظر أن يتعرف إليه أحد. جالت عيناه في الغرفة حتى وجد سايرن.

اقترب.

— العربة جاهزة.

نظر سايرن إلى النافذة.

كان الضوء قد بدأ ينخفض، والموعد الذي حدده القصر لا يسمح بتأخير طويل.

أخرج قطعة نقدية ووضعها قرب طبقه، ثم نهض بحذر.

نهض الفتى قليلًا، كأنه يريد أن يساعده، لكنه انتظر حتى رأى إن كان يحتاج إلى ذلك.

أخذ سايرن الحقيبة.

— ما اسمك؟

— نائل.

ثبت الاسم في ذهنه.

قال:

— سارن.

أومأ نائل نحو الرسم.

— إن كنت تحتاج إلى المقاسات، رائف يحتفظ بها.

نظر سايرن إلى الانحناءة مرة أخرى.

— أعرف الآن أين أسأل.

دعاه الرجل عند الباب بإشارة صغيرة.

خرج معه.

في العربة، فتح سايرن حقيبته، وأخرج الورقة التي حملها من الطاحونة. وجد القياسات في مواضعها، والخط الذي لم يعرف صاحبه يمتد خلف الجدار.

مرّ إبهامه فوقه.

تحركت العربة قبل أن يعيد طيها.

أما في النزل، فجاء صاحب المكان يمسح المائدة.

رفع نائل القدحين حتى يمر القماش تحتهما، ثم نهض ليحمل المقعد إلى رائف.

اختفت الانحناءة مع أول مسحة.

وبقي الرسم الآخر مفتوحًا فوق ركبتي سايرن حتى ظهرت بوابة القصر.

◆

دخل سايرن القصر من باب لم يُفتح كاملًا.

أمسك الحارس أحد مصراعيه، وانتظر حتى عبرت العربة، ثم أعاده إلى موضعه. لم يكن في الفناء الصغير من يستقبل وفدًا؛ وقف سائس قرب حوض الماء، وخادم يحمل مصباحًا لم يحتج إلى إشعاله بعد.

نزل سايرن ببطء.

أراد الرجل الذي جاء به من النزل أن يأخذ حقيبته، فأبقاها في يده.

لم يكرر الرجل المحاولة.

قادَه عبر ممر قصير ينتهي بدرج داخلي. عرف سايرن رائحة الخشب المصقول قبل أن يرى الأبواب. كان قد دخل هذا القصر بثياب أخرى، وسار فيه وراء رجال ينادونه باسمه قبل أن يبلغهم.

هذه المرة مرّ عامل يحمل سلة قماش، فتنحى له دون أن يرفع رأسه.

عند آخر الدرج، توقف الخادم أمام غرفة تطل على حديقة صغيرة.

فتح الباب.

كان أردان وحده.

وُضعت فوق المائدة خريطة مطوية، وإلى جانبها دفتر وقلم وقدحان. لم تكن هناك مقاعد للمجلس، ولا كاتب ينتظر أن يسجل ما يُقال.

نهض الملك حين دخل.

انحنى سايرن.

— مولاي.

أشار أردان إلى المقعد.

جلس سايرن ووضع الحقيبة عند قدمه.

بقي الملك واقفًا لحظة، ينظر إلى كتفه التي شُدّ عليها قماش جديد.

— قال هارث إنك تستطيع السفر.

— لم يقل إنني سأكون سعيدًا بالطريق.

جلس أردان.

مد يده إلى الدفتر، ثم تركه مغلقًا.

قال إن العربات عادت تمر من الغرب، وإن القرى القريبة بدأت تستعيد بعض أهلها. وصل إلى تيرافا من رجال الحاميات أكثر مما توقعوا حين أُرسلت أوامر الانسحاب.

أصغى سايرن.

عرف بعض الأعداد، ولم يعرف بعضها الآخر.

حين ذكر الملك من أُخرجوا من حصن هارث، خفض سايرن بصره إلى القدح.

قال أردان:

— سيبقى اسم هارث في التقرير كما اتفقنا. لكنني أعرف ما فعلته.

حرّك سايرن القدح بعيدًا عن حافة المائدة.

— فعل الرجال أكثر مما تسمح به حالتهم.

— وهذا لا يحدث وحده.

لم يجد سايرن ما يضيفه.

فتح أردان الدفتر.

لم يعرض عليه أسماء قتلى المعركة، بل حسابات الحبوب والدواب، وعدد العربات التي تحتاج إلى محاور جديدة، والحصون التي خرجت من الحرب بأبواب لا تُغلق.

قلب صفحة.

ظهرت أسماء قرى، وإلى جانبها تقديرات لما فُقد من بذور ومواشٍ.

قال:

— هذا ما بقي عندي بعد أن توقف القتال.

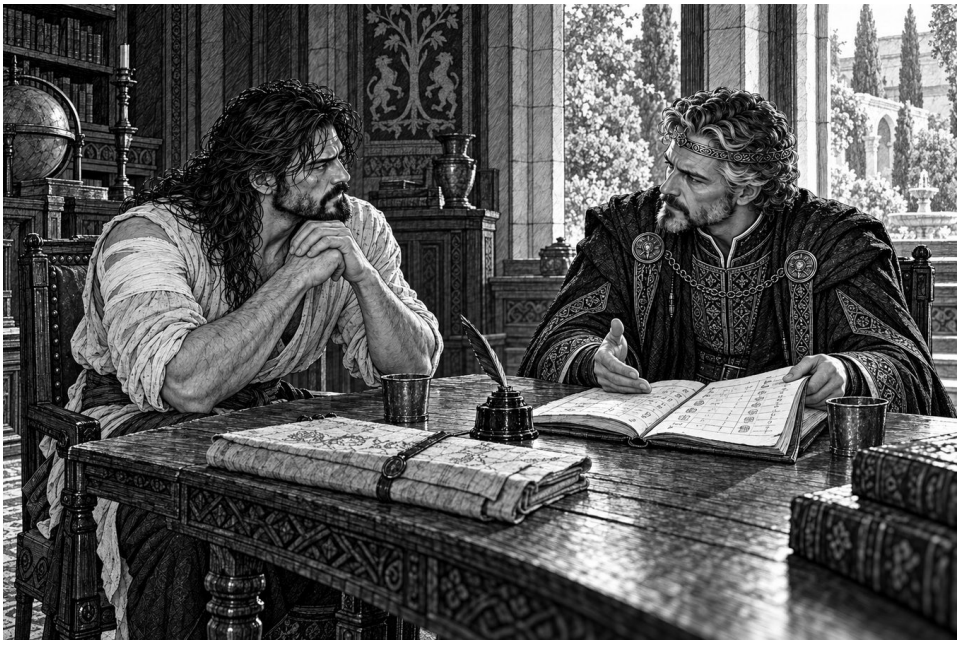

نظر سايرن إلى الأرقام.

كان قد جاء إلى إيفارا وفي ذهنه جيش يستطيع أن يتجه شمالًا. الآن رأى ما سيُترك خلف ذلك الجيش إن خرج.

لم يحتج أردان إلى إخباره مرة أخرى بأنه لا يملك الرجال الذين يطلبهم.

سأله سايرن عن المعابر الشرقية.

أجابه، ثم عن دارن.

قال الملك إن جرحه يحتاج إلى راحة أطول مما يقبل به، وإنه أبقاه في الشرق حتى يكتمل تبديل الحاميات.

— سيقول إنه يستطيع العودة قبل ذلك.

— قالها في أول رسالة.

تحرك طرف فم سايرن، ثم عاد إلى الدفتر.

طال الحديث في الطرق والمخازن. سأل أردان عن المواضع التي بقيت لقاسران، وعن قدرة ميرافا على جمع الرجال، وعن المناجم التي صارت تحت يد فاريك.

أجاب سايرن بما يعرفه، وتوقف عند ما لم يعد يعرفه.

مرت أشهر تغيّر فيها كثير من الأسماء والمواقع وهو بعيد.

قال:

— هذه الأعداد كانت صحيحة قبل سقوطي. لا أريد أن أضعها أمامك كأنني خرجت من دمهار أمس.

أومأ الملك.

أغلق الدفتر، ثم سحب ورقة صغيرة.

— يمكننا أن نبدأ بتبادل خبر موثوق عن الطرق. وبعد أن تستقر المخازن، نرى ما يمكن شراؤه ونقله دون أن نترك حامياتنا تنتظر.

نظر سايرن إليه.

— وما يخص قاسران، تتفق عليه مع ميرافا.

بقي القلم في يد أردان.

— حتى وأنت هنا؟

— هي التي بقيت فيها.

لم يقلها بسهولة.

أعاد الملك القلم إلى المحبرة.

— إذن لا تجعل غيابك عنها أطول مما تستطيع أن تفسره حين تعود.

ثبتت يد سايرن فوق ركبته.

لم يَعِد بموعد.

لكنه لم يخفض رأسه هذه المرة.

قال:

— لن أبقى في غرفة أرسل منها ما ينبغي أن أقوله بنفسي.

نظر أردان إلى كتفه.

— قبل ذلك، تبقى في غرفة حتى يستطيع طبيبي إخراجك منها.

أراد سايرن الكلام.

رفع الملك يده.

— هذه ليست مفاوضة بين مملكتين.

◆

كانت الغرفة التي أُعدت له في جناح قديم يمر إليه الخدم أكثر مما يمر إليه الضيوف.

وجد فيها سريرًا أوسع من سرير هارث، وحوضًا، وثيابًا نظيفة وُضعت فوق صندوق. عند النافذة، امتد مقعد يكفي لجلوس رجل دون أن يضطر إلى إسناد ظهره إلى الحجر.

جلس عليه بعدما خرج الطبيب.

ترك الأخير تعليمات للرجل الذي يتولى الغرفة، ثم أعادها لسايرن كأنه يعرف أن الأول لن يكون المشكلة.

حين بقي وحده، فتح حقيبته.

أخرج علامة الحامية ووضعها قرب الحوض. ثم أخذ اللفافة الصغيرة، وفكّ طرفها ليتأكد من بقاء الخرزة داخلها.

سمع طرقًا خفيفًا.

جمع القماش قبل أن يُفتح الباب.

دخلت سيراي.

توقفت عند العتبة حين رأت الثوب النظيف، ثم انتقلت عيناها إلى القماش الذي ظهر قرب كتفه.

أغلقت الباب.

— ظننت أن الطبيب سيترك جزءًا منك بلا رباط.

نظر إلى ذراعه.

— ترك لي ما يكفي لفتح الباب.

اقتربت.

لم تمد يدها إلى وجهه هذه المرة. أخذت المقعد الصغير، ووضعته قبالته، وجلست حتى صارت ترى عينيه دون أن يرفع رأسه.

قالت:

— سمعت اسم هارث كل يوم.

أومأ.

— كان ينبغي أن تسمعيه.

— أعرف.

نظرت إلى الرباط مرة أخرى.

— لكنني كنت أبحث عنك بين ما لم يكتبوه.

مرّت في الممر خطوات، ثم ابتعدت.

أخبرها أنه عاد من الممر مع رجاله، وأن الإصابة عند الكتف أقل مما تبدو تحت القماش. لم يقل إن الخطر كان قليلًا، ولم يحاول إضحاكها حين سألته عن جنبه.

قال إن الطبيب طلب أيامًا من الراحة.

— وهل وافقت؟

— كان أبوك قد وافق عني.

خفضت رأسها قليلًا، وظهرت ابتسامة قصيرة.

بقيت بعد ذلك تنظر إلى يديه.

كانتا أنظف مما رأتهما في دار السرو، لكن أثر الحبال ظل قريبًا من الأصابع، وظهر خط جديد عند مفصل الإبهام.

وضعت يدها فوقهما.

لم يسحبها.

قالت:

— لن أسألك أن تعدني بألّا تقاتل.

رفع عينيه إليها.

— لكن إذا خرجت من هنا، أريد أن أعرف منك. قبل أن أبدأ عدّ الأيام من آخر رسالة.

أدار كفه تحت يدها.

— تعرفين مني.

لم تضف سؤالًا عن الموعد.

بقيت ساكنة لحظة، ثم رأت طرف اللفافة قرب الوسادة.

أشارت إليها.

أعطاها إياها.

فتحت القماش، وقلبت الخرزة في الضوء. مرّ إبهامها فوق الشق الصغير، ثم أعادتها إلى موضعها.

— ما زال الخيط أقصر مما أتذكر.

— فقد بعضه في الطريق.

— وأنت أيضًا.

لم يجب.

رفعت رأسها.

كان التعب واضحًا في وجهه الآن، بعدما لم يعد يحتاج إلى إخفائه عن رجال ينتظرون أمرًا.

قالت إن بإمكانه النوم، وإنها ستعود في اليوم التالي.

لكنها لم تنهض فورًا.

سألته عن هارث، فأخبرها عن الباب الذي أصلحاه، وعن الرجل الذي تركه يحتفظ باسمه المستعار حتى بعدما عرف أنه لا يصلح لعامل. ضحكت حين ذكر أن الضابط أبقى علامة الحامية معه لأنه ما يزال ذاهبًا لمعاينة إصلاح.

بعد قليل، مال رأس سايرن إلى الحائط.

توقفت سيراي عن الكلام.

كانت يده ما تزال تحت يدها.

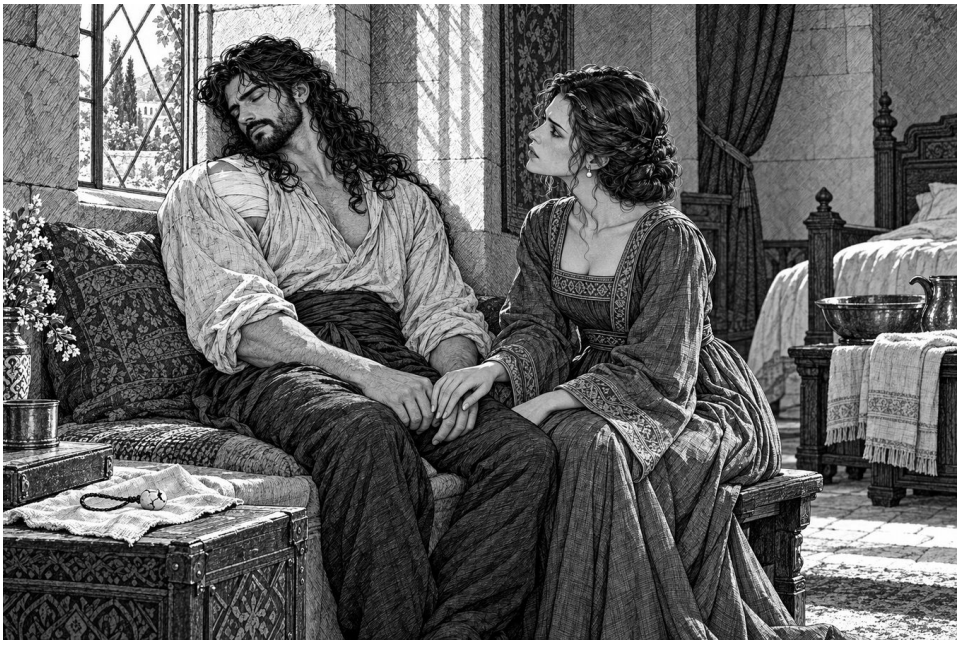

انتظرت حتى انتظم نفسه، ثم سحبت أصابعها برفق، ووضعت اللفافة فوق الصندوق إلى جانبه.

قبل أن تخرج، أبعدت القدح عن الحافة.

◆

وصل قرهان إلى دمهار في الصباح الذي أُعيد فيه فتح دكان الحدّاد قرب الساحة.

لم يكن معه أسرى يُساقون أمام الخيل، ولا عربات غنيمة تُعرض للناس. جاءت خلفه أحمال شعير، وأسلحة تحتاج إلى إصلاح، ورجال استطاعوا الجلوس فوق الأكياس ولم يستطيعوا المشي إلى بيوتهم.

عرفت المدينة الخبر قبل أن تبلغ العربات المخازن.

خرج أصحاب الدكاكين إلى الأبواب. تقدم رجل يسأل عن ابنه، فطلب منه أحد الضباط الانتظار عند دار العلاج. لم يعرف إن كان ذلك يعني أنه عاد معها أو أن عليهم البحث عن اسمه هناك.

عند المفترق، رفعت امرأة إناء ماء إلى جندي.

شرب، ثم أعاده إلى رفيقه قبل أن يعطيه لها.

لم يتوقف قرهان عند الأصوات التي نادت اسمه.

دخل القصر وسلّم تقريره بنفسه.

كانت ميرافا قد قرأت النسخة التي سبقت وصوله، لكنها أبقتها مفتوحة أمامها. وقف إيلدار عند الجانب الآخر من المائدة، ومعه حساب بما خرج إلى المعبر وما عاد منه.

لم تبدأ الملكة بتهنئته.

سألته عن البرج الذي تأخر سقوطه، وعن السبب الذي جعل الرجال يدخلون من جانب المخزن بدل الباب.

شرح لها.

بعد ذلك سألته عن المصابين الذين بقوا عند المعبر.

أجاب بأسمائهم، ثم طلب إرسال مزيد من القماش والأدوات التي يحتاج إليها المضمّدون.

أشارت إلى إيلدار أن يسجل.

حين انتهت الأسئلة، قالت:

— نفذت ما اتفقنا عليه.

رفع قرهان عينيه.

— وأخذنا المعبر.

— وأبقيت رجالًا لحراسته بدل أن تتركه فارغًا وراءك.

لم يخفَ عليه ما تقصده.

جلس بعدما أشارت إلى المقعد.

أخرجت ميرافا ورقة أخرى.

تولت فيها قيادة قرهان تنظيم دفاع المعبر المستعاد والطريق الواصل إليه، وتدريب الوحدتين اللتين قاتلتا معه، مع صلاحية تبديل مواقع الحرس داخل ذلك القطاع. أما نقل قوة خارجه، فيحتاج إلى أمر منها.

قرأ الورقة.

توقف عند حدود القطاع، ثم عند السطر الأخير.

— إن تحركت قوة رهفان قبل أن يصل جوابك؟

قالت:

— تدافع عن الموضع. لا تبدأ حربًا أخرى لأنك وجدت طريقًا مفتوحًا.

أعاد النظر إلى الخريطة.

كان يستطيع أن يرى الطريق الذي تركه بعد المعركة. ما زال مقتنعًا بأنه كان سيبلغ الحامية المنسحبة قبل الظلام.

لكن المخازن امتلأت بما أخذه، والرجال عرفوا من قادهم إليه.

وضع الورقة فوق المائدة.

— أريد اختيار ضباط التدريب.

— ترفع أسماءهم إلى إيلدار اليوم.

أومأ.

لم يطلب أكثر في تلك الجلسة.

عند خروجه، وجد في الممر ضابطين ينتظرانه. لم يأتيا معًا، لكن كليهما حمل قائمة برجال يريد إلحاقهم بالتدريب.

أخذهما إلى النافذة.

سأل الأول عن عدد من يستطيعون حمل درع طوال الصباح، والثاني عن الرماح التي يملكها فعلًا.

من داخل الغرفة، وصل صوته إلى ميرافا.

كانت توقع أمر إرسال القماش إلى المصابين.

قال إيلدار:

— سيبدأ قبل أن يجف الختم.

وضعت الملكة القلم.

— إذن تصلنا الأسماء قبل المساء.

◆

دخلت أزال على جروان دون درعها.

لم يسمح لها الجرح بارتداء الكتف المعدنية، فتركت الدرع كله في غرفتها، وجاءت بمعطف عُقد عند الجهة السليمة. كان ذلك أول ما رآه الملك فيها.

لم يسألها إن كانت تتألم.

أشار إلى المقعد.

جلست أزال، وأسندت سيفها الرفيع إلى جانب المقعد، ثم وضعت ذراعها المصابة فوق حجرها.

وقف ماردين قرب الخزانة، ومعه تقارير وصلت بأختام لم تتشابه.

سأل جروان عن آخر وحدة عبرت الحدود.

ذكرت أزال قائدها والموضع الذي خرجت منه.

ثم عن الأسرى الذين أُعيدوا.

أجابت.

بعد ذلك وضع الملك أمامها تقرير المعركة عند السور المهجور.

— دارن؟

نظرت أزال إلى السطر الذي يصف تراجع قواتها.

— كان هناك.

— وهل كان وحده سبب هذا؟

رفعت الأميرة رأسها.

— نقل رجاله قبل أن نهاجم. دخلنا أرضًا اختارها، وتأخرنا في فهم ما تركه لنا عند السور.

لم تعجب الجملة جروان.

أبقى إصبعه فوق التقرير.

— وأسقط سيفك؟

— لا.

— لكنه أوقفك.

نظرت أزال إلى ذراعها.

— وأوقفنا نحن أيضًا وصوله إلى رجالنا أثناء الانسحاب.

ساد صمت قصير.

تحرك ماردين نحو المائدة، ووضع تقرير الغرب بينهما.

لم يحمل توقيع رالك.

قرأت أزال ما فيه، ثم أعادته.

قال جروان:

— من قتله؟

— لم أكن هناك.

— أسأل عمّا قاله الرجال.

— قالوا إن قائدهم قاتل عند العربات. واختلفوا في الرجل الذي قتله.

أشار ماردين إلى هامش الورقة.

ورد وصف لثياب خشنة، وشعر داكن، وجرح جعله يتراجع إلى الجدار بعد القتال. لم يُذكر اسم اتفق عليه شاهدان.

قال جروان:

— وهارث؟

أجابه ماردين بأن سجله يعود إلى حامية صغيرة، وأنه لم يُعرف بقيادة قوة بهذا الحجم قبل الحرب.

أعاد الملك الورقة إلى منتصف المائدة.

— عرف هذه المرة.

لم يرد أحد.

طلبت أزال معرفة ما إذا كانت الحاميات ستُبدّل قبل الشتاء. أجابها ماردين، وانتقل الحديث إلى الرجال الذين يحتاجون إلى راحة والدواب التي لم تعد تصلح للطريق.

حين انتهى الحديث، أذن لها جروان بالانصراف.

انتظر حتى أُغلق الباب، ثم سأل ماردين عن جواب فاريك الأخير.

أعطاه الرسالة.

كانت العبارات مهذبة بما يكفي لتُقرأ أمام مجلس، والأعداد قليلة بما يكفي ليعرف جروان أن طلبه رُفض.

مرر يده فوق الطية.

— احتفظ بسجل ما وصل، وما طلبناه ولم يصل.

أومأ ماردين.

— وأخبار هارث؟

نظر الملك إلى تقرير الغرب.

— أريد رجالًا رأوه. لا أريد نسخة أخرى من هذه الورقة.

جمع ماردين التقارير.

بقي تقرير الأرشيف وحده تحت يد جروان.

كان هو الورقة التي بدأ بها كل شيء، ولم يصر الجدار الذي يصفه أقرب إليه.

◆

عاد صاحب الورشة إلى حساب رائف بعدما خفّ العمل في دار الاستقبال.

جلسا عند الباب الخلفي، حيث بقي أثر الكتلة الحجرية في الأرض. أخرج الرجل دفتره، وبلّ إصبعه ليفصل صفحتين التصقتا بغبار الجص.

ذكر الأيام التي عمل فيها رائف عند السور، ثم ما قضاه في إصلاح النوافذ والعربات.

اعترض الشاب عند يوم البستان.

— قبضت أجره.

— هذا حساب اليوم الذي عدت فيه لتحمل صاحبه.

قال رائف إن ذلك لم يكن عملًا أرسله إليه.

رفع الرجل رأسه.

— وعربة اليد التي أصلحتها لمن كانت؟

لم يجد جوابًا يختصر الأمر.

عاد صاحب الورشة إلى الدفتر.

بعد قليل، دفع إليه نقودًا أكثر مما توقع، ثم أخرج من تحت المقعد أداة قياس كان رائف يستخدمها منذ دخوله الورشة.

وضعها فوق المال.

— هذه تخص المكان.

أومأ رائف.

— أعرف.

— ولهذا تعيدها الآن، قبل أن تخرج بها وتقول إنك نسيت.

ناولها له الشاب.

فتح الرجل صندوقًا قريبًا، وأخرج أداة أصغر، قديمة لكن حافتها مستقيمة.

دفعها إليه.

— وهذه لا يستخدمها أحد هنا.

مرر رائف إبهامه فوق الخشب.

كان عند طرفها اسم مُحي نصفه بكثرة الاستعمال.

قال:

— أستطيع شراء واحدة.

— اشترِ حذاءً أولًا. سمعتك تمشي إلى الباب قبل أن أراك.

نظر رائف إلى نعله.

تحرك طرف فمه، ثم وضع الأداة في حقيبته.

عند الساحة، كان نائل ينتظره فوق درج منخفض.

نهض حين رآه.

سأله عمّا بقي.

قال رائف إن عليه إنهاء مفصل نافذة، وإعادة مفتاح المخزن، وأخذ ثوبه من المرأة التي أصلحته.

انتظر نائل.

— وبعد ذلك؟

نظر رائف إلى الحقيبة في يده.

— بعد ذلك لا أعرف إلى أين تذهبون.

جلس نائل على الدرجة مرة أخرى.

— وأنا أيضًا.

بقي رائف واقفًا فوقه.

— عرض مقنع.

ضحك الفتى.

قال إن أوران أخبره بأن الطريق سيطول هذه المرة، وإنهم لن ينتظروا عودة القوافل الكبيرة. سيسيرون بما يستطيعون حمله، ويتوقفون حيث يجدون موضعًا آمنًا.

سأله رائف عن الطعام، فأراه نائل ما جمعه في ورقة.

أخذها الشاب.

قرأ السطر الأول، ثم الثاني.

— نسيت الملح.

— لم أنسه. لم أكتبه.

— هذه طريقة جيدة لتركه في المدينة.

أضافه، ثم كتب أشياء أخرى.

راقبه نائل حتى انتهى.

— هذا يعني أنك تأتي؟

طوى رائف الورقة وأعادها إليه.

— يعني أنني لن آكل خبزًا بلا ملح لأنك لم تكتبه.

◆

وجد نائل أوران يصلح حزام الحقيبة عند النافذة.

كان الشيخ قد أخرج ما فيها إلى الفراش. لم تكن الأشياء كثيرة؛ ثوب مطوي، وأوراق، وأدوات صغيرة، وقطعة قماش لفّ بها شيئًا أبقاه بعيدًا عن الضوء.

توقف نائل عند الباب.

أخبره أن رائف سيأتي.

رفع أوران رأسه.

— هل أخبرته إلى أين؟

— لا أعرف إلى أين.

أعاد الشيخ الإبرة إلى الجلد.

جلس نائل على المقعد.

ظل ينظر إلى الأوراق فوق الفراش حتى مد يده إلى رسم القناة. فتحه عند الخط الذي رسمه قبل أن يرى المجرى، ثم وضعه أمام أوران.

— لم أخمّن هذا.

لم يتوقف الشيخ عن العمل فورًا.

شد الخيط حتى استقرت الغرزة، ثم وضع الحزام.

قال نائل:

— قلت ذلك لأنني لم أعرف شيئًا آخر أقوله. عند الجدار، شعرت بالمكان قبل أن نفتحه.

أومأ أوران.

— أعرف.

ضاق وجه الفتى قليلًا.

لم يكن الجواب الذي توقعه، لكنه كان الجواب الذي خشي أنه سيأتي.

— منذ متى؟

أخذ الشيخ الورقة.

تتبع العلامة التي وضعها بنفسه عند آخر موضع رآه نائل.

— كنت أظن. ثم صرت أرى ما يؤكد ظني.

— ولم تقل لي؟

— لو قلت لك يومها إن إحساسك يقودك، هل كنت ستنتظر رائف ليفحص الحجر؟

تذكر الدرجة التي تحركت تحت قدمه، والصوت الذي تأخر وصوله من الأسفل.

لم يجب بسرعة.

قال:

— ربما لا.

— لهذا كنت أريدك أن تتعلم الفرق بين ما تشعر به وما يستطيع أن يحمل قدمك.

أعاد إليه الرسم.

بقي نائل ممسكًا به.

نظر إلى العصا المعدنية قرب الباب.

لاحظ أوران نظرته.

— بدأ الأمر قبل أن تحملها.

رفع الفتى رأسه.

— إذن ما هو؟

أبعد الشيخ أدواته عن الفراش، وجلس.

ظهر التعب حول عينيه في ضوء النافذة، لكنه لم يبدُ مترددًا في سماع السؤال.

قال:

— شيء يتصل بالمكان على نحو لا أعرف كيف أعلّمك إياه بالكلام. رأيت أثره من قبل، وأعرف أن ما يحدث لك ليس مصادفة.

— عند مَن رأيته؟

سكت أوران.

في الأسفل، نادى صاحب النزل على صبي يحمل الحطب.

انتظر نائل حتى ابتعد الصوت، لكن الشيخ لم يستخدمه ليغير الحديث.

قال:

— سنخرج بعد يومين. هناك موضع أريد أن أصل إليه معك.

نظر الفتى إلى الرسم.

— هل ستجيبني هناك؟

— سأجيبك.

طوى نائل الورقة ببطء.

لم يكن ذلك كافيًا.

لكنه سمع في صوت أوران شيئًا مختلفًا عن المرات التي تركه فيها يجرب ويخطئ؛ كان قد اتخذ قرارًا، ولم يبقَ إلا الطريق إليه.

◆

وصل جواب إيلان إلى سيلمارا في صندوق حمل معه عينات من الحديد.

رفع موظف الميناء الرسالة من بين الأوراق، ونقلها إلى القصر قبل أن يذهب لعد الحمولة. كان قد تعلم خلال الأسابيع الماضية أن ما يتأخر في الصندوق قد يغير ما ينبغي فعله بما حوله.

فتحت تاليا الغلاف قرب النافذة.

وافق ملك ألدوريا على الاجتماع.

لم يوافق على المكان المقترح في رسالة لاحقة، وطلب دارًا يمكن الوصول إليها من الطرق البرية دون عبور العاصمة أو المرور بميناء. وحدد عدد من سيصحبهم، ثم ترك للملكتين الاتفاق على عدد مماثل.

قرأت تاليا حتى النهاية.

وضعت الرسالة إلى جانب جواب نومارا.

جاء قبول إيرانا أقصر، لكنه تضمن أسئلة أكثر: من يتولى حراسة الطريق الأخير؟ أين تقيم الوفود؟ وهل تُسجل المداولات كلها، أم ما يُتفق عليه فقط؟

استدعت تاليا المسؤول عن الدار التي يمكن أن تستقبلهم.

دخل وهو يحمل مفاتيح وسجلًا للصيانة، وظن أنها ستسأله عن الغرف التي تسرب إليها المطر.

سألته عنها فعلًا.

ثم عن الماء، والإسطبل، والمسافة بين غرف الضيوف والقاعة الكبرى.

أجاب، وأخذ يضيف بنفسه ما يحتاج إلى إصلاح.

عندما ذكر المائدة الطويلة، طلبت منه قياسها.

استغرب.

قالت إن عليها أن تتسع للخرائط وثلاثة أشخاص يجلسون بحيث يرى كل واحد منهم وجهَي الآخرين.

خرج الرجل ليأتي بالقياس.

بقيت تاليا مع الكاتب.

أملت جوابين يثبتان الموافقة على الاجتماع، ويقترحان موعدًا يسمح بوصول الوفود دون استعجال. لم تطلب رايات إضافية عند الدار، ولا استقبالًا في الميناء.

حين انتهى، قرأ عليها أسماء الحكام الثلاثة.

أومأت.

كان عليها الآن أن تعد ما ستضعه أمامهم.

فتحت سجل الحبال والخشب الذي بدأ منه الحديث كله، وأخرجت ورقة جديدة.

في رأسها كتبت ما تستطيع ميرازا تقديمه.

وتركت تحت ذلك مكانًا لما ستطلبه.

◆

قضى سايرن صباحه التالي مع طبيب القصر.

أُزيل الرباط عن كتفه، وغُسل موضع الجرح، ثم طُلب منه أن يرفع ذراعه إلى الحد الذي يستطيع بلوغه دون أن يميل بجسده.

فعل.

كتب الطبيب ملاحظة لم يسمح له بقراءتها.

بعد خروجه، دخل خادم يحمل طعامًا وورقة من مكتب أردان. لم تكن أمرًا عسكريًا؛ سأل الملك إن كان يستطيع مراجعة أسماء بعض المعابر التي ذُكرت في حديثهما، وتحديد ما يعرفه منها بنفسه.

فتح سايرن حقيبته ليخرج ما يحتاج إليه.

ظهرت ورقة القناة.

وضعها فوق المائدة، ثم جلس.

بقي ينظر إلى الأرقام التي كتبها رائف، وإلى الامتداد الذي أضافته اليد الأخرى.

تذكر نائل وهو يقول إنه لم يقسه.

لم يكن في صوته ما يشبه ادعاء رجل يريد أن يُعجب من أمامه. كان منشغلًا بإعطاء صاحبه حقه في العمل، وبالمقعد الذي ينتظر إصلاحه قرب الباب.

أخذ سايرن القلم.

كتب عند حافة الرسم: «رائف — القياسات».

ثم ترك مسافة قصيرة، وكتب: «نائل».

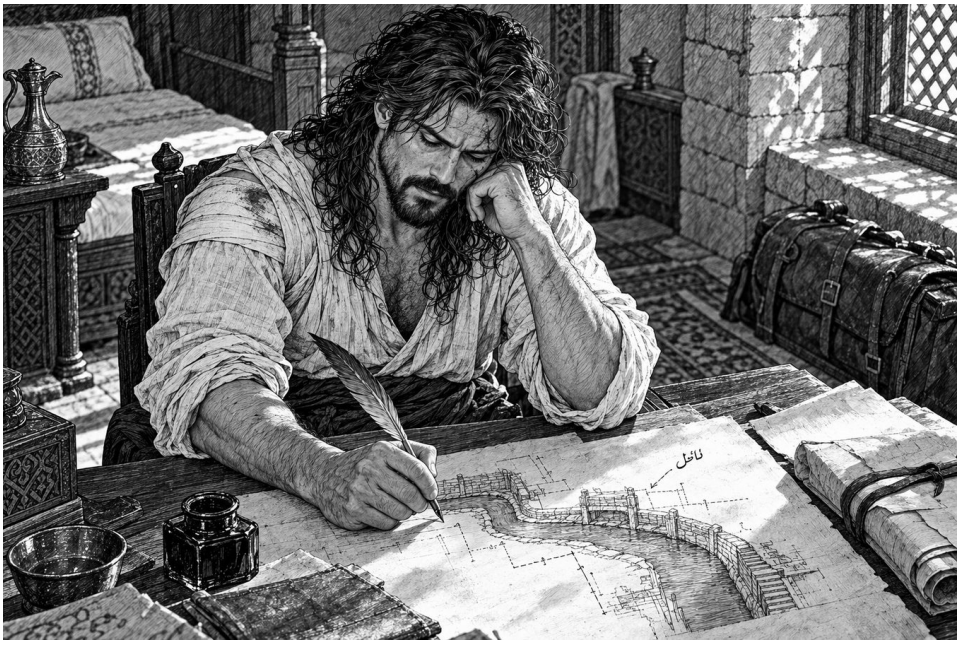

توقف.

كان يستطيع أن يرسل من يسأل عنه في النزل. لكنه لم يكن يعرف بعد ما الذي يريد سؤاله، ولا إن كان استدعاء فتى إلى القصر سيترك له حرية الجواب كما تركها له مقعد قرب الخبز.

أعاد الورقة إلى جانب الخريطة.

من الفناء وصل صوت جندي يطلب من السائس الانتظار حتى يشد الحزام.

نظر سايرن إلى الطريق الظاهر بين جناحي القصر.

«أحب أن أعرف أن هناك طريقًا آخر.»

لم يكتب الجملة.

طوى الرسم بحيث بقي الاسم إلى الداخل، ثم وضعه بين أوراقه الخاصة.

بعد ذلك بدأ يجيب عن أسئلة الملك.

◆

في صباح الرحيل، تأخر نائل لأن الحقيبة لم تُغلق.

أخرج منها رغيفًا، فأُغلقت. أعاده بطريقة أخرى، فلم تُغلق. وقف أوران عند الباب يراقبه حتى مدّ الفتى يده إلى الحبل ليشدها بالقوة.

قال:

— اترك لها مكانًا لما ستأخذه في الطريق.

نظر نائل إلى الخبز.

— سنأكل هذا.

— ليس قبل أن تصل إلى الدرج، على ما أرجو.

أخذ منه رغيفًا، ووضعه في حقيبته.

نزلوا.

كان صاحب النزل يعد نقودًا خلف المائدة. رفع رأسه حين رأى العصا في يد نائل، ثم أشار إلى المقعد القصير قرب الباب.

جلس عليه الفتى ليشد حذاءه.

بقي ثابتًا.

قال الرجل:

— هكذا كان منذ البداية.

رفع نائل عينيه إليه.

— صار أفضل قليلًا.

لم يعطه الرجل جوابًا، لكنه وضع فوق المائدة قطعة قماش فيها طعام لم يدخل في الحساب.

حملها أوران.

خرج الاثنان إلى الشارع.

فتحت الدكاكين أبوابها، ووقف عمال فوق سلم يرفعون عارضة جديدة إلى واجهة أصابها حريق صغير خلال أيام الإنذار. عند النافورة، كانت امرأة تغسل غطاءً أخذته من دار الاستقبال، وقد تعهدت بإعادته قبل المساء.

لم تخلُ المدينة من أثر الحرب.

لكن الطريق إلى البوابة لم يعد يمتلئ بمن يدخلون وحدهم.

خرجت عربات تحمل أدوات وبذورًا، ورجال عادوا يبحثون عن بيوت تركوها على عجل. وقف الحراس يراجعون الأسماء، ثم يرفعون الحاجز في فترات متقاربة.

انتظر نائل إلى جانب أوران.

نظر خلفه مرتين.

قال إن رائف يعرف الوقت.

أجابه الشيخ بأنه يعرف أيضًا الطريق إلى البوابة.

عندما عبرا، لم يكن الشاب قد ظهر.

مشيا حتى الموضع الذي تتسع فيه الأرض خارج السور، ثم سمعا صوتًا يناديهما.

جاء رائف مسرعًا، وحقيبته تضرب جانبه. حمل لفافة أدوات فوق كتفه، وتوقف حين بلغهما ليلتقط نفسه.

قال نائل:

— ظننتك عدت إلى الورشة.

— عدت.

رفع الحقيبة قليلًا.

— نسيت المفتاح.

نظر الفتى إلى حذائه.

كان جديدًا.

لاحظ رائف نظرته.

— لا تبدأ.

تابعوا السير.

عند أول مفترق، أخرج رائف الورقة التي كتب فيها ما يحتاجون إليه، وراجعها كأنه يستطيع العودة إذا وجد شيئًا ناقصًا. ثم طواها، وسأل أوران عن الطريق.

أشار الشيخ إلى المسلك الذي ينحرف عن طريق القوافل.

تقدم رائف ليرى حال الأرض.

بقي نائل إلى جانب أوران.

ابتعدت أصوات البوابة، وحل محلها احتكاك الحصى تحت الأقدام. من التلة الصغيرة، ظهر طرف القصر فوق الأبنية، ثم أخفته الأشجار.

نظر نائل إلى المسلك الذي اختاره الشيخ.

لم يكن هو الطريق الذي توقع أن يسلكوه.

قال:

— إلى أين نذهب؟

أبقى أوران عينيه أمامه خطوات أخرى، ثم توقف قرب حجر يحدد حافة الحقل.

نظر إلى الفتى.

— إلى مكان أخّرت الذهاب إليه أكثر مما ينبغي.

انتظر نائل.

هذه المرة لم يضف سؤالًا يساعد الشيخ على إعطائه نصف جواب.

حرّك أوران الحزام فوق كتفه.

— هناك ستعرف الحقيقة كاملة عن أصلك. وما الذي ينتظرك، وما دورك فيه…

سكت لحظة.

— ومن أكون أنا.

بقي نائل ينظر إليه.

كان قد انتظر حديثًا عن القناة، أو الخرائط، أو ما يشعر به حين يضع كفه على الحجر. لم يتوقع أن يصل السؤال إلى الرجل الذي عرف صوته قبل أن يتذكر معظم وجوه قريته.

نظر إلى اليد التي أمسكت الحزام.

تلك التي أصلحت ثيابه، وأعادت العصا إلى موضعها بين أصابعه، وأمسكت به حين كاد يسقط عند المجرى.

ثم عاد إلى وجهه.

— ومن تكون أنت؟

لم يبتسم أوران.

— سأخبرك هناك. وأريك ما بقي.



تحركت شفتا نائل، لكنه لم يجد سؤالًا واحدًا يستطيع أن يضعه قبل البقية.

أراد أن يسأل عن أبيه.

وعن الخرائط.

وعن الدرج الذي كان مفتوحًا حين مرّ أوران من مكان لا ينبغي أن يكون قد عرفه.

من الأمام، ناداهما رائف.

وجد موضعًا انقسم فيه المسلك حول أرض رطبة، وأراد معرفة الجهة التي يتابعون منها.

رفع أوران يده، وأشار إلى اليمين.

ثم بدأ يمشي.

بقي نائل قرب الحجر لحظة.

كانت تيرافا خلفه، والرسم الذي حمله في حقيبته يصف جزءًا صغيرًا من أرض عرفها. أما الطريق أمامه، فلم يعرف منه إلا الرجل الذي يسير فيه، ولم يعد متأكدًا من مقدار ما يعرفه عنه.

شد الحقيبة فوق كتفه، وأخذ عصاه.

أسرع نائل حتى صار إلى جانبه. كانت لديه أسئلة تكفي الطريق كله.

نهاية الجزء الثاني

دروب الرماد

«كانت لديه أسئلة تكفي الطريق كله.»

بلاد التيجان السبعة

دروب الرماد

حين تسكت السيوف، تبقى الطرقَ تحمل ما أخفته الحرب.

في الممالك السيع، تعود العربات محمّلة بالجرحى، وتتبدل الحدود قبل أن يجف حبر الخرائظ. وبين القصور والحصون، تُعقد اتفاقات لا يعرف الجنود منها إلا الطريق الذي أمروا بسلوكه.

يصل نائل إلى إيفارا بحثًا عن عالم أوسع، فيجد نفسه بين أناس يحاولون إنقاذ ما يستطيعون حمله. وكلما اقترب من الحجارة والممرات المنسية، أحسّ بأشياء لم يتعلّم كيف يعرفها... وأدرك أن الشيخ الذي رافقه يخفي أكثر مما يقول.

وفي مكان آخر، يحمل رجلٌ اسمًا مستعارًا، ويحاول العودة إلى حياة ظنّ أصحابها أنه غادرها إلى الأبد. لكن العودة قد تكون أصعب من النجاة.

«دروب الرماد»، الجزء الثاني من «بلاد التيجان السبعة»، رحلة تتقاطع فيها مصائر الملوك والغرباء، وتترك فيها الحرب أسئلة لا تستطيع المعاهدات إسكاتها.

وبعيدًا عن الأسوار، يبدأ طريقٌ يقود إلى الحقيقة.



رضا الحكيم الشعيري